إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يسطو على حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

رواية

ABU ABDO ALBAGL

حنان الشيخ

إنها لندن يا عزيزي

مدونة ابو عبدو

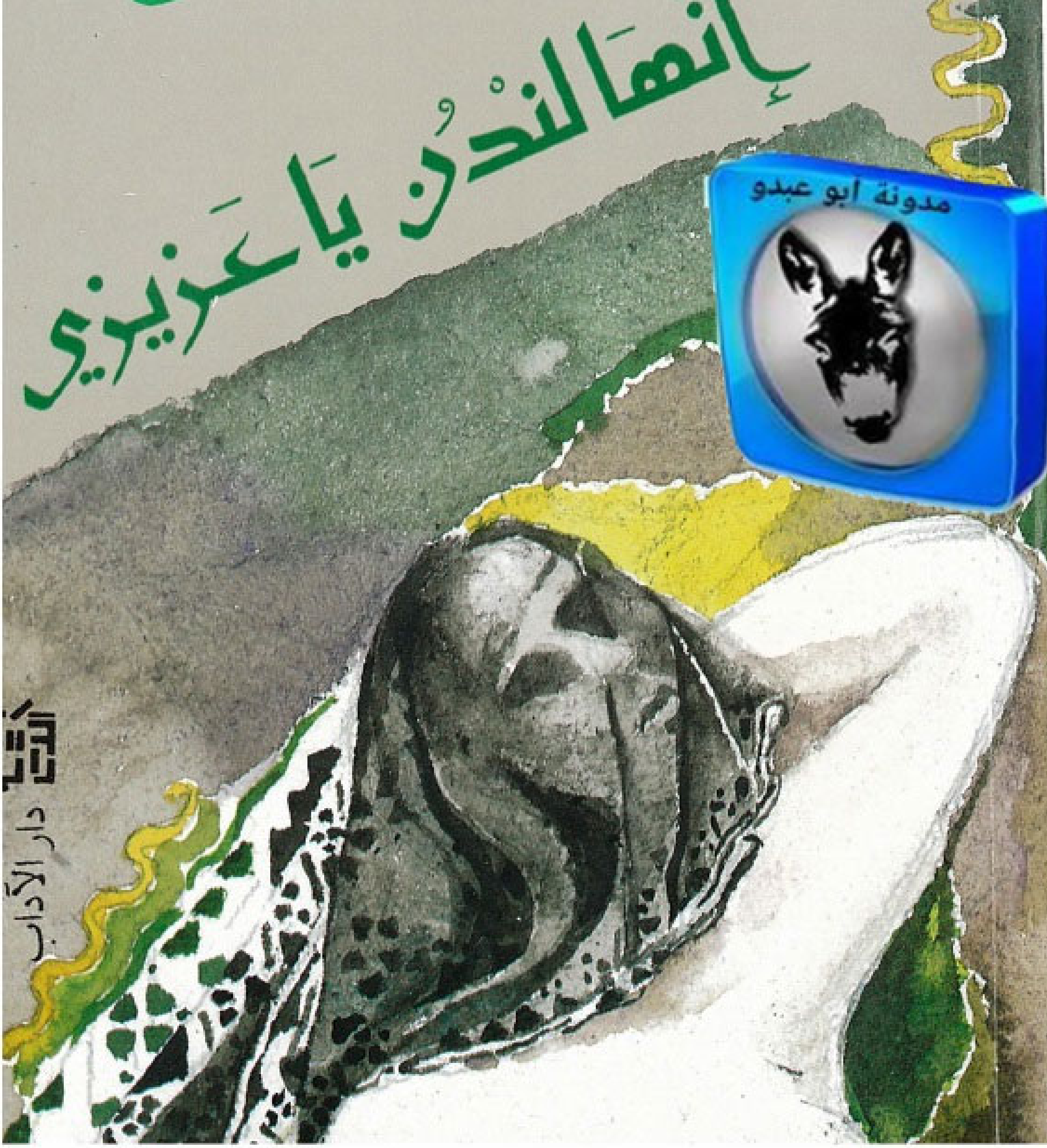

دار الآداب

حنان الشيخ

إنّها لندن يا عزيزي

رواية

دار الآداب

إنّها لندن، يا عزيزي

حنان الشيخ/روائية لبنانية

الطبعة الأولى عام ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

صياح الراكبة أميرة: «ويلي ويلي» يطغى على عبارات «الله أكبر، الله أكبر»، الأدعية الدينية التي تعلو من أفواه بقية المسافرين والطائرة تعلو وترمي نفسها وكأنها يويو.

صراخها المتواصل والمطبّ الهوائيّ يخلعان قلب جارتها الراكبة لميس: «ابني ابني، كيف تركته؟» ثم «شنطة يدي.. جواز سفري!» ما إن تستقيم الطائرة قليلاً.

يُسرع راكب إنكليزيّ لمساعدة المضيفة على النهوض.

لكنّ صخب أميرة المتواصل يخطف من الركاب قدرة العودة إلى السكون، ويجعلهم يتحولون إلى رادر يلتقط أيّ اهتزاز ولو متخيَّل وبخاصة أنهم وعوا أنهم داخل علبة من صفيح، تحلّق بهم بواسطة جناحين اصطناعيين، وتهيم في الفضاء الواسع بين الغيوم والمجهول.

تولول أميرة وهي تنفض رسغيها في وجهِ كلّ من جاء يُطَمئنها، فتبدو أصابعها كأسماك صغيرة أحاطت أعناقَها بخواتم برّاقة وانتهت بأذيال ملوّنة.

اتساع وجهها وتبرّجُه، والنظارات الطبّية الكبيرة ذات الإطار الذهبّي تحيط بعينيها، وأحمرُ شفاهها الفاقع، كل هذا جعلها تبدو وكأنها رفرافُ سيارة أولدزموبيل قديمة.

نهضتْ تحاول الفرار من الطائرة أكثر من مرة. مؤخِّرتُها طاولةٌ صغيرةٌ يستطيع المرء أن يضع منفضةً أو كوبًا عليها.

تصيح وتبكي ولا تسمع كلمات التهدئة سواء من جارتها ليس أو من الراكب الخليجيّ الذي التقت به في مطار دبيّ: «لا تخافي، الأعمار بيد الله، مالك السموات والأرض»، أو من الراكب الإنكليزيّ الذي كان يجلس موازاتها في الجهة الأخرى، أو حتى من كابتن الطائرة الذي غادر مقصورته وأخذ يتمشّى بين الركاب يطمئنهم وكأنه مزارع يتفقّد أشجاره.

«لا تبكي، كل شيء على ما يرام، انتهى المطبّ، ولن يَحْدث مرةً أخرى». يردّد نيقولاس هذه الجملة على مسامعها بكل صدق وحرارة.

لربما سمعته وفتحتْ عينيها.

«ويلي ويلي، الله يستر، التوبة يا ربي، لا تحاسبني، لا تعاقبني».

ما إنْ قلعت الطائرة حتى أخذت تَعُدّ الدولارات وتضع كل رزمة في مغلف.

«إنه مطبّ هواء لا أكثر ولا أقل».

وكأنه بجملته هذه قد ذكّرها بما حصل فازداد تشنّجها وهي ترى نفسها تهوي من جديد.

ينظر نيقولاس إلى ليس المتماسكة. يرفع حاجبيه، ويزمّ فمه، وكأنه يعترف لها بفشله، في مساعدة جارتها الراكبة.

داخلُ ليس يغلي من الرعب.. جواز سفرها الغالي ما زال مفقودًا رغم أنّ المضيفة أعلنتْ فقدانه أكثر من مرة.

بعد لحظات، عاد نيقولاس يسلّم ليس جواز سفرها بعد أن لمحه على الأرض تحت مقعد قبالته. تشكره وكأنه أعاد إليها حياتها. ينظر في وجهها أَطول مما أراد وهو يفكر بنساء الـ Devadasis العاريات في سكون المعبد في «كاجوراهو» الذي زاره منذ يومين. كنّ يعبقن بالشهوة وهنّ يسرّحن شعرهنّ أو يطرحن رؤوسهنّ إلى الخلف، بأثدائهنّ المنتصبة وقاماتهنّ المشوقة المتماسكة.

رجل يرتدي ملابسَ لافتةً للنظر، يتشبّث بسلة من قش ذاتِ غطاء، يبحث عن شيء وإذا به يجده في درجة رجال الأعمال. انحنى يهزّ ليس من يدها:

«دخيلك مداموزيل، راح جنّ. حضرتك عربيّة مش هيك؟ دخيلك عندك حبة منوِّمة أو مهدِّئة للأعصاب؟ دخيلك أعصابي بالويل».

تمدّ ليس يدها إلى علبة الحبوب المهدِّئة التي كانت تنام بسلام خلف سحّاب الجيب، وهي تفكر، كيف عرف رجلُ السلّة أنها تتعاطاها.

«شكرًا، شكرًا، الله أرسلك حتى تنقذيني».

تنظر إليهما أميرة التي خفّ بكاؤها، وجلستْ تستغفر ربّها واعدة إياه بالتوبة.

تَعْرض عليها ليس من جديد حبةَ مهَدِّئ، لكنّ أميرة تنفض الأسماك الصغيرة ذاتها:

«لا، لا، أعوذ بالله... لا أريد أن أنعس إذا لا سمح الله حَدَثَ شيء، الله يستر».

ـ «مداموزيل، مداموزيل، بدّي خَبْرِك سرّ، دخيلك احلفي إنك بتخلّيه تحت إجريْك.. احلفي ما تشكيني. معلش ما تحلفي، مبيّن عليك إنسانة.. عندي بالسلة سعدان صغير».

وتنظر ليس إلى السلة الصغيرة، وتتساءل كيف يمكن أن تخفي سعدانًا؟

لم تكن تريد التدخل.. ولربما اعتُقِل. شدّت على نفسها وسألته: «هل هرب؟»

ـ «وين بدو يهرب، ما أنا رابط له إجريه وإيديه بالسلة، وهي لازقة بصدري مثل اللصقة الأميركية.. لازم أعطيه حبة حتى ينام. عم ينجر قش السلّة».

ـ «بس أنا عطيتك».

ـ «بعرف عطيتيني حبتين، والله أنا مش مجنون، مع إنه مبيَّن عليّ مجنون. بس هو ما بياخد الحبة إلا إذا حطيتها بشيء يأكله بالعنب أو الشوكولا...».

ـ «لا، متأسفة ما عندي شيء.. اسأل المضيفة».

ـ «معقول اسألها؟ الناس بالناس والقطّة بالنّفاس. ما راح تردّ عليّ، ما حدا راح يردّ على حدا، مشغولين ومخفوقين.»

وعندما لم يجد على ملامح ليس لهفةً ما لإنقاذه يميل إلى أميرة.

- «دخيلك، مدام، ليش وقفتِ تبكي وتنوحي؟ دخيلك ارجعي هَسْتري واطلبي شي قطعة جبنة، شي حبة شوكولا».

لم تدعه أميرة يُكْمل بل عادت إلى البكاء من جديد، وهي تنفض رسغيها: «الله يستر، الله يستر... ضغطي نزل.. أحسُّ بدوار، أرجوكم قطعة خبز، قطعة شوكولا».

تقدَّم المضيفة لأميرة ما طلبته. تشعر أميرة بالخوف من جديد، فهي قد وَعَدت الله بأنها ستصبح في غاية الاستقامة.. لكنْ أليس فعلُ الخير عند الله حسنةً وثوابًا؟

تُناول أميرة الرجلَ كلَّ ما أتتها به المضيفة، فيشكرها هامًا بتقبيل يدها قبل أن يختفي.

«الحمد لله على السلامة»، ردد الركاب العربُ واحدهم للآخر، ما إنْ أعلن كابتن الطائرة أنَّ الهبوط في مطار هيثرو بعد ١٥ دقيقة.

يتمطّى الرجل الخليجّي من الصف الأول مخاطبًا أميرة:

«الحمد لله عالسلامة، توكّلي بالله دائمًا، هو على كل شيء قدير».

عندما سمعتْ لميس كلمة هيثرو فكَّرتْ بإدوارد هيث، ومحلة همستد هيث، والمنحنيات الخضراء والمقعد والعمود الكهربائي، وجيل رو معلّمةِ ابنها في مدرسة الحضانة، وبسؤال ابنها لمعلمته: هل كانت تعلمهم أغنية Row Row Row your Boat لأنها كانت تطابق اسمها؟

كل شيء أخضر حتى السواقي، والأنهر كانت مائلةً إلى الاخضرار.

الركّاب العرب يتمطّون ويبسملون. يشهق نيقولاس، هو الآخر، للون الأخضر. غاب عن باله كم يشتاق إليه وكم افتقدته حواسّه.

فعلاً كان الأطباء في الخليج يدوّنون على روشتة المريض: «صيف في ربوع انكلترا». كلّ رقعة خضراء في عُمان يَنْظر إليها المرءُ وكأنها أعجوبة. ولذلك كانت وسائل الإعلام تصوِّر الشجيرات التي تحمل الزهور كما لو كانت تعلن اكتشاف آبار جديدة للبترول. يمدّ نيقولاس إصبعه كإصبع آدم ليلامس إصبَع الإله لندن، فتختفي عُمان وتصبح كوكباً بعيداً: كأنها لم تجذبه يوماً بجبالها المدرّجة.

يعود رجل السلّة إلى ليس وأميرة، رغم اعتراض المضيفة واللحاق به:

ـ «دخيلكم راح موت».

تَشْعر ليس بالشفقة عليه:

ـ «هل تريد حبة ثالثة؟»

ـ «لا ، لا، هو راح فطيس. المصيبة أنا. راح موت من الخوف. خايف يلقطوا السعدان ويكربجوني».

ينحني أكثر، والهلع يضرب في عينيه وكأنهما قلبُه، وهو يسأل ليس وأميرة: هل يفتش رجالُ الجمارك الإنكليز الأشخاص أو حقائب اليد بالأشعة؟ هل يُغرق القرد في التواليت، أم يقول للمضيفة إنه وجده؟

ـ «لا تخف، أنا معك، لا يوجد X Ray، دع الطائرة تنزل أولاً، الله يستر، الله يستر، وأنا أساعدك». إرجعْ مكانك واتكِلّ عليّ. لا.. لا.. اتكل على ربك، الله يستر. الله يستر».

ـ «بس لحظة مدام، صحيح في مطعم اسمه تبوله؟»

ـ «الذي في شارع دجور؟ يبعد خطوات عن بيتي».

وفت أميرة بوعدها. منذ مغادرة الطائرة، لحقتْ بلميس وفرضتْ عليها السير إلى جانبها، بينما جعلتْ رجل السلّة (واسمه سمير) يجرّ العربة التي كانت تحمل حقيبتيهما والسلّة فوقهما مطروحة بلامبالاة. وكلما حاول سمير التكمّش بها غنّت له: «سيبني.. سيبني أحلم، سيبني..»، ثم تشغله عن توتره بقولها: «أنْظُر، الكل معجب بملابسك»، فيتأمل قميصَه الڤرساتشي وجزمةَ الكاوبوي والمعطفَ السميك ذا المقاس الكبير والشالَ الطويل الملوّن، ثم تسأله: «هل أنت متأكد أنك لست كلينغر في مسلسل Mash»؟ فيضحك لها بوجهه الطويل وأنفه الطويل وسالفيه الطويلين وشعرِه الأجعد الذي لا بد أنه قام بتمليسه، ويقول:

ـ «هو لبناني مثلي. صحيح، مدام، أصلُه لبناني».

سائق سيارة أجرة في انتظارها يحمل يافطة: «أميرة فايز». عندما رأت أميرة باصاً صغيراً أوشكتْ أن تؤنِّب السائق، لكنها التفتْ حولها تبحث عن الرجل الخليجيّ وابنِ شقيقه. وعندما لم تجدهما سألتْ لميس مرافقتها.

شعرتْ لميس بالارتياح وبالاطمئنان لأنها لن تدخل لندن وحدها. تحيِن من أميرة نظرة، فترى الشاب الإنكليزيّ الذين حاول تهدئتها «من صميم قلبه.. من كل جوارحه». وإذا بها تناديه.

الفصل الأول

- ١ -

تدير لميس المفتاح في الثقب. تسمع تكةً فترتعب. تلتفت وراءها. إنها وحيدة، مع حقيبة تحمل بطاقة من ثلاثة أحرف LHR. تدخل وتتنسّم رائحة الهجر ذاتها. وعندما ترى شنطاً وصناديق مصطَفّةً إلى حائط الردهة تنفجر بكاءً. كانت ستُشحن إليها في دُبي ما إن تستقر هناك: «لا بأس، أبكي. البكاء مفيد». فتبكي أكثر إلى أن تتوقّف فجأةً وتنهض وكأنها انتهت من واجبٍ ما. تخرّ على الأرض تريد أن تقبّلها، كما أضمرتْ أن تفعل ما إن تصل إلى لندن، تماماً كما يفعل العائدون المبعَدون عن بيوتهم وعن بلادهم قسراً. تصاب بنوبة سعال. الموكيت تدغدغ أنفها، والغبار يخترق حنجرتها. تنهض وتدور في الشقّة.

كانت قد تخيلتْ نفسَها تسرع إلى مدرسة ابنها الداخليّة ما إنْ تحطّ الطائرة، تبحث عنه في كل الفصول منادية: «خالد، خالد»، إلى أن تجده، فتهجم عليه تحتضنه وتطلب منه مسامحتها. عندما كان طفلاً - تبكي من جديد، لذكر ابنها - كانت الموكيت تجمّد سياراته وهو طفلٌ، فيضطر أن يلعب بها في المطبخ. تدخل المطبخ، ثم غرفة

النوم، تلقي بنفسها على السرير. تتمدّد، تتحسس جسمَها وأضلاعه، كفلاحٍ حريص يريد شراء بقرةٍ خالية من الخدوش، ساهياً عن وجود الخدوش تحت جلدها. تمدُّدُها يشعرها بألم، خاصةً عندما لم تجد أنها في حماسة خيالها الذي وعد نفسه ووعدها بالحيوية حين تطأ الأراضي الإنكليزية. لماذا النفس هكذا: كلما تاقت إلى شيء وحصلتْ عليه سئمْت منه وأرادت ما تجهله؟

سافرتْ فور طلاقها إلى دبي، حيث يعيش والداها وأختها المتزوجة التي - نتيجةً لتشجيعها - قررتْ ليس أن تعمل في تزيين البيوت والمكاتب بالنباتات والشجيرات. بدأتْ بشحن الزهور والأغصان والنباتات المجففة وعُدّة صُنعِ الأشجار من كوفنت غاردن. ولكنْ لم يمضِ على وجودها يومان في دبي، حتى راحت تتمنى لو أنها متمدّدة في سريرها في لندن، إذ إنّ ما كان يحدث لها في دُبي لم يكن إلا كمثل الكوابيس التي تنقطع أحداثُها وتتشعّب وتتداخل، تماماً كبكرات خيوط دانتيلا بين أصابع طرّازةٍ غيرِ متمكّنة.

صودر جوازُ سفرها ، وأحيلت على دائرة الجنايات بعد أن ساور رجالَ الجمارك الشكُّ لرؤيتهم الباقات المجفّفة، المصنّفة بالأرقام والأسماء، ووجدوا بينها خمس زهرات من الخشخاش ما زالت البزور في إحداها حيّة.

من أجل هذه الزهرة التي هي كثمرة الرمان، ولكنها أصغر وأجمل وأقل نحافة ، ومن أجل رأسها الذي يتكوّن من شفتيْن

مكوّرتين تَبْعثان بقبلة تحولّتْ إلى كرةٍ، أخذتْ كالقطيع تنصاع خلف زوج شقيقتها الراعي، خلف العشب والكلإ، يتوقّف فتتوقّف، يسير فتسير، حتى حين تشعر بأنه يقودها إلى السراب، من المكاتب والبيوت الفخمة إلى الأروقة وقاعات الانتظار في الوزارات حيث كان يؤكّد لها المسؤولون: «نعرف، نعرف، كنا نغليها، أي والله، للرضّع حتى يناموا.. لكن هذا قبل إبدالنا للقانون». وإذا بدُبي تتبدل، لم تعد البلدَ الذي تنفستْ فيه لميس نسيم الحرية ما إن حطت في مطارها، الذي كان – إلى جانب أناقته ونظافته وضخامته وسرعة خدماته – لا يمتّ بصلة إلى أيّ مطار وحدود عربية بل كان أشبه بفندق. حتى جواز سفرها بدا لرجل الأمن الذي قام بختمه كأنه فاتورة مطعم، خلافاً لأيّ بلد عربيّ دخلتْه كلاجئة عراقية.

من أجل هذه الزهرة التي هي شفتان مكوّرتان تَبْعثان بقبلة، تحولتْ إلى طابة فوق طاولة بلياردو: تَكرج وتَضرب جدرانَ الطاولة وزواياها لكي تهبط من الفتحة، لكنْ دون جدوى، إذ كانت هي بلا فتحات. هكذا بقيْت طيلة شهر بكامله. ولو لم يتدخل مزاجُ رجلٍ واحد ومَنَحَها حريتها، لبقيتْ تتدحرج فوق طاولة البلياردو.

هذا القرار الذي أعطاها حريتها مدّها بالرعب أيضًا، وذلك أنّ القانون في هذا البلد كنايةٌ عن أعشاش عناكب تَغْزل خيوطها بين أوراقه المهترئة. والذين تولوا قضيتها لم يكونوا إلاّ دمى متحركة تضيع الوقت بإحداثها جلبة، تستقبل كراسيها وتودّع الناسَ وتقيم الوعود الكاذبة وهي تعرف أن أياديها مربوطة خلف ظهرها. هم يعرفون أن هناك رأياً واحداً، يقرّ به رجل واحد. اكتشفت أن لا أحد

من هؤلاء تبنّى عرض قضيتها على مرؤوسيه بل ترك الأمور على مجراها.

تفكر أن تتّصل بخالد في مدرسته الداخلية، تفكر أن تعدّ كوباً من الشاي، تفكر أنها سوف تنتظر الساعة الحادية عشرة قبل أن تتصل ببلقيس تسألها مساعدتها في العودة إلى زوجها وابنها.

قرّرتْ هذا في التاكسي عندما شعرتْ باليأس والخوف لمجرد رؤيتها للمنازل والفنادق شبه المهجورة، بستائرها المهملة الحزينة، كأنها فقط واجهاتٌ أمامية لفيلم أو لتمثيلية.

تعلق عيناها في برج BT . تآلفها مع هذه الشقة هو الذي يقف بينها وبين الحقيقة. كان يجب أن ترفض استعمالها رغم إصرار زوجها. «لأنه يودّ أن يعود إليك»، قالت لها شقيقتها، «لم يفقد الأمل بعد، خاصة أنه ليس هناك شخص آخر في حياتك أو حياته».

عاشت معه في هذه الشقّة في السنوات الأولى من زواجهما، لينتقلا بعدها إلى شقّة أخرى، وليبقي زوجُها هذه الشقّة على سبيل الاستثمار، وحتى تتم مراسلاته عبرها. بقيت هذه الشقّة طوال هذه السنين مهجورة إلاّ من الضيوف، الذين كانوا يزورون لندن، ومِنْ تردّد ليس عليها مع منظّفة مرةً كل شهر، واستعمالها بين حين وآخر في السنتين الأخيرتين لتكون وحدها. تقرأ وتسمع الموسيقى بحرية مطلقة من غير أن تشعر بالذنب.

الأشياء المألوفة من حولها تحرّك فيها مشاعر الضياع والخسارة. (على واحدة من (الشقيقات بڤرلي»، صاحبة الشقّة

سابقاً أن تشعر بهذا، ولا أنا)، تفكر ليس، وهي تلمح كنبة غرفة النوم الفستقيّة، ذات القماش المتزحلق والبقعة التي تركها رأس المغنية على ظهر السرير الفستقي اللون أيضاً وطاولة الزينة والصوفا ذات الورود، حيث جلست المغنية وشقيقاتها يتمرَّنَّ معاً على «الحصان»، أغنيةِ الملكة الأم المفضلة. وفي هذا الحمّام تعالى صوتها ينشد «كم ثمن هذا الكلب في الواجهة»؟

كم تباهت حماتها بهذه الشقّة رغم أنّ «البفرلي سيسترز» كنَّ مجهولات لدى العرب.

كانت الطريقة التي قسمت بها المغنية الخزائن بحسب طول ملابسها وارتفاع قبعاتها أولَ مَنْ حرّض ليس ضد طبعها القنوع. شعرت بإعجاب خفيٍّ لهذه المغنّية التي فرضتْ إرادتها، بينما كانت هي لا تجرؤ حتى على التفكير في ما تريده فكيف تصرّح به؟ تركتْ زوجَها يقرّر عنها، وحماتها تقرّر عنه: أعادت تقسيم الخزائن، أعطت ابنها حصّة الأسد، وقامت بتوزيع ملابس ليس في غرفة أخرى وفي ممرّ صغير يؤدّي إلى حمام الضيوف. ومع ذلك ظنت أنها في نعيم، فهي لم تكن تملك سوى مكان لفستان أو فستانين في خزانة البيت قبل أن تتزوّج.

تجد نفسها تهمهم: How much is the dog in the window

woof woof

The one with the waggy tail..

Woof woof كم ثمن هذا الكلب المعروض في الواجهة عوعو. الذي يهزّ ذنبه فرحاً.

تبكي لميس من جديد، تعلّمتْ أغنيات الحضانة وابنها يتعلّمها. عندما تنازلتْ عن حقها في حضانته شرط أن تراه ساعةَ تشاء، لم تتصور مدى الألم الذي سوف تعانيه، كانت كيدٍ تاقت إلى قطفِ وردة عماها لونُها الخلاّب عن رؤية الأشواك المحاطة بها. تفكر أن تتصل به في مدرسته الداخلية. تتراءى لها غرفته في البيت. تحنّ إليها، تحن إلى البيت، هل يعقل أن البيت الذي قضت في تأثيثه زهاء عام لن تراه مرة أخرى، ولن تختالَ فيه، وتفتحَ خزائنه الواسعة، وتتمتّع بجمال الألوان والأثاث؟ والبارْك، والبحيرة تحطّ عليها الطيور مكسوّةً بضباب الصباح وبالشمس أحياناً بدلاً من هذا البرج الواقف ببطنه المحاط بالمقالي والطناجر؟!

تهرع إلى التلفون، تدير رقم بلقيس وتتوقّف عن إدارة الرقم الأخير.. ألا تزال بلقيس صديقة لها؟ أصدقاء الزوجيْن المطلّقيْن يصبحون ككرة قدم لا تعرف في أيّ شباك فريق سوف تدخل وترسو. عليها أن تتصل بزوجها مباشرة لتخبره أنها ستعود إلى البيت. تدير رقم هاتفه النقال، ثم تتوقّف قبل الضغط على الرقم الأخير.

هل تريد حقاً العودة إلى بيتها.. إلى ذلك العالم الذي هربتْ منه!؟

لكن، لكن.. تذكر نفسها، كيف كرهتْ بيت الزوجية وعالمها إلى درجة أنها أصبحت تفكّر فيه وكأنه من بنات أفكارها، كعائلة أدم في المسلسل التلفزيوني تمارس حياتها الفرنكشتينية في قلب بلدة عادية في أميركا. تذكّر نفسها بوجه حماتها المؤنِّب، المنتقِد، وجملتها التي كانت لا تثير في نفس لميس سوى الصراخ.

«لا تكثري من المشاوير، لديك واجبات زوجيّة في الليل».

إنها الآن في لندن الأخرى التي تمنّت أن تعيش فيها حرة، في «سوهو» التي ما أن سارت فيها وحيدة تحمل شمعداناً زجاجياً تحاول تصليحه لدى دكان يدعى «غرزة» حتى شعرتْ أنها سعيدة وكلها غيرة من الشباب في المقهى الذين كانوا في مثل عمرها، من الشاب الذي كان يقوم بتنسيق الزهور في واجهة أحد المحلات وهي تضحك من تحذيرات حماتها وزوجها من الذهاب إلى شوارع سوهو المليئة بالمهووسين جنسياً والمخدرات والكحول. تذكر أنها لم تعد إلى البيت بسرعة بل دخلت إلى PUB، فشربت عصير البرتقال، ثم هبطت درجات إلى الحمّام لتسمع هناك صدى أغنية انكليزية خفق قلبها لها.

لكن لميس تشعر. بأنّ تحقيق هذا الخاطر كبُعْد الشمس عن الأرض. بعد نيلها الطلاق لم تركض في البارك حافية، لم تُصِحْ: «أنا حرّة، أنا حرة»، كما كانت تَعِدُ نفسها، بل جلسْت في غرفة الفندق تواجه قنينة شمبانيا في السطل، تراقب الثلج وهو يذوب، ووجهُها على يدها. تفكر في صديق والدها الذي قُبض عليه في مطار أثينا بسبب قطعة حشيش، وحين أفرج عنه بعد أشهر تحسّر على روتين السجن والجلوسِ مع أحد المساجين تحت شجرة التين يلعبان الشطرنج.

سرعان ما تنجح الشقّة المهجورة في إحباط لميس، تماماً كما تنجح الشراشف القذرة في تشجيع من يريد الانتحار على إنهاء

حياته. تستلقي على بطنها، (عليَّ أن أعرّض ركبتيّ للنور، كما تنصح إحدى المجلات، من أجل أن يحط النور على الوريد والشرايين هناك يتحرك جسمي، وتعود الحيوية إليّ).

«لقد جنيتِ على نفسك وعلينا، كما جنى والدُك على نفسه وعلينا»؛ هكذا ولولتْ أمها عندما علمتْ بطلبها الطلاق عبر الهاتف. صوتها المجنون يصيح:

- «وماذا عن خالد، هل أنتِ بلا قلب؟ أم أنك نسيتِ أنه كان يعيش في بطنك؟ على كلّ... كان عليك أن تحوّلي حياته إلى جحيم حتى يستجيرك ويطلبَ هو الطلاقَ.. أو.. تجعليه يقع في حبّ سواك، حتى لو وجدتِ له امرأةً بنفسك. لماذا لا تلعبين الألاعيب هل تعرفين، يا بلهاء أنّ طلبك الطلاق قد سحب من بين يديك رغيفَ الخبز نفسَه؟ كأنك رميتِ كل أملاكه: البنايتاين في لبنان، والشقتين في لندن، وكلَّ الثراء، في البالوعة. لكن اسمعيني جيداً . أنت الآن تملكين جواز سفر بريطانياً، هذا سيخوّلك إقامة دعوى عليه لدى المحاكم والمطالبة بنصف ثروته.. ونيل حضانة ابنك...».

ثم ولولتْ بأنّ ليس هي عزرائيل تخطف لها روحها، وتمرِّغ وجهها في التراب، بعد أن كانت محلِّقة تسمع صدى الوشوشات في النجف، في العراق كله، في لندن... بأن ليس تعيش كأميرة، تسكن بناية يسكنها اللورد الذي زارته الملكة مرة وصعدت المصعد نفسه وتناولت العشاء تحت صالة ليس.

كل هذه الذكريات جعلت ليس ترتعش كريشة، تعود إلى النافذة تفتحها وتصيح. لكن كل شيء ظلّ ساكناً هامداً. عادت إلى سريرها

خجلةً بما فعلته. وعندما مرّت الثواني ولم تسمع أيّ ضجيج عند باب الشقّة، ولا انترفون من البواب يسألها ماذا حدث، ولا بوليس ولا زمور سيارة إسعاف، أيقنتْ أنها تعاني الوحدة التي يتحدّثون عنها في الغرب وتتجسّد في أغنية البيتلز: «اليانور رغبي» ـ التي كانت تسمعها وهي في الرابعة عشرة في دمشق محطتِهم الأولى بعد أن غادروا العراق، تنبعث من نادي الضباط، وهي تسترق النظر إلى قاعة الحفلات، لترى الجنود الرجال يرقصون التانغو على أنغامها، وعندما كانوا يصلون إلى الكورس: «من أين يأتي هؤلاء الناس الوحيدون» كان رقصهم يتحوّل إلى رقصٍ عربيٍّ، فيهزّون صدروهم وأردافهم. لذلك كانت تظن أنها أغنية في غاية المرح إلى أن سمعتها من جديد في لندن.

يدقّ الآن رأسُ لميس، يرتعد جوفها: بمن أتصل، بمن أتصل؟ كل الذين أعرفهم أصدقاء زوجي السابق وأمه. معلمة ابني للغة العربية؟ أحفظ رقم هاتفها، لكنّ المعلمة لم تمنحني فرصة واحدة لأظَهر أني عكسُ ما كانت تتصوّرني: طفيليةً، كسولةً كالباقيات. فيفي، الموّظفة في سلفردجز، التي تأخذ الطلبات عبر الهاتف، والتي سألتْ لميس إذا كانت عربية من كثرة استهلاكها لزيت الزيتون؟

يَعْلق نظرُ لميس بمسمارٍكانت المغنيةُ قد دقّتْه ليحمل صورةً أو لوحةً أخذتْها معها. شبح المغنية كان الشخص الوحيد الذي فكرت فيه لميس.

كيف حدث أنها لا تعرف انكليزياً واحداً، تجلس لتحتسي الشاي أو كأس بيرة معه؟

ليبقَ هذا الانكليزي الوحيد المحظور عليها كما المدينة. الاماكن أشخاص، والاشخاص الذين لها علاقة مباشرة بهم هم المغنّية وبعض الأطبّاء والجنرال.

اعتادت أن ترى الجنرال مع ممرّضة حازمة تجبره على السير، تشدّه من يده كل يوم وكأنه كلب كبير، وهو يعاند ويتذمّر إلى درجة الصياح ولا تَسْمعه سوى الأشجار الباسقة حول الساحة والتي كانت مساكنها شبيهة بثكن الجيوش.

كان من الانكليز الذين خاضوا الحرب العالميّة وتنقّلوا بين صحراء ليبيا والعلمين، وحطّوا الرحال في مرافئ بيروت وبور سعيد وحيفا وقبرص قبل أن يعودوا إلى الرمال والمعارك الملتهبة.

كان يختلف عن سائقي التاكسيات في لندن الذين كانوا يتحدّثون عن مغامراتهم أثناء الحروب في عدن وقناة السويس.

ذات يوم سمع الجنرال ليس وهي تنادي ابنها بالعربية: «خالد، خالد، تعال حبيبي». كان منحنياً فوق مركب صغير يطفو في بركة الساحة مبدلاً وجهة سيره بواسطة المحرّك. تقترب الممرّضة من ليس. ألأنها رفعت صوتها محذّرةً ابنَها من رذاذ نافورة البركة الذي بلّل شعره وملابسه؟. هكذا هم الانكليز، يتحرّشون بك للانتقاد. بادرها أحدهم مرّةً: «أنظري، ممنوع الدراجات» وهو يشير إلى الإعلان في مدخل الساحة ثم ليتحرّش بامرأة تمشي مع كلب صغير. «اقرأي، ممنوع إفلاته من ربطته».

ـ معذرة. الجنرال يودّ أن يعرف هل أنت عربية ومن أيّ بلد؟

لكن الجنرال لم يدع الممرضة تنهي ابتسامتها. حاول أن يشرح للميس بفم مفلوج استجمع كلَّ عزمه لينطق أنه كان في فلسطين إبان الحرب العالمية الثانية، أجمل حقبة في حياته، وبأنه يعرف سيدة لبنانية اسمها نادية حدّاد كانت في فلسطين مع زوجها الذي يعمل في البنك. تراسلا سنين طويلة حتى عندما تركتْ هي فلسطين إلى لبنان، لتنقطع أخبارها عنه منذ أن ابتدأت الحرب اللبنانية. ثم يشير إلى الممرّضة. يريدها أن تعطي لميس بطاقته. «لكني لا أحملها جنرال، لا أحملها، على كل لا نفع للسيدة بها». والجنرال استجمع كل عزمه لينطق من جديد: «أرجوكِ، لربما وجدتِ لي السيدة نادية حداد». تحدثه الممرضة بمنطق وكأنها تحدّث شخصاً طبيعياً: «السيدة ليست لبنانية، قالت. إنها عاشت مدة في بيروت لا أكثر ولا أقل». تحاول الممرضة أن توصل كلماتها إلى الجنرال الذي يمسك بيد لميس وينحني يقبّلها، ويقول: «آفا غاردنر» «آفا غارندر»؟

وعادت لميس والتقت بهما لتسلمها الممرضة أربع رسائل موجّهة إلى نادية حدّاد.

ـ «أخيراً وجدناك. يئستُ من أنك ستأتين إلى الساحة كالعادة»! بادرتْها الممرّضةُ وهي تتنفّس الصعداء.

ـ كان ابني مريضاً.

ـ أوه، هل يشعر بتحسّن؟

ـ أجل، شكراً، لكني لا أعرف نادية حداد!

ـ لا بأس، المهم أنه يسلّي نفسه بشيء يحبه، وهو الآن مليء بالتفاؤل. لم يعد يعذبني كلما حان موعدُ خروجنا من الشقّة، بل إنه يسير وكله حماس لأن يراك. يبدو أنّ تذكُّرَه لناديا حداد نَفَعه كثيراً، أنا سعيدة من أجله.

ـ ماذا أفعل بالرسائل؟

ـ لا شيء . وعدتُه أن أُسلّمكِ إياها، لا بد أنه سعيد لأنّ الرسائل معك وأنت عربيّة.

يستوقفَ ليسَ إخلاصُ الممرّضة في تلبية رغبات مريضها، وتفكّر أنّ هذا الإخلاص هو لدى الانكليز خاصّة.

ما يزال رقم تلفون الجنرال في مفكرتها الصغيرة. الأسماء قليلة. قربها أرقام كانت تعرف مسبقاً وهي تدوّنها أنها لن تتصل بأصحابها، ومع ذلك كانت مخيّلتُها تخاف أن تضيع أولئك الأشخاص: الممثلةَ التي داس خالد ذيلَ كلبها، البائع في كنزنغتون ماركت الذي طلب منها أن تأتي له بأرز العنبر من العراق قبل حرب الخليج طبعاً؛ الاميركيةَ التي التقتْ بها في هارڤي نيكولس؛ وأمَّ طفلٍ كان في الحضانة مع ابنها.

ـ هل الجنرال موجود؟

ـ من المتكلم؟ (يقاطعها الصوت) الجنرال توفي منذ خمس سنوات. هل من خدمة؟

ـ لا، شكراً.

(يموت ويتركني). وبدلاً من أن تضحك لهذه الخاطرة إذ هي تصدّقها للحظة ثم تديّر من جديد رقمَ هاتف الجنرال.

ـ آلو. أنا التي اتصلتُ منذ ثوان وسألتُ عن الجنرال. لديّ رسائل منه إلى نادية حداد. لكنّ الحرب في لبنان...

ـ المعذرة لا أفهم، ما المطلوب مني؟

ـ إذا أردت هذه الرسائل.

ـ ماذا أريد من رسائل كَتَبَها معتوهٌ في آخر حياته المعتوهة؟

تتذكّر لميس الجنرال وهو يقول كلاماً تفسِّره الممرضة على أنه يريد تنبيه نادية حداد ألا تتصل بمنزله مباشرةً، بل من خلال الممرّضة. ثم ترى لميس الجنرالَ مرة أخرى حين تُطْلعها الممرضة على صورته: «هل ترين كم هو جذّاب؟ أوه لا بد أن هذه هي نادية حداد. معه حق. إنها تشبه آفا غاردنر. من هذا يا ترى؟ هل هذا زوجها؟».تقرأ لميس: فندق الملك داوود، فلسطينُ عام ١٩٤٦.

إنكليزيّ واحد، إذا ما فَتَحَ بابَه لها نفذتْ منه إلى الانكليز، إلى بيوتهم وحياتهم. هكذا: نملة واحدة تقود طابور النمل إلى حبّة السكّر. سمعتُ الكثير من القصص. عربياتٌ هِمْنَ برجالٍ إنكليز لمجرد أنهم كانوا إنكليزاً؛ الجزّار المفعم بالرجولةَ خاصةً حين يقص اللحم بتروٍ وفن؛ الدهّان الذي كان يقرأ في كتاب فلسفةٍ كلما حان موعدُ شربه للقهوة؛ المحاسب في مدرسة الأولاد؛ الممرّض في غرفة الطوارئ؛ مذيع الأخبار الذي يُطل كلَّ مساء إنما من خلف الشاشة. «من. من؟ هل معقول أننا لا نعرف إنكليزاً. غير الاطباء؟» قالت

لزوجـهـا وهمـا يـحـاولان تقـديم طلبـهـا للحـصـول على الجنسـيّـة الانكليزية، ثم لتوقّع الأوراق شقيقة معلمة ركوب الخيل الانكليزية وعراقي تجنّس بالجنسية الإنكليزية بعد هجرته إلى انكلترا إثر ثورة ١٩٥٨.

هل تتصل بمستر كولينز، الطبيبِ النسائيِّ الذي عرف أنها بقيتْ عذراء رغم محاولات زوجها الأولى، ثم عرف متى فُضّت بكارتُها، ومتى حَملتْ، وشَهِدَ انتفاخ بطنها شهراً بعد آخر؟ هو الذي عرف أرضها وأجدادها، وسَحَبَ منها عربياً آخر. يد إنكليزية تغوص في أحشائها. الوسيط بينها وبين نسلها، بينها وبين زوجها. هو في منتهى الرقة والحساسيّة: «إني أسخّن لك الآلة حتى تصبح دافئة ولطيفة». يعلمها نتيجَة الفحص بإرساله بطاقةً رسمية بيضاء ذات حروفٍ خطّها خطّاطٌ، وكأنها دعوة لحفلةٍ تقليديهِا وساماً: «يسرّنا أن نعلن لك الخبر بأن نتيجة فحصك الأخير...». الأطباء الانكليز هم وحدهم الذين تحتكُّ أجسامُنا بهم، وتكوّن علاقةً خاصّة بيننا وبينهم.

كانت ليس على معرفة بتلك المرأة العربيّة التي وجدتْ ملاذها بالذهاب إليه أسبوعاً إثر آخر، لتطلب منه حبّةً تأخذها من أجل أن تَرْغب في مضاجعة زوجها لها أو من أجل مجرّد تحمُّلِهِ.

ـ ليس هناك من حبّة تفعل هذا! ماذا عن كأس نبيذ؟

ـ لا لا. أعوذ بالله، لا أشرب.

ـ قولي لزوجك إنّكِ لا ترغبين فيه.

ـ لا، لا . أعوذ بالله، لا أقدر، حرام لا أريد أن أجرح مشاعره.

ـ ليس هناك من حبّة صدّقيني.

ـ وأنا لم يبق لديّ أية رغبة.. صدّقني.

ـ إذن، لمَ لا تطلبين الطلاق؟

ـ أحبّه. عشْرة عمر، ولكني لا أطيق النوم معه.

ـ لا أستطيع مساعدتك، آسف.

ـ ليس هناك من أحد يستطيع مساعدتي غيرك.

ـ أوكي، تعالي أفحصك.

ـ لا، شكراً. باي، دكتور، باي.

تتصل ميس بطبيبها النسائيّ، فتجيبها السكرتيرة: هل تريدين موعداً؟

ـ أجل، أجل.

ـ في الأسبوع الثالث من هذا الشهر. مستر كولينز مشغول جداً.

تفطن ميس إلى الرجل الذي تعـرّفتْ به في دار الأوبرا أثناء حضورها أوبرا كارمن، وعندما عرف أنها عربية سألها هل هي تحب «عايدة»؟ ومن سياق الحديث فهمتْ أن هناك أوبرا تدعى «عايدة». أوشكَ أن يدعوها إلى مشاهدتها معه. لكنّ بلقيس كانت إلى جانبها تحاول أن تأكل كل كلمة، مُظهرةً خيبَة أملها لسهولتها.

تستفهم ميس من الرجل الذي كان يجلس إلى جانبها ويتنهّد انسجاماً بين حين وآخر.

ـ لماذا، لماذا يحصل هذا؟ لا أفهم.. مع أنها تحبّه؟

ـ كان عليهم كتابةُ الترجمة على الشاشة. دعينا نَرَ ماذا تقصدين؟ أنتِ مخطئة. كارمن ما عادت تحب جوزيه!

ـ ماذا فعل بها حتى توقّفتْ عن حبّه؟

ـ لا شيء، إنها بوهيمية تحب تبديل العشّاق. (يهمس الرجل من جديد في أذن لميس التي أصبحت له، ويزيد):

ـ حذّرتهُ كارمن، منذ البداية، أن الحب لها كالعصفور يحطّ ويطير. تصرِّح كارمن بأنّ حبها بَهُتَ، تريد الحب العاصف رغم أنها عبثتْ بحياته وجعلته يفرّ من العدالة.

شعرتْ لميس فجأة كأنّ كارمن بنفسها تعيد إليها رأسها.

كانت تتخبّط كذنب سحلية قُطِعَ رأسُه، لمجرد أنها كانت تجلس في دار الأوبرا بكامل زينتها، بينما تَركتْ زوجَها وابنَها في البيت... وحماتَها، التي لا بد أنها تحوم حولهما لتبرهن أنها رهن إشارتهما دائماً. وإذا شعور بالارتخاء يسيطر عليها إلى درجةٍ أنها تمنّت ألا تعود إلى البيت ليتها لو أنها تعتمر طاقية الاختفاء وتنسلّ في سريرها وحيدة.

كان امتعاضها من حياتها يزداد كلما أخذتْ ذبذباتٌ من عوالم أخرى تختارها وتلازمها، وهي عائدة من حضور الأفلام والأوبرا والمسرح، لتستأنس وإنْ ببقية التذكرة المطمورة في جيب الجاكيت أو شنطة يدها. هذه النشاطات كانت تجعلها تتحمّل وجودَ حماتها وأصدقاءِ زوجها ورائحةَ السيكار ووقْعَ ورق اللعب على الطاولة وبقايا الطعام أينما كان.

تفتح حقيبة سفرها، تشمّ رائحَة دُبي، رائحَة مكيّف الهواء والغبار والتوابل ومكاتب الوزارات. ترتعب، وتعود فتقفلها، وتجلس فوق السرير. لن تؤجّل تنظيم حياتها الجديدة. التأجيل لصّ الزمان وسارق الوقت. تفكر في الاتصال بأميرة لكي تعتذر إليها عن عدم تلبية دعوتها إلى العشاء مع الإنكليزي وسمير، خاصةً أنها أكّدَتْ للإنكليزي ذلك عندما سألها في التاكسي. تأتي بكاسيت تضعها في الجهاز، وما إن تسمع أول نوطة لها حتى توقفه، وتأتي بقلم ومفكرة من حقيبة يدها، وتكتب:

هذا البلد سيصبح بلدي. لم أعد أعيش به حياة مؤقتة:

أولاً، أتيت إلى لندن لتوّي وأسكن في فندق.

ثانياً ، البحث عن شقة للإيجار.

(تشطب البحث عن شقة للإيجار وتكتب):

ثانياً، إتقان اللهجة الانكليزية.

ثالثاً، البحث عن عمل، أيّ عمل. عليّ أن أوفر المال. عليّ استعمال القطار أو الباص في تنقلاتي عوضاً عن التاكسي.

رابعاً، التعرّف إلى أصدقاء من الإنكليز.

خامساً، عليّ مغادرة هذه الشقّة ما إن تسمح لي الظروف.

سادساً، عليّ التوقُّف عن الطعام العربي، لا لأني أكل الثوم والكزبرة وخائفةٌ من رائحة أنفاسي، بل لأن الطعام العربيّ يمنحني الطمأنينة والأمان. يذكّرني بأيام الطفولة والبيت. (تميل لكي تَسْحب

الهاتف وتضعه على السرير، فتحين منها نظرةٌ إلى المرأة فتسرع وتزيد البند السابع).

سابعاً، إزالة الكحل الأسود عن العين.

تنهض. تَمْسح الكحلَ عن عينيها مستعملةً القطنَ والكريم وكأنها أفعى قَشَرَتْ جلدَها وتركتْه يطقطق بين أجباب الشوك، كما رأته في صحراء النجف الصغيرة، رأت ما يشبه كيس النايلون ولكنّ برسوم وأشكال بنيّة غامقة وفاتحة ولم تستطع يدها لمسه.

والدها يقول لها إنّ هذا فستان خلعته الأفعى لترتدي واحداً أكثر جمالاً وأناقة لأنها مدعوّة إلى عرس.

لميس سألت والدها بكل اندهاش:

ـ «الأفعى خلعتْ فستانها في الخارج؟ ألم تخف من الدخول إلى النار»؟

فالعين باب النفس.

عينُ أمـــهـــا هي التي قـــرّرتْ أنّ على لميس الزواج من الرجل العراقي، مالكِ البنايةِ العصرية التي احتموا في ملجإها. فهي أُعجبتْ بالحمّام الجميل ورخامه عندما استعملتْه مرةً هي ولميس أثناء هدنة بسيطة. لاحظتْ أُمها الرجلَ العراقيَّ وهو يهيم إعجاباً بابنتها في الملجإ، بينما هام الجميعُ بالطعام الذي كانت تتنافس على تحضيره نساءُ البناية والبنايات الأخرى المجاورة. وعندما تقدم طالباً يدها من أمها ووالدها رفضتْ لميس الزواج به. توسّلتْ إليها أمها كي ترضى بهذا العريس الذي أنزله الله عليهم من السموات حتى

ينتشلهم من البئر ويعيد إليهم كرامتهم. قلبت أمها حدقها إلى جهة بعيدة وكأنها تقول لزوجها «أترك الأمر لي»، رغم أنّ الوالد أشار إشارة خفية بمؤخرة عينه وكأنه يسألها أن ترأف بالبنت، والأم أطبقتْ عينيها كمن تهدده. وعندما وافقتْ لميس على الزواج بالعراقي بعد أيام كسرت الأم نظرها لتعبِّر عن فرحتها.

هل تلوم عينيها، والعينُ ـ كما قيل ـ أرفعُ الجواهر وأغلاها، أم تلوم المرآة التي اختطفتها إليها؟

كانت المرآة هي التي تؤكد لها وجودها حين كانت طفلة... بينما كُلُّ مَنْ في البيت منصرفٌ إلى شؤونه؛ حتى العصافير في أقفاصها. وكانت تتأمل وجهها في صفحة الماء، في المقص، في غطاء قلم الحبر، في صحن الشورباء، في قاع الفنجان الفارغ، في...

أخذتها المرآة إلى عالم آخر، عالم الألوان والتخيل، تشجيع أمها ومباركتها، إذ كانت صفات الجمال ومرادفاته وكل ما يتعلق به على شفاه أمها. كانت لميس تتساءل: «ترى هل كانت ستهتم بي لو لم أكن باعتقادها جميله».

كانت جدتها لأمها تصيح بها أن تتوقّف عن التحديق في المرآة، خاصة في الليل، وإلا اختطفتْها المرآةُ إلى داخلها. وعندما طلب منها والدها أن تكف عن هذه الخزعبلات قصّت جدتُها عليه قصّةَ الرجل الذي شك في وفاء زوجته، واستشار أحدَ المنجِّمين الذي أعطاه مرآة صغيرة تكشف الزوجة الخائنة، إذ تختطفها المرآةُ وتُدْخلها في زجاجها.

كانت لميس تسترجع هذه القصة وتطلب من زوجها أن يقدّم إليها المرايا كلما فكّر في إهدائها شيئاً. ومع ذلك لم تختطفْها المرآةُ منه.

في النجف كانت أمها تَعْقد الصداقات مع زوجات التلاميذ الوافدين من مصر ولبنان ودمشق والمغرب، ليأتين لها بالمجلات النسائية كلما جئن لزيارة أزواجهنّ، وليشترين لها العقود المزخرفة وأحمَر الشفاه مقابل المال الذي كانت دائماً تحاول أن تَجْمعه أو أن تجده. فتصطحب لميس إلى الخيّاطة، التي تسارع وتطلب من أمها أن تُعدّ وجبة العشاء، أو وجبة الظهر. فتتعجب الأم لهذا التبكير في المطبخ. وما إن تختفي الأم حتى تدفش الخيّاطةُ الطاولَة تسدّ بها الباب، كي لا ترى أمها «الموَض» التي تختارها أم لميس والتي تكشف عن الزندين وعن الكاحلين والألوان الفاقعة التي لم تكن تراها المدينةُ في لون الورد نفسه.

كانت لميس تتمعّن في وجهها حتى في أيام الخطر، من أجل أن يُمِدّها بالطمأنينة، في معدن ركز مع الخرز الأزرق وأحاط رقبة البغل الذي هام بهم بين الجبال والأودية في كردستان عندما هربوا من العراق وقد حَمَلوا معهم حقيبتين. وحمل والدُها عودَه أيضاً، بينما أمسكتْ أمُها بكيس نايلون يحوي تنورة «بليسه» ذاتَ كسراتٍ رفيعة كانت اشترتها لها إحدى القادمات من لبنان، رغم أنّ زوجها وَعَدها بان يشتري لها واحدةً أخرى كي يثنيها عن حملها ولكنها لم تقتنع: «حرير أصلي، سأرتديها حالما أصل إلى دمشق». امسكتْ بالكيس وضمّته إلى صدرها وهي فوق البغل. الكل خائف من الضباع، والأم خائفة من الضباع والأمطار والرياح من أن تطيح بتنورتها،

ووالدها خائف على عوده... حتى أيقن أفرادُ القافلة أنّ المال تكدّس في العود، وفي الكيس المضموم إلى صدر المرأة.

قالت لها أمها وهي تثنيها عن الطلاق: «هذا قدك. لو أنّ الله لا يريدك أن تتزوجي لكان أطعمك للضبع! علينا أن نشكر الله كل لحظة، لأنّ الضباع لم تأكلنا». تفتح ليس النافذة وتنادي: «أشكر الله لأن الضبع لم يأكلني». تطير حمامة.

لو كانت ما تزال متزوجة لما كان بوسعها الصياحُ من النافذة. عند هذه الخاطرة ترتاح ليس وتجد أنها تبتسم. ثم تنهض كالعاصفة تريد أن تشتري الفاصولياء أو العدس؛ هكذا كانت النساء يرددن للمريض وللحزين والعاشق والأرمل والمطلق: «قم بتناول الحبوب لتسند معدتك بها، فيُسند اللهُ قلبَك». وهي تريد أن تُسْند معدتها قبل أن تتصل بابنها.

لم تجرؤ على الخروج من الشقّة. فحماتُها وزوجها السابق أغلقا باب لندن في وجهها.

- ٢ -

على الرغم من أنّ سمير لم يَرْفع عينيه عن نيقولاس طوال رحلته من المطار إلى لندن، فإنه لاحظ اختفاء الحدائق والمساحات الخضراء والأبنية الفخمة. وأصبح في بيروت، في شارع المزرعة بالذات. مطعم، صيدلية، طبيب أسنان، مركز لغسل الكلى، إيجار واستئجار، يافطات باللغة العربية، «ادخلوا تجدوا ما يسرّكم. نتكلم العربية»، إزالة الشعر بأحدث الطرق، مقهى «مون لايت»، ضوء القمر، مَرّوش، عصير رنوش، بيروت اكسبريس، مخزن الأنيقة، عرب بدشاديشهم البيضاء والعباءات السوداء أو بالملابس العصرية. «يا لطيف تتلطّف، ناقلين شارع المزرعة، الله يرحمك يا والدي لمّا كنت تأخذنا على سينما سلوى، وتشتري لنا كعكة بالزعتر، وأنا بدي أقعد بأول صف حتى أمسك بالممثلين».

لكن أين پيكادللي وأوكسفورد ستريت وبيغ بن؟ أين الضباب والثلج والبرد؟

توقّف سائق الميني باص عند مقهى ومطعم «تبولة». ودّع سمير أميرة ونيقولاس، والتفت حوله يعاين الشارع. فحُتْ في وجهه رائحة

الشاورما والشيش طاووق. أحدث دخوله غمزاً ولمزاً بين الشباب خلف الكونتوار: مِنْ قالي الفلافل، إلى المحاسب، وعصّار الفاكهة، والمدندنِ بالأغنية الصادحة: «قلت حبيتك، ما تحبينيش».

ينظر سمير إلى المرآة التي امتدّت على عرض الجدار، «اي اي يا ماما يي معكم حق تضحكوا عليٌّ. (يمسّد شعره) هلق جايه من الطيارة، الله وكيلكم». يضجُّ الشباب بالضحك لأنه كان يتحدث وكأنه امرأة وبصيغة الأنثى. ولدهشتهم يأخذ سمير بالضحك معهم. يقف أحد الجالسين من خلف طاولته، وفي صحبته امرأة أجنبية شقراء، ويقترب من سمير، الذي كان يسأل الشبابَ خلف الكونتوار:

ـ دخلكم، حدا بيعرف شاب اسمه فاروق؟

أشار الرجل الذي ما زال واقفاً إلى صدره.

يقترب منه سمير. يضع شنطته الصغيرة على الأرض، ويسلّم السلة إلى الرجل، وهو لا يصدّق أن هذا الرجل الثخين المعدومَ الجاذبية هو أخو مَنْ أرسله.

ـ شو أخرس، ليش ما بتحكي؟

هزّ الرجل رأسه أنْ نعم، إنني أخرس.

ـ ياه عليّ شو حمار. لا تواخذني، لا تواخذني، ما خبّرني أنك أخرس. مثل ما بتعرف، هو واصل بكرة.

يربت الرجل يدَه على كتف سمير، وبخفةٍ يَرْفع الجريدةَ وعلبةَ بسكويت فارغة وكنزةً ليرى القرد نائماً. يومئ إلى سمير، ويداه إلى أذنه ورأسه ويغطي عينه كمن يسأله: هل القرد نائم؟

ـ العكروت صار مدمناً على الحبوب.

يُسِرُّ سمير إلى شباب الكونتوار الذين كانوا مثله من اللبنانيين، بعدما تلكأ في الخروج خلف الرجل والمرأة:

ـ أخت ها الأخرس بالمستشفى عم بتموت، وأنا هرَّبت لها القرد من دبُي. حرام، ربّته كأنه ابنها. رضّعته من بزّ، وابنَها من بزّ. عطيني شي ساندويش فلافل من شان ها القرد، خْطَيِّة.

جملته هذه دوَّت وكأنها لعبة نارية (مفرقعة) بين شباب الكونتوار. وإذا أحدهم يمازحه: «اسأل القرد، هل يحبها مع طرطور؟»

يوقف الرجل الأخرس سيارته في شارع ضيّق حيث تصطف من على جانبيه أبنيةٌ بيضاء، كأنها مستشفيات، وتكاد تكون مهترئة. دخل الثلاثة إلى بناء. لاحظ سمير الأوساخ والغبار التي تراكمتْ على نوافذ الطابق الأرضي، والدهانَ الذي تقشّر. هل معقول أنّ في لندن أبنيةً كهذه، من غير مصاعد؟ صعد فاروق والمرأة التي ما إنْ عرفتْ أنّ الشقّة في الطابق الأعلى حتى نفختْ بكل ضيق، وهم يصعدون السلالم. «حتى الإنكليز يستنجدون! تعجب سمير لأن المرأة الجميلة والقبيحة في آن لم تضحك له مرةً واحدة. وهذا يحدث نادراً، لأن النساء مرحات معه حتى وإنْ لم يفتح فمه. لا بد أنها في العادة الشهرية، أو أنها حزينة لأنّ صديقها أخرس سمين وشعيرات سوداء تقف عند مدخل أذنيه. فجأة خاف من أن يغلقا الباب في وجهه. أخطأ في تسليم القرد إليهما بهذه الطريقة. يُسْرع وهو يحشر نفسه بهما، يجب أن يتم التبادل: القرد مقابل ألف دولار.

كانت الشقة قذرة، مهملة إلى حدّ لا يصدق، كل ما بها مبعثر، والسجادة الزرقاء مرقطة بالبقع البنّية. وحدها الثريا التي تدلّتْ في وسط الغرفة ذات السقف المرتفع برهنتْ أنه كان لهذه الشقة ماض عريق. يمد الرجل السلة من جديد إلى سمير، وإذا بسمير يسمع صوتاً.

ـ خليه يقوم لنشوف.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم. يا عالَم، يا هو، والله نطق! معجزة! عامل حالك أخرس؟ ولوْ هيك ما بتسأل كيف كانت الرحلة؟ طلعتْ روحي بالمقلوب، قلبي بعده عم يرطّ من ٢٤ ساعة وما صرت بني آدم إلا بالتاكسي. ولوْ! ما في شكر على واجب؟ أخوك ركع وباس إجري حتى رضيت. خاطرت بحياتي بمستقبلي، وبخمسة أولاد شفقة على أختكم. وأنت بتأمرني مثل اللي اللّه عاطيهم؟!

تتدخّل المرأة: «ما به؟ ما به؟».

ـ يريدني أن أركع على قدمي وأشكره.. هذا ما يريده.

ـ هو محقّ، عليك أن تشكره. (تلتفت إلى سمير): شكراً.

ـ طيب مشكور يا خيّ، بس خلّيه يفيق.

ينحني سمير إلى السلة. ينتشل القرد الذي فتح عينيه للحظة ثم عاد فأغلقهما. تقترب المرأة منه وتقول:

ـ يا إلهي. إنه بحجم الدجاجة.

ـ نعسان بعد ما راح تأثير الحبة المنومة عنه. يلّلا، وين المصاري؟

ـ قالوا لي حتى أعطيك ٨٠٠ دولار.

ـ لا، أنت الصادق، ألف دولار عداً ونقداً.

ـ الـ ٢٠٠ الباقية لنومك وأكلك، عبّال ما تسافر.

ـ ألف دولار. وأنا مستعد أن أوقف «سنكة طَقْ» لا أكل ولا نوم.

ـ هوْن، أيّ أوتيل فوق المئة دولار.

ـ لا يهمك. أنت اعطني ألف دولار واترك المسألة عليّ.

ـ لما يفيق السعدان بعطيك الألف. شو عرّفني، يمكن ميت!

يسرع سمير إلى القرد، يمدّده على قطعة أثاث كانت كنبةً يوماً ما، واضعاً أذنه فوق بطنه: «شوف شوف راسي كيف عم يطلع وينزل، معناه أنه عم يتنفس». (ثم وضع كفه عند فم القرد). «شوف نَفَسه، سخْن مثل النار».

ـ نسيت اسألك، راح عالحمام؟

ـ أي والله، استأذن مني بالطيارة شي ٣ مرات، وبعدين غسل يديه. هو مهذب كتير!

يصيح الرجل:

ـ شو ما قالولك؟..

(ثم يوقف نفسه ويبتسم).

ـ قالوا لي إنه ما لازم يترك السلة حتى إذا خَرَجْ. خلّي الخروج في السلة، وإلا تجازينا. انكلترا بتخاف من الأمراض، لا تسمح بدخول أيّ حيوان، أيّ خروج، أيّ طعام.

في الأثناء كانت المرأة الإنكليزية قد تناولت كتاباً وتمدّدتْ على الكنبة الأخرى. يَحْشر سمير نفسه وينام إلى جانب القرد.

تململ القرد قبل سمير. قفز بلمحة بصر، وقف يبول على يده أمام المرأة الإنكليزية المصعوقة، ثم راح يفرك يده في فروته. صاحت، لكن بعد فوات الأوان، إذ قفز واعتلى الجنزير التي تدلت منه الثريا.

ـ بدك يفيق من النوم؟ فاق!

يحاول سمير والرجل استمالة القرد لكي يترك الثريا، التي كلما مالت به فَرِحَ وأرادها أن تميل أكثر. شعر بخوف المرأة، فأخذ يميل عليها ويحاول إخافتَها بملامح وجهه وبتكشيرة أسنانه وبصيحة عالية. يضحك سمير . كلما حاولت المرأة أن تفر هاربة إلى المطبخ، مدّ القردُ نفسَه ساداً طريقها.

ـ خليه يوقِّف.. سينزل السقف علينا.

ـ إجمدْ. عم تسمعني؟ إجمدْ بأرضك، (ثم للرجل): أنت شاهد لا يسمع. يمكن يضل هيك كل النهار وكل الليل حتى ينزل هو والثريا.

ـ هيك بدو يضل؟ مش معقول!

ـ إلاَّ إذا أعطيته حبة منوّمة! يلّلا ادفعلنا الألف دولار، وخلّينا نقول بعضنا لبعض: مع السلامة.

ـ أوكي. على شرط: ما بتتركني معه.

ـ أوكي، ما تخاف، بوصلّك إياه لعند المريضة.

ـ المريضة؟

ـ اخـتك. نسـيت؟ هرّبتـو من دبي للندن كـرمـالـهـا. آلو. آلو. سامعني أو الخط مكسور؟!

يصيح القرد صيحة قصيرة، ولكنها حادّة. ينظر إلى المرأة التي ما إن أخذت تصيح هي الأخرى حتى استكان القرد وأخذ ينظر إليها.

ـ يللا نأخذه للمريضة، وكل واحد يشوف طريقه.

ـ بكره. هلق خلليه يرتاح، وأنت ترتاح.

ـ أنا بدي شوف طريقي، بدي اتمشّى. عندي أصحاب منتظرين مني تلفون.

ـ إذا طلعت من هالباب راحت عليك المصاري.

ـ كيف بضمن أنك بدك تعطيني الألف دولار؟

يمد الرجل يده إلى جيبه ويسلمه رزمة دولارات. يأخذها سمير ويَعدّها. يقفز القرد عليه ويتعلق بأطرافه الأربعة. يبعد سمير الدولارات عنه ويضعها في جيبه. يحضن القرد الذي وضع إصبعه في فمه قبل أن يتكئ على صدره، ثم لا يعرف سمير كيف نشل القرد منه رزمة الدولارات. ولم يستطع جمعها إلاّ بعدما تفشّى به الإرهاق. الرجل لم يدعه يغادر الشقّة، بل لم يتوقف عن حثه على أن يفعل شيئاً حتى يتريّض القرد، رغم أنه بال أكثر من مرة.

نوافذ البناية قبالته والشجر في الخارج أوحت إليه أنه في لندن، لا هذه الشقّةُ التي تكاد أن تكون مهجورة. يدور سمير في الشقّة كالقرد،

لا يسأل عن الأخ الوسيم ولا عن مجيئه. لم يعد يهمه أمر، منذ أن صارت الحقيقة لا تُطابق تخيلاته. فهو تصوّر أنه سيلتقي به في شقّة ذات مدفأة تشتعل بالحطب وتصوّر أنّ الرجل يرتدي روباً من الحرير، وحول رقبته فولار من حرير، وفي رجليه مشّاية من جلد حقيقي، وأنه سيقوده إلى غرفة نومه، وهي عبارة عن لوحات مثيرة وأفلام خلاعية تدور على شاشة كبيرة فتحفزهما ليحلقا أبعد مما كانا يريان. ولكنْ بدلاً من هذا كله وجد نفسه يجلس مع الرجل والمرأة في هذه الشقة القبيحة، وأنظارُهم وقلوبُهم معلّقةٌ بمؤخرة القرد.

ـ يمكن.. يمكن بده يشخّ. شوف شوف، فَرْشَخْ إجريه.

وعندما عاد القرد يعتلي حافة الباب المفتوحة، صاح به الرجل: «ولك شخّ وخلّصنا».

ـ ربما إذا شخيت أمامه قلّدك وشَخّ.

ـ صحيح؟ أو عم تسحب فيلم عليّ؟

ـ جرِّبْ. شو راح تخسر غير...

ـ بسْ كيف بدي جرِّب قدامك؟

ـ ليش قدامي؟ قدامه!

ـ ما بدي فوت عالحمام معه، لحالنا. هو مجنون.

يقفز القرد على خشب الستارة، يتمسّك بيديه، ثم ينقلب ويتدلّى من ذنبه المعقوف المستدير كالخاتم، مُفْلتاً أطرافه الأربعة لثوان، ليعود إلى التمسك بالستارة، ثم يفارقها فتهبط وحيدة مع خشبها.

عندها يصيح صيحةً ثاقبة ويصفق يديه، ثم يقفز إلى كتف سمير ويتعلق بأطرافه الأربعة. يهمس سمير بأذن القرد، وإذا بالقرد يقلده وينكبّ على أذنه.

- ماذا؟ ماذا قال لك؟

- يريد أن يأكل. كلما أكل وامتلأ بطنه كبستْ أمعاؤه وراح إلى الحمام. اتركني أنزل وأشتري له أكل. حرام جوعان.

- أنا انزل. قل لي شو بدو يأكل؟

- فستق حلبي لب سوداني بس بقشره، بيض، موز، وخبز وبسكوت، ورد، قريدس صغير، وإذا لقيت دزينة ذباب. ما عم كَذِّبْ، هو يموت بالذباب والبراغيث.

- دقيقة، عينك عليه.

يصفق الرجل الباب خلفه. يسير سمير على رأس حذائه خطوات واسعة. يتوقف عند الباب، ثم يتذكر شنطته فيعود آتياً بها. وإذا بالباب يُفتح ويدخل الرجل.

- بما أني مسؤول عن القرد لازم اتركه في الحمّام وأقفل عليه حتى ارجع. لربما هرب منك؟

- ما تخاف لن يهرب.

- هو مش راح يهرب. غيره يمكن. خلّلي ضميري يرتاح.

يُدخِل سمير القرد الحمّام يسحب له ورق التواليت ليلهو به. ما إن يخرج حتى يقفل الرجل الحمّام. بالمفتاح ويضعه في جيبه ثم يهرع راكضاً.

ـ دقيقة. مثل الطيارة.

يوصد الرجل الباب بالمفتاح مرتين. يركض سمير إلى الهاتف وهو يتمتم: «روحة بلا رجعة». يُخرج بطاقة أميرة من جيبه ويدير رقمها.

ـ الست أميرة، سمير، سمير صاحب القرد. الست أميرة، ما فيني، أنا مخطوف. الرجل قفل على القرد وعليّ. نعم، ناطر القرد ليفوت عالحمّام، أجَلّك، وهو قال لما بفوت القرد عالحمّام أنا حر طليق، يعني كل شي موقّف على (أجلّك) خرا القرد... صادق مدام أميرة. نعم، نعم. أي عطاني الألف دولار بعد ما عصرني مثل ليمون الحامض. سامعة؟. هيدا القرد عم يصرخ.

خبطات على الباب، باليد، وبالاشياء. صياح، صراخ حادّ وعال، ثم صَمْتٌ، قبل أن يندفع الماء من تحت باب الحمام إلى الممرّ. يصيح القرد. يخاف سمير أن يطوف البيت بالماء فيصيح بالمرأة:

ـ قومي، أنت تقرأين والطوفان قايم وقاعد؟

يسرع إلى شنطته، يضعها على الطاولة، ثم يطمئن إلى أنّ جواز سفره في جيبه وكذلك الألف دولار. يأتي بمعطفه ويضعه فوق الشنطة. لربما ما يفعله القرد هو أفضل طريقة لهربه، لربما أتى الجيران، أو أتى رجال الأطفاء كما في الأفلام الأجنبية. لكن الرجل هو الذي أتى يشتم ويشتم، ويعطي مفتاح الحمّام لسمير خائفاً من أن ينتقم منه القرد.

تطوف الأرض بالماء. تسبح فيها الصابونة والشامبو وفرشاة التواليت. وكيف لصقت ورق التواليت على الجدران لا يدري. علك ستارة الحمّام وقطعها كأنها دخلتْ في فمه وخرجتْ. حلقات بلاستيك الستارة على الأرض وفي التواليت. والرغوة أخفت المرآة. أما المنشفة الوسخة فاستوت على كتفي القرد. أخذ الرجل يبحث في الماء وكأنه أضاع شيئاً ثميناً. عند جوانب سجادة الحمّام التي أصبحتْ كأنها مَرْكب، انحنى الرجل يدبّ على قدميه، ولم يقف إلاّ عندما أخذ القرد يكشّر عن أسنانه ويضحك وهو يدلّ عليه.

ـ «أعطني حريتي أطلق يدي إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّا».

يغني سمير، وإذا بالرجل يضحك، وسمير يقف كأم كلثوم، يعصر ويشد بيديه من شدة التأثر.

ـ حدا قلك لازم تمثّل؟

ـ كل السعادين قالت لي! شوبدك فيّ يا رجّال، خلليني روح!

ـ وتترك هالقرد عليّ؟

ـ أنا فاعل خير. راح نظّف الحمام وروح!

يشرع سمير في تنظيف الحمام بعد أن يرفع بنطلونه ويشمّر عن ساعديه.

ـ راح أعطيك ٥٠ باونداً زيادة، فكّرْ معي كيف لازم يشخّ، وألله معك.

ـ جنينة الحيوانات. اطلبْ لي جنينة الحيوانات.

يدير الرجل قرص الهاتف ويسأل عن رقم هاتف جنينة الحيوانات. يديره، ويمدّ بالسماعة إلى سمير الذي انتحل لهجة رجال الكاوبوي الأميركيين.

ـ عندي قرد لم يدخل الحمّام، قصدي التواليت، لا أقصد الاستحمام ، بل التواليت. ماذا أفعل له حتى يفعل؟

يقفل الرجل السماعة.

ـ والله.. انكليزي عم تحكي مثل البلبل.

ـ ليش ما بتحكي أنت، أو الست شو عم تعمل، صارت قارئة حَضْرتها ٣ كتب!

ـ منخاف يجو ويأخدوا السعدان.

ـ طيب، شو رأيك؟ عندي صديق انكليزي.

ـ مجنون انكليزي؟ حدا بيبحش قبره بيده!

ـ هيدا انكليزي غير شكل، إجا معنا بالتاكسي. هو يحب العرب كثيراً. عرف نوع القرد وقال عن اسمه مثل قهوة الكابوشينو. تصوُّر عرفه من لحيته البيضاء وذيله. شو رأيك؟ بحكي معه سؤال وجواب.

ـ كنت حاسب هالحساب. أوعى يكون عرف وين نزلت.

ـ ليش بالأول بعرف وين أنا؟

ـ طيب.

يقفز سمير إلى التلفون يتصل بأميرة.

ـ الست أميرة، أنا بعرضك، عندك نمرة تلفون نيقولاس؟

ـ اسمعْ لا تضيّع وقتك، هو يحب البنات!

ـ عارف عارف. ست أميرة، لكن القرد حاشاك...

يدير رقم نيقولاس. ما إن يسمع صوته حتى يهتف: «آه مستر نيقولاس، كم يحبّني الله لأني وجدتك. أنا سمير، صاحب القرد. تذكرتني؟ القرد ما عم يفوت عالحمّام، قصدي ما عم يقدر يشخ. فيك تساعدني حتى خلّيه يشخْ؟»

لم يعدْ سمير عتبة الباب إلاّ في اليوم التالي، حين تريّض القرد من حباتٍ الماسية كان قد أكلها في دُبي محشوةً داخل حبات عنب كبيرة ورغم أن سمير فكر، حين كان الرجل ينحني على الأرض وبيده ملعقة وكيس، أن يسرق واحدة، فإن غضبه أنساه ما نوى. أخذ يصرخ بالرجل، حتى إنه ركله بقدمه: «لصوص! مجرمون!. سأجعل البوليس يقبض عليكم. لو ما عين الله عليّ كنت الآن في السجن». ولكنْ كان القرد أسرع من الرجل في التقاط بعض الحبوب، لكنه رماها حين أعطاه الرجل كيساً من الفستق.

يعد الرجل الحبيبات، ويقوم بتفتيش سمير والمرأة أكثر من عشر مرات. ثم يعطي سمير ٢٠٠ جنيه زيادة. يشكره سمير. وينزل الثلاثة معاً السلالم الكثيرة. يرمي للرجل القرد حتى يحمله بسخرية، قائلاً: «يلّلا يلّلا عجّل، المريضة ناطرته».

يستنشق سمير هواء لندن لأول مرة وينادي وهو ينظر إلى السماء: «آه ما أحلى عيشة الحرية». ومن غير أن يدري وجد أنه فجأة محاط بأطراف القرد الأربعة. يلتفت حوله بكل ذعر وإذا بالرجل

والمرأة اختفيا. صاح: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم رآهما في تاكسي أسود، والرجل يمد رأسه من نافذة التاكسي قائلاً:

ـ معك حق. الحرية ما في أحلى منها.

- ٣ -

تدخل أميرة بناية «أعشاش العصافير» في أدجور رود وخلفها سائق التاكسي يحمل حقيبتها. أعطته عشرة جنيهات بقشيشاً وصافحت نيقولاس مودعة: «مع السلامة، لا تنس الساعة التاسعة». بواب العمارة أصيب بالجمود: عشرة جنيهات؟ شاب انكليزي أشقر الشعر، مرتب الهندام؟ راعها ما رأت في مرآة المصعد: الكلف الاسود انتشر فوق جبهتها وعند وجنتيها؛ هل كان في هذا السوء في دُبي، أم أن كل ما هو غير أبيض وناصع تفضحه لندن؟ على كل حال، اللون البرونزي هو ما يطمح إليه كل انكليزي. هذا اللون معناه أن الشخص دفع تكاليف تذكرة السفر والفندق وتكاليف رياضة تمدّده على شاطئ البحر أو لعبه للتنس أو تزلّجه فوق الجبال.

البياض يرمز في هذه البلاد إلى الجليد والثلج، لا كما في بلدتها إلى العفة والجمال.

تُسرع وتُفرغ محتويات شنطة سفرها، من بينها وسائد كانت سرَقَتْها من غرف نوم اليخت انتقاماً. كذلك سرقت المغلف البرتقالي

الذي كـان يلازم يد الزبون، وراحت تمزّق أوراقـه. لا بد أنهـا أوراق مـهـمـة. تفـرح لمنظر علب العطور والكريمات التي اشـتـرت بعـضـهـا وسرقت أكثرهـا من الانكليـزيات كلمـا تركنهـا علـى اليخت، ومـا لـم تسرقه منهن رمته في البحر.

تنظر في سـاعـتـهـا. لا تعـتـقـد أنّ الرجل الخليجي على اسـتـعـداد لتلقّي مكالمتها الآن.

تدير رقم صديقتها ناهد، وحين تسمع الخط مشغولاً دائماً تفطن إلى أنه مـا زال مقطوعـاً. يبدو أن ناهد لـم تدفع الفاتورة حـتـى الآن والتي تعدت الألف جنيه.

تدخل المطبخ ولا ترى أثراً لزجاجـة البيرة التي كـانت تركتـهـا على طاولة المطبخ قبل سفرها كي تتأكد من أنّ البواب لا يدخل شـقـتهـا أثناء غـيـابـهـا. والـبـواب سـوف يـصـبـح خـادمـاً لـهـا، شـاء أم أبى. لـم ترقّـه كالسـابقين الذين كانوا يقومون بخدمتها لقاء خدماتها الجنسية المجانية، بل ذهب أبعد من هذا. شكاها إلى البوليس زاعماً أنه يخاف على عائلته ولا سيّما أن ابنته ستتم العاشرة قريباً. لكنّ الشرطي الذي أطلق على هذه البناية اسم «أعشاش العصافير»، وأصبح فيما بعد صديقاً لـهـا، نصح البواب بالانتقال والعمل في بناية أخرى. «لا أحد يستطيع الجزم أن هذه المرأة تخالف القانون وترتكب الدعارة، ما دامت في شـقـتـهـا لا في الشارع. وعلى كل حال، هم عرب بعرب، فلماذا نتدخل بينهم؟».

تمسـح وجـهـهـا بماء الورد، ثم تغـمـس قطنة في زيت الزيتـون وتمررها على البقع البنية. تتجه إلى فراشهـا. ترفع سمـاعة التلفون وتدير رقم الرجل الخليجي.

ـ هل اعطيتني السيد...

يجيبها ابن شقيقه:

ـ عمي في الفندق.

ـ لكن أليس هذا بيته؟

ـ نعم، نعم، في البيت طوابق كثيرة وعمي يخاف التعثر، عيناه تعبتان. بعد غدٍ سيجري لهما العملية...

ـ أوه، فهمت. هلاّ أعطيتني اسم الفندق ورقم الغرفة؟ (تدونهما على يدها عندما لا تجد ورقة).

كأنّ الرجل ينتظرها حتى تصطاده، وهيأ لها المال. عند هذه الخاطرة، سرى في أعضائها نشاط لم تعهده من زمن طويل. هرعْت تزيل كل شيء عن وجهها وتدهنه بكريم زهري ثم أبيض. أحاطت معصمها بالأساور الذهبية التي اشترتها. تأخذ هدية كانت حملتها لناهد، وضعتها في كيس، ثم أسرعت الخطى إلى بيت صديقتها. عندما لم تجدها، أخذتْ تبحث في شنطة يدها فلم تجد سوى علبة لبان أفرغتْها في فمها ودسّت العلبة في شق الباب برهاناً على زيارتها. ثم قصدت شقة بهية التي تطل على هايدبارك، تبحث عن ناهد. لم تستطع إلا أن تقف وتتأمل الزهور الجميلة، ونافورةَ الماء، وقوسَ ماربل آرش. اتجهتْ إلى طريق «البيز ووتر». «عليَّ أن أعيش هنا»، همستْ لنفسها، «هذه هي لندن الحقيقية».

ما إن دخلتْ حتى ضجّت ناهد فرحاً بها، بينما رحّبت بها بهية ببرود، رغم أنه بدا للجميع حاراً.

بادرتْها ناهد: «لندن من غيرك ماتسواش قشرة بصلة».

ـ وحشتوني موت. كانت سفرة مهببة. (تُبدّل أميرة لهجتها المغربية إلى لهجة مصرية تستأنس بها، وتجعلها تشعر أن الحياة كلها لعب ومزاح).

ـ الله. إيه اللّي جرى؟ تسألها ناهد.

ـ ما جراش. (تنظر إلى الوجه المحجّب) وجهك مش غريب عليّ.

ـ الله.. ما تعرفيش كتكوته؟ (تستغرب بهية بشماتة فخورة أن النجمة الراقصة خصتها بزيارة).

ـ أنا قلت وجه القمر ده فين طل عليّ من قبل.

ـ متشكّرة جداً.

ـ طيب إيه اللي جرى، دي دُبي يقولو عنهاجنة عدن لازم ما استحملتيش الحر والهباب. صرنا إنكليز ولّلا إيه؟

تتجاهل أميرة سؤال ناهد وتخاطب الراقصة المحجبة:

ـ إزيّك يا مدام كتكوته. نوّرتِ لندن. كنت أحب رقصك قوي خاصة في الأفلام.. مع رشدي أباظة.

ـ متشكرة يا افندم، متشكرة خالص.. بس يعني عايزه تقولي أنه دُبي من برّه هالله هالله ومن جوّه يعلم اللّه؟

ـ يا ستّي الناتاشات اينما كان.. عدد حبات الرمل.. كالجراد، جيش مستنفر، نمل أشقر تجمّع على الطعام، يرسله الشيوعيون حتى يسحبوا أموال العرب ويضعوا الأمراض في أجسامنا.. يا

حرام على ابن أخي، قضى شبابه في السجن لأنه كان يؤمن بِعَلَمهم الأحمر.. احتللن الفنادق، أسواق الذهب، أسواق المعدات الكهربائية، مخازن العطور والملابس. كل ده، معليش. لكنْ مطربة روسية تغني «يا زهرة في خيالي»... ده اللي جنّنني.

ـ يلّلا يا بهية، ما تقولي لأميرة عن آخر الاختراعات..

ـ لا اختراع ولا حاجة. ركّبت بالأودة جهاز عشان الواحدة تسيب الفرو بتاعتها صيف شتاء وما يكلوهوش العث، يبقى طازة زي الورد. واللي عايزه أهلاً وسهلاً ٥٠ جنيهاً بالسنة. وكمان اللي عندها ملوخية يابسة تجيبها مع الفروة، أصل التلاجة العادية بتغير ريحة الملوخية وطعمها.

ـ أعطيت فروتي لأم بهية. فاكرة يا بهية لما قَفَلتِ عيون أمك وحطّيتي ايدها بالكيس قلت: «حزّر فزّر يا ماما». والمسكينة صرختْ «يا فرحتي، حنعمل ملوخية بأرانب»؟

تغضب بهية:

ـ إنت دايماً يا أميرة تحبي تنكّدي عليَّ وعلى أمي. دي هي كانت بتهزّر، والنبي بتهزّر. على كلٍ. فروتك كان أكلها العث وإنتِ بتباني فيها مثل الغوريللا.

تضحك النساء لتقاطعهنّ أميرة بغضب:

ـ وأنا بهزّر زي ما أمك كانت بتهزّر. أنت كل حاجة تأخذيها جَدّ؟

ترطّب ناهد الأجواء: «اسمعي يا أميرة، الواحدة تفوت الأوده دي المبرّدة خمس دقائق، وهي تشد البشرة كأنك شدّيتِ وجهك بالملاقط من هنا وهنا. كم مرة بالأسبوع، قال الأخصائي يا بهية؟

- مرّة واحدة (تجيب بهية). لكن إذا في حاجة ضرورية، زي حفلة مثلاً ، مرتين. بس دي حالة استثنائية خالص! بس ماتغلطوش، هي ما بتخسّش!

- مين عايز وزنه يخس؟ (تنبري أميرة وهي واثقة أنّ بهيه تقصدها). تجيب بهية من غير أن تنظر إليها:

- اللّي راحت دكتور الأسنان عشان يخيّط لها الفكين، وصارت تطحن الأكل وتدحشه بين أسنانها، واللي خسّت عشان هي تصوّرتْ سيدنا المسيح ببصّ عليها بغضب كلما مدّت إيدها عالثلاجة أو البسبوسة، قام صعِب عليها وحرّمت تمد إيدها عشان ما تزعلوش... كفاية آلامه.

تحاول ناهد أن ترطّب الأجواء بين بهية وأميرة، فتعلق:

- مش أختي خسرت الدعوى التي رفعتها على زوجها عشان يدفع تعويض بعدما طلقها بالثلاثة بحجة أنها أهملتْ نفسها وزاد وزنها.

توافق كتكوته:

- حتى التلفزيون بمصر وجّه إنذار بالصرف من الخدمة للمذيعات إذا ما خسّوش. حاجة ما تتصدقش.

- ده مؤامرة دولية. رجال العرب ينكرون عروبتهم، ماضيهم، وبيلحقوا ذوق الأجانب. الأوراك العريضة كانت معيار الجمال (تدافع أميرة عن نفسها وهي تفكّر كيف جعلها الزبون الإماراتي تشك في كونها أنثى، وحوّلها إلى جدّة مسنّة تشبه بوذا المبتسم، لأن اللحم

الذي يكسو جسمها أراد أن يطل على الحياة ويتكاثر ويصبح وسادة، من غير أن يأخذ مشورتها).

ـ يلّلا ناهد. يلّلا عايزة اشتري قماش، نروح بتاع الغزال السريع. ثم تلتفت إلى بهية: «اطلعي اطلعي منها، عملتِ عملية لمناخِرك؟»، لتجيبها بهية: «أنا؟ أعوذ بالله، خسيت ٥ كيلو، وكل حاجة فيّ نحفت».

تخرجان معاً. تؤنّب أميرة ناهد على صغر عقلها وكأنها أصبحت كالآخريات:

ـ إنتو تصدقوا بهية عشان ساكنة البناية الفخمة؟ اليوم اللي تقرر زوجة الشيخ السعودي تزور لندن حيطرد بهية ويقول لها: أنت مين؟ والفرو حيقول لكم باي باي فُتُكُمْ بعافية. وجهاز التبريد ده اتاريه هو بالشقة عشان الفلوس ما تتعفنش. الشيخ بتاعها ده كان وراي وربنا.. قِبلِتْ معه مرة واحدة... وياه. قرفتْ حياتي، وقلت مش عايزة بنس واحد. لازم الوحدة اللي يجيبها تلعب برجله المشلولة، تعملها مساج، يقول «الغيشا» تعمل كده، الغيشا مش حتمسك رجل مشلولة. ما تزعلش مني يا ربنا. بعدين يقعّدنا حضرتو عشان نسمع العود في الطابق الأرضي عند البركة حتى الواحد بيبرد وتصطك أسنانه من منظر نافورة الميّ، والعوّاد كان حاجة حزينة خالص. ومش بس كده. وحضرة الشيخ يصف حوله مدراء بنوك انكليز وسويسريين ما بيصوّش إلاّ بالأرض.. خجلت والله عنهم. والست المصونة كتكوتة، راقصة مصر الأولى، ما دامت هي تابت

واستغفرتْ ربنا وتحجَبْت، بتعمل إيه وسطنا؟ لازم عايزة تهدينا. أو تاريها ما تعرفش تتسلى إلا بصحبة اللي زيّنا؟

تقاطع ناهد أميرة:

- جرى إيه يا أميرة، مالك يا حبيبتي، جرى إيه في دُبي؟

- فاكرة محمد الإماراتي؟

- بتاع كاوتش عربية فوق كاوتش عربية، وده يتّنسى؟ ما له؟ هو مات وما حطكيش بوصيته؟

- ده وضعني بمنزلة الكلاب، طعنني بكرامتي، بعنفواني وبجمالي، وصار يتهرّب مني وياخذ الانكليزيات والروسيات على اليخت وكأنهن بنات عائلات وأنا الزبالة..

وجدتْ أميرة نفسها تسترجع قصتها مع محمد الإماراتي الذي ما إن رآها عارية أول مرة حتى كاد يُغمى عليه. يبدو أنها كانت المرة الأولى الذي يرى فيها امرأة عارية، وهتف ينشد:

- «جسمك فعلاً خو غصن بان، وثدياكِ بيضتا نعام، وبطنك سهل الأقحوان، ومؤخرتك كثبان رمال».

وحين عاد إلى الإمارات أخذ يُقْنع زوجته بأن تنام معه عارية، تارة بالإغراء، وتارة بقَسَمِه أَنْ يتزوج سواها إذا رفضتْ، وطوراً بإهدائه إياها المجوهرات الثمينة، إلى أن رضختْ ذات ليلة بشرط أن يُغرقا الغرفة في ظلمة كالحة. ومع ذلك، مع ذلك.. ما إن رآها حتى صاح مرتعباً، وهو يبعد وجهه وينادي «لا. لا. لا». رأى الثديين

يتدلّيان حتى بطنها وكأنهما ثديا ماعز عجوز جائعة. «لا، لا، لا». رأى بطنها إطار سيارة يربخ فوق إطار فوق إطار.

– وأتاريه عمل حالو كازانوفا وصار يبسطهن بدل ما هن يبسطونه..

ـ قال إني تخنتْ. تصوّري، موظف الفندق يطلب مني دفع أجرة الغرفة سلفاً إذا كنت عايزه ابقى.. باختصار طردني ودفع لي ملاليم..

ـ وبعدين جرى إيه؟

ـ تركت الفندق وسافرت، لكنْ بعد أن كتبت له ورقة مفتوحة: عزيزي محمد، الآن عرفت لماذا كنت تحب المضاجعة في الـ Jaccuzi حتى تختلط الأمور على من معك.. فالمياه جارية ولكن يكتشف أحد أنك عنّين..

ـ يستاهل أكثر من كده.. بس لازم نسيتِ تقوليلو إنك حامل.

ـ طبعاً حامل بتوأم كمان.. لكن الحيلة ما نفعتش. المرة دي صار ينصحني ويتنرفز عليّ ويقول لي: «حرام، حرام..» وانقلب بلحظة واحدة إلى شيخ أزهر.

ـ مش معقول يا أميرة الكلّ، ده أنا قلت لستانللي عامل روحك شيخ أزهر؟

ـ قلتي ايه؟ ستانللي؟

ـ آه ستانللي بشحمه ولحمه، صادفته في الادجور رود وقام أدّاني محاضرة عشان مستقبلي..

ـ معه حق يا ناهد، أنا أفكّر في المستقبل. صرت ستة وثلاثين سنة. اللي تعودتْ على الحرير وعلى المصاغ والأكل الطيب ما تقدرش تعيش على الصراط المستقيم.

ـ نسيتِ الميّة السخنة، والتاكسيات، وأطباء «هارلي ستريت».

وصلتْ ناهد وأميرة أوكسفورد ستريت، وأخذتا الشارع الصغير قبالة«سلفردجز». وبدلاً من أن تقصدا مخزن الأقمشة، جلستا في مقهى تتناولان القهوة والكعك.

أخذت أميرة من شنطة يدها علبة صغيرة وقدمتها إلى ناهد، التي غطت عليها كالطير تمزق ورقتها ثم تفتح العلبة الصغيرة لتجد قرطَيْ حلق، عبارة عن قفص من الذهب داخله عصفور. العصفور بالذات أعاد إلى ناهد وأميرة ابتسامتهما، وأخذتا تتبادلان النكات والثرثرة كما في الماضي، عندما كانتا في أوج النشاط والسعادة، قبل أن تلجأ كلٌّ منهما إلى الوصفة ذاتها حتى تعيدا الزبائن إليهما، فتُحْرقا البخور الخاص مع أوراق الكلينكس الذي يحمل آثار الزبون. فجسدُ أميرة أخذ يتبدّل ويزداد سمنة. وأعصاب ناهد أخذت تُسْتثار بسرعة ولأشياء تافهة. فتفقد السيطرة وتتعارك مع الزبائن.

افترقتا بعد أن تواعدتا على أن تناقشا حياتهما ووضعهما بكل جدّية في اليوم التالي، بعد أن أكدت كل منهما للأخرى أنها جميلة ومغرية، وطبعاً أجمل من بهية.

- ٤ -

يفتح نيقولاس شنطته ويبعثر ملابسه، كأنه مريض بالسكري ويريد الانسولين حالاً وإلاّ أغمي عليه.، ما إن يرى المنشفة تلك حتى ترتاح أساريره. يُخرج منها خنجراً عمانياً من الفضة والذهب عاينه منذ أشهر وقام بشرائه. يعلّقه كما علقه بخياله على الحائط قرب المكتبة. شقته اكتملتْ بهذا الخنجر العربيّ. صندوق خشبيّ من الهند، طرابيش عدة محوكة بالقش من سيريلانكا. «رائع، رائع» يبتعد عنه، ثم يلقي نظرة أخرى ويهنئ نفسه على شرائه.

كل شيء كما هو، كما تركه. يدور في الشقة كمن يرحب بنفسه. يسقي النباتات ولم تكن تحتاج إلى الكثير من الماء، رغم أن المنظّفة جوليا دأبتْ على سقيها مرةً كل أسبوع عندما تأتي لتنظيف الشقة. يكره هذا الشعور بالغربة والوحدة كلما عاد إلى لندن وكلما سافر إلى عُمان. ماذا يريد؟ أن تفتح الكنبة له ذراعيها وتضمه إليها أو أن تصفق الوسائد مرحبةً به؟ يدخل المطبخ، يدير سخان الماء ولا يتركه كعادته بل ينتظره ريثما يغلي. يأخذ كوب القهوة إلى الكنبة ويجلس عليها. يلاحظ أن حفّه بالماء لإزالة الشوكولا عنه في زيارته السابقة

ترك على الكنبة بقعاً. لو رأتها ليز ماذا كانت فكّرتْ، يا ترى؟ يتذكر فجأةً التمرَ الذي أتى به، يُفْرغه في الطبق الخزفي ويبتدئ في الأكل، يأكل خمس حبات ثم يأخذ النوى إلى المطبخ، يريد أن يعود إلى التمر ويوقف نفسه. يأتي بالبريد، ويفض رسالة أنيتا. قبل أن يقرأها يجد أنه يفرز بريده ويرمي بما لا يهمه. خط أنيتا المائل الجميل هو الذي فَرَضَ عليه أن يتخلص مما لا يريده. تسأله هل في استطاعته إعارتها القماشَ المعلّق على الجدران حتى تستعمله في أحد مواضيعها الفوتوغرافية؟ هل طلبها هذا حيلة أو حقيقة؟ تحين منه نظرة إلى الغطاء الهندي المطرّز بأشكال الطواويس والغزلان والثعابين والأسود والزهور، وصيادين على أحصنة، بعضُهم ينفخ في الأبواق. اشتهت أنيتا أن يمارسا الحب عليها مرة، وهي تُقْنعه بفكها عن الحائط. «لكنها عاشت قرنين، عليّ أخذ الحرص» يقول لها. رفضه هذا زاد من توقها إلى الغطاء، ولم تتركه إلا عندما أنزله عن الحائط.

عندما التقاها في المرة الأخيرة وجد أن باستطاعته إقناعها أن يناما في سرير واحد كصديقين فحسب. ولم تُصَبْ بالخجل أو الدهشة، بل لم تحاول أن تستميله، وإنما ابتسمت ابتسامة واسعة بعينيها الواسعتين: «أخت وأخ»، لتختفي هذه الابتسامة من ثمّ ويحل محلها الخوف، وهي تهمس له:

ـ أخي، علينا أن نزيد من تنفسنا، حتى يظن رجل الفضاء أننا شجرتان. فأشجارهم تتنفس بصوت مرتفع. انظرْ هل تراه أنه يتقدم إلينا؟

خيالها أيقظ رغبته، أيقظه، صرفه عن قراره: بأن يخبِّئ جسده للتي سوف يعشقها ويعيش معها، وبأنّ الجنس عادةٌ أصبحتْ مضجرة لديه. وجد نفسه يميل إليها، وكان قد تمدَّد على ظهره. لهاثها دخل فمه، وسار في فقرات ظهره. ومع ذلك أفلتت منه وهي تبكي:

- «عدني يا أخي، عدني، بأن زواجك لن يفرقك عن أختك الضريرة، التي تعيش في ظلام أبدي. هل تعرف كيف يعيش الأعمى؟ إنه...».

يسرع الآن، يدير رقم هاتفها، ليرد المسجِّل. لم ييأس. كان يعرف أنها أحياناً تقلد آلة التسجيل. ينادي: «أنيتا. هذا نيقولاس. عدتُ لتوي!».

رسالة من والده يسأله فيها: هل سلم نسخة الإنجيل العربية إلى «سيف» في عُمان؟ (الإنجيل ذو الثلاثة آلاف صفحة يستوي أمامه على الطاولة)، «أمك لا تكاد تتحرك. فالناس في هامشير كرماء كما تعلم... كلما قامت بزيارة قدموا لها الكعك. تقول إنها لا تستطيع أن ترفض! بيني وبينك هي تحب إعداد الكعك أيضاً. أثناء زيارتها للطبيب الاختصاصي أنزلها بمساعدة المرضة لتعتلي ميزاناً خاصاً بمطبخ المستشفى. قالت إنها تُشبه كيس بطاطا، أو كيس طحين. تتهمني بأنني السبب، قائلةً إنها لولا مهنتي لكانت حافظتْ على قوامها».

يفكر نيقولاس، وهو يضحك للجملة الأخيرة في رسالة والده: «على كلٍ، إنها كسلى لدرجة أنها ستجد أنّ أكل التمر ليس بسهولة

أكل الكعك؛ فهناك عوائق نواته وأحياناً قشرته.. في عُمان لن تجد سوى التمر تأكله. على كل.. قال الطبيب عندما سألته عن ثلاث حبات من التمر إنها تساوي معدل ملعقة صغيرة من السكر.. لا بأس لا بأس. على كلٍ، هامشير رطبة يا ابني. أتمنى أن ترضى بالسفر معي إلى عُمان وإلاَّ سافرتُ وحدي خاصة أنك ـ وبكل شكر ـ سوف تتكبد مصاريف رحلتنا».

عليها أن تعتبرها إجازة لا أكثر ولا أقل.. فهي لطالما شكت أننا نفتقر إلى أخذ الإجازات.. آخرها كان منذ عامين، عندما استعارت بيت صديقتها، كانت حالته غاية في السوء.. كان يفتقر مطبخه إلى مجلى.. عدا عن آلاف السائحين من ألمانيا يقومون بشيّ أنفسهم تحت الشمس.. يبدو أن عُمان هي المكان المناسب لقضاء الشتاء. على كل سيكون هناك فائدة من سفري غير الابتعاد عن الكبت اليومي الذي أعانيه أنا والكنيسة في انتظار المعونة المادية. سيعيد شباب المنطقة النظرَ في شخصية القس. سيكتشفون أنه يحب المغامرات والسفر إلى أماكن بعيدة.

رسالة من لين، يتردَّد نيقولاس في فضّها، ثم يمضي إلى ذلك وفاءً لخطها المحفور في الذاكرة. قصاصة جريدة عن معرض للبيزنطيين في متحف المتروبوليتان في نيويورك، تُرفقها ببطاقة للترحيب بعودته إلى لندن، متمنية رؤيته. يهجم عليه الضجر حتى من البطاقة التي خطت عليها الأسطر، وكانت تمثل «عرش السلطان محمود» الذي كان يشبه ضفدعة.

منذ التحاقه بهذه الوظيفة وهي تلاحقه بأقاصيص تتعلق بالعرب. مقال عن صدام حسين، مقال عن خوف الراقصات العربيات من الاسلاميين وتوظيف قبضايات لحراستهن، مقال عن مرض حافظ الأسد، مقال عن بيع الأولاد المصريين للسحليات بجنيهات معدودات، إذ تباع في الغرب بـ ١٠٠ دولار.

لم يعد يقع في براثن عينها التي جذبتْه إليها. أذهله ما كانت تلك العين تعرف، حتى أصبحتْ كياناً بذاته. ساحرة تفك الألغاز من حركة ريشة معينة، من لون بهت، من معادلة، من قصة تاريخية. تُخزِّن المعلومات واللغات العديدة في أنماط قزحيتها التي لم تكن تشبه أيَّ عين أخرى، تماماً كبصمة الإصبع التي لا تشبه أيّ بصمة إصبع أخرى. حتى أصبح نيقولاس عبداً لهذه العين التي كانت تتفوّق عليه من شدة هوسها بالفنون. يسمعها والعين تتكلم وتفكر وتتثاءب. وخصته بنظرة لم يتذوقها غيرُه من الموظفين والمراهنين في المزاد ولا حتى التحف نفسها.

طار عقل نيقولاس وهام بها وهو يرى هذه العين طوع يديه، تنام وتبتسم وتتأوه، وتصاب بالغيرة. عينها جعلته يشعر بالانتماء، بأنه وسط الأشياء في لندن. عينها عرّفته على الشوارع والأزقة، على النوادي ومطاعمها، أدخلتْه الحفلات.. لكنّ ليز قرّرتْ تركه لأنه لا يريد الزواج.

بعد مدة من الضياع، ومن إقامته لعلاقات عابرة، عادت إليه متجاهلةً موضوع الزواج. سعادته بعودتها لم تكن توصف، ولندن لم

تَكْفِ للاحتفاء برجوعها إليه. فذهبا معاً إلى فلورنسا، إلى ربوة فيوزلي. اتجها في الطريق المسفلتة؛ وكان يحد أحد جانبيها سور، والجانب الآخر أبنية تطل على الروابي الخضراء. يفكر أن السير في سور الصين لا بد أن يكون كذلك: سير على اسمنت وسط الطبيعة الخضراء. لكن ليز صححتْ معلوماته، وهي تقارن عرض السور وطوله وموقعه.

ـ قصدتُ الإحساس فقط.. ليز، لا المقارنة.

كانا يحبان الرسام «فرا انجاليكو» الذي عاش في هذه الكنيسة ولم يرسم شيئاً على جدرانها. طافا في عتمة الكنيسة الصغيرة جداً، توقفا عند اللوحات القليلة. دخلا الغرف الأخرى، وزاد خشبها القاتم من عتمتها. ونور الفناء، الذي كان يحيط الدير وكأنه يدان حنونتان تحملانه، شد نيقولاس لأن يترك ليز وكتابَها وأوراقَها، ويقفَ أمام النافذة المفتوحة في الرواق، يطل على الفناء الصغير، حيث النباتات والزهور المتواضعة تشرب من ابريق الخوري الذي كان يدندن بأغنية. قفص كبير رُكزتْ جهةٌ منه إلى النافذة، حيث العصافير تتزاحم وتدخل بيوتها، تأكل وتستحم وتتأرجح في سلة صغيرة تدلّت في وسط القفص. عصفور يستطلع الخبر عند مدخل بيته، ثم يعود فيدخله، يسقط من ريشه، يقضم ريش غيره.. وهكذا في حركة دائمة، وألوان تتبدل وتتقافز. لحقتْ به ليز تسأله ما به.

ـ هذا الفناء الصغير جذّاب جداً. تعاليْ نجلس هنا قليلاً.

ـ تعال، تعال معي. أريد أن أريك شيئاً في هذه اللوحات.

ـ أريد أن أريكِ هذا الفناء والحديقة..

ـ جميل. (لم تنظر إليه) لكنْ تعال معي.

شعر أنه وحيد تماماً، رغم وجودها إلى جانبه. وكان قد صرف هذا الشعور منذ عودتها إليه، ولام فراقهما الذي دام شهرين.

عاد إلى لندن وانسل منها تماماً، وترك عينها لها، تدور في الكتب وتسرد وتتذكر وتجمع المواصفات وتخرج بالحلول. خلع عنه معطفه، لم يبق في حاجة إلى أن يقي نفسه من برودة عينيها. وهي تجرّب كل الوصفات العقلية والجنسية والنفسية، تسأله أن يكف عن ركوب دراجته التي تؤثر في الرغبة الجنسية. ولم تتركه لشأنه إلاّ عندما أخبرها أنه ما عاد يشتهي حتى غيرها.

وجد نفسه يرمي بطاقتها في سلة المهملات. يعدّ كوباً آخر من القهوة ويأتي بحبات تمر أخرى. يُخرج مفكرته وبعض النشرات والرسائل ويبتدئ بالاتصالات. ينقل مواعيد المزادات العلنية إلى مفكرته. يتصل بأكاديمية الفنون، بمتحف اللورد ليتون، ببضع غاليريهات. كلما زادت مكالماته، شعر بأنه لم يفارق لندن. دبّت الحياة في شقته من جديد، وأكّد لنفسه أن حياته بين عُمان ولندن مثالية يُحسد عليها. يتصل بسوذوبيز: «هنا نيقولاس. عدتُ هذا الصباح». يفكر في أن ينام ساعتين ريثما يحين موعد ذهابه إلى عمله. يضع رأسه على الوسادة. وتزوره ليس، التي تناولت منه جواز سفرها وكأنه يقدم لها ما هو نادر وثمين.

يستعيد الألفة الممتعة التي قضاها في التاكسي مع الركاب العرب. يتصل بعُمان. يسأل سكرتيره أن يأتي له بمعنى اسم «ليس»، ولم يشأ أن يقفل الخط بل انتظر حتى يسمع معنى الاسم:

ـ لميس: أي ناعمة الملمس.

عندما سألها عن اسمها شدَّتْ على الميم والسين وهي تلفظهما لتُظْهر أسناناً بيضاء متناسقة. يداها جميلتان رقيقتان، وشعرُها ـ الذي كان كشعر معظم العربيات بسواده الفاحم ـ نهر طويل عقدتْه عند رقبتها. بدت في التاكسي وكأنها هبطَت بكل هدوء من مكانها في جدران المعبد، خاصةً عندما فتحتْ فمها لتجيب على حشرية أميرة بارتباك وبخجل. بدت له أكثر شفافية وهي وحيدة من غير أترابها التماثيل في المعبد. عيناها السودوان هما اللتان كانتا تصرخان بالشهوة من غير أن تدري، حتى وهما تحاولان استيعاب ما حولهما بسرعة وكأنهما وُلدتا لتوهما. كذلك ابتسامتها الكبيرة، وجسمها الذي بدا أكثر رقة.

ما إن خلعتْ كنزتها حتى بدا صدرها متوثباً دونما حاجة إلى حمالة. بدت وكأنها حساسة، سريعة العطب قلقة البال. أهي مريضة؟ ولكنّ بشرتها السمراء تبدو معافاة. لا يستطيع أن يسألها ما بها، هكذا مباشرة. عليه أن ينتظر الفرصة المناسبة. فرغم إصرار معظم العربيات اللواتي يعشن في لندن على أنهنّ عصريات لا ينتمين إلى المرأة العربية الكليشيه التي يفكر فيها الغرب، فإنه لم يكن يشعر إلا بحاجز غير مرئيّ بينه وبينهنّ في بداية عمله في سوذوبيز. أهُنَّ متعاليات لأناقتهنّ الغالية، وشعورهنّ المصففة المصبوغة باللون الأشقر؟لم يكن يجرؤ على مجرَّد إطالة النظر إليهنّ، وإنْ كان يبدو في الموقف الأقوى. يشرح هذه القطعة وتلك إنْ كنّ تلميذات يأخذن الدروس أو مهتمات بالمزادات.

كان يحار في شخصياتهنّ التي تبدو كأنها تتأرجح على حبل؛ سحليات تتبدل ألوانها. مظهرهنّ الأنيق ودماثة حديثهنّ لم يكونا

مطابقين حدّتهنّ أحياناً أو مواربتهنّ، وهنّ يحاولن استنطاقه ـ بطريقة غير مباشرة ـ عن تقديره للسعر الذي سوف تحرزه هذه التحفة أو تلك في المزاد العلنيّ، أو استدراجَه إلى معرفة الشخصيات العربية التي سوف تشترك في هذا المزاد. وحين يعرف أنهنّ صائمات في شهر رمضان يضيع تماماً. يحاول الاستفهام من غير أن يجرح شعورهنّ كيف هنّ صائمات، ومع ذلك لم يكنّ محجبات، ليغوص في حيرة لا يستطيع أن ينشل نفسه منها، وجوابهنّ يأتيه: «ما دخل الصيام بالحجاب؟». لكنّ ليس بدت له مختلفة. يذكر كيف شعر بقليل من الغبطة عندما سمعها تقول لأميرة إنها مطلقة.

يرنُّ الهاتف. كان ديڤيد، زميله السابق لدى سوذوبين، يسأله إذا كان العُمانيون مهتمين بالغزال وما إذا كان قد جاء من أجله، وما إذا كان يعتقد أنه سيحقّق أعلى الأسعار في عالم المزادات الإسلامية؟ وَيقصد بذلك: غزال القرن العاشر النادر الذي استراح في بركة النافورة في حدائق مدينة الزهراء الأموية قرب قرطبة قبل أن يحل أخيراً منذ القرن الماضي في أحد القصور النمساوية.

ـ ديڤيد، هل أستطيع الاتصال بك هذا المساء أو في صباح الغد؟. آسف لكني على عجلة من أمري الآن.

ترك نيقولاس شقته متجهاً إلى سيارته في اكسلتون سكوير. جارٌ تمطى من النافذة وأخبره أنه أبعد ثلاثة من الشبان بعد أن ضبطهم يعبثون بسيارته. «لعلهم ظنوا أنها مهجورة.. ربما عليك أن تأتي بمن يقودها لك من وقت إلى آخر أثناء غيابك...».

شكره نيقولاس وهو يفكر أن هناك شعوراً بالجيرة، وأن لندن ليست شاسعة غير مبالية كما كان يظن.. ربما عليه بيعها أو تقديمها إلى عائلته.

اتجه بسيارته من پارك لين إلى ماربل آرش فأدجور رود حيث تعيش أميرة. ركن سيارته عند منعطف، وسار ملاحظاً الأجواء العربية المألوفة لديه.. و«كلمةَ حلال» المتصدرة الدكاكينَ والمطاعمَ. لماذا يستعملها العرب للجوم وللمرأة معاً؟ ربما إذا درس اللغة كما يجب يستطيع أن يتفهم مكنون شخصياتهم، ثقافتهم وعاداتهم. رجلٌ ينظر إلى كل امرأة يصادفها بينما زوجته ملتفة بالقماش وكأنها ذاهبة إلى حفلة تنكرية تسير إلى جانبه، تجر طفلاً بيدها، والخادمة الفليبنية تجر آخر، ويدها الأخرى تحمل كيساً يطفح بالموز والبطيخ. ترى هل تتسوق ليس هنا وترتاد المطاعم العربية؟

رجلان لا بد أنهما يتناقشان في أمور جدّية، إذ يتناوب كل منهما على لمس عضوه ما إن يحين دور أحدهما للتحدُّث وكأنه يكبس زراً يُعِينه على إخراج صوته من معدته.. كانا ينتعلان جزمتين مزدانتين بالدوائر والبكل الفضية.

رائحة الطعام غير الانكليزي تتصاعد من مدخل بناية أميرة. شقة أميرة تنقله إلى عُمان، إلى البيوت المعروفة بستائرها المسدولة دائماً، وكأنها شيّدتْ بالإسمنت. تقف أميرة بكامل زينتها، بأحمر

شفاه يضحك ربما لأنه لوَّث أحد أسنانها، وبظلّ الجفون الأخضر المنسـجم مع أزرار تايورها التي تهدد بالانفـجـار كلمـا تكلمتْ، وبشعرها المنفوش كأنها مغنية أوبرا.

ـ هل بكّرت في المجيء؟

ـ لا، لا، أبداً.

كانت تضع عطراً وكأنها ترتديه. تقف خلف البار البامبو تسأله ماذا يشرب؟ «نبيذ أبيض أو أحمر لا فرق». وهو لا يزال تحت وطأة ما يرى، ولا تخدش عينيه ـ كما كان يحدث من قبلُ اللوحاتُ المطبوعةُ داخل أطر ذهبية ذات مواضيع رومانسية وأسطورية. شابة تحفر اسم حبيبها على الشجرة وهي تمسح دموعها. امرأة عارية حط على مؤخرتها نسرٌ فَرَشَ جناحيه. تشير أميرة إليها. «لقطة من بيز ووتر يوم الأحد».. ستائر من الورد، كنبات ذهبية طراز لويس السادس عشر، تكسُّر بعضُ تيجانها، وبان الجصُّ. والطاولة حيث عقرب كبير أو عنكبوت من حديد يحمل زجاجها، ثم بيضة كبيرة مرتكزة على قاعدة معدنية ذهبية، يتفرع منها طيران أسودان بعيون ذهبية ومنقارين ذهبييْن ومخالب ذهبية وكلها تتنازع على هذه البيضة..

يسألها: هل هذه رائحة كزبرة أو كمّون؟ لا أعرف الفرق.

ـ لا بد أنك جائع. هل أطلب طعاماً من المطعم اللبناني الآن؟

ـ لست جائعاً ، بل فضولي. لكن هل تأخرت؟ هل الموعد في الثامنة أم في التاسعة؟

إذاً جاء من أجلها، ولم يأتِ للطعام العربيّ وللكحول كعادة الرجال الانكليز الذين يزورونها.

ـ نسيت أنا الأخرى، أوه، سمير اتصل وقال: ما زال ينتظر السعدان حتى يدخل الحمام!

ـ أوه.. اتصلَ بي.

ـ أعرف، أعطيتُه نمرتك.

ـ أضحكني، ثم أقفل السماعة. وليس هل سمعتِ منها؟

ـ ليس لم تتصل، لا أعرف نمرة تلفونها، هل تعرفها؟

ـ لا.

ـ لا بد أن تأتي... نحن العرب دائماً نتأخر.

رنين التلفون جعل قلب نيقولاس يقفز من الرعب. لا بد أنها ليس تعتذر..

حين كانت أميرة تبحث عن التلفون راح نيقولاس يشعر بخيبة أمل. انتهى الأمر. اختفت من حياته. لكنه يعرف بيتها. يقفز قلبه من جديد. سيقصدها ويترك لها رسالة صغيرة، ماذا يكتب فيها؟

ما زال التلفون يرن، يود نيقولاس أن يبحث عنه، لكنها أخيراً وجدته، وأجابت بصوت منخفض: «آلو».

تنظر إلى نيقولاس، تغمزه فينهض حتى يحادث ليس. أميرة تعود تتحدث:

ـ آلو، نعم أميرة.

ـ ليس؟ ارجوكِ خذي نمرة هاتفها! (يهتف نيقولاس، لكنّ أميرة تتجاهله وتتابع حديثها).

ـ في الغد.. تصبح على ألف خير.

عندما تعيد سماعة التلفون، تنفجر ضاحكة.

ـ لازم ليس أخذتْ عقلَك!

يضحك نيقولاس ويخجل أن يقترح على أميرة أن تذهب معه لإحضار ليس. تصبُّ الويسكي وتقدّم له الكأس.

يأخذ نيقولاس الكأس التي لم يطلبها: «شكراً أميرة. إذاً، ماذا نفعل»؟

ـ ننتظر نصف ساعة ثم نطلب عشاء هنا. لربما تأخرتْ ليس. ما رأيك؟

ـ هل تظنّين حَدَثَ لها مكروه؟ كانت مكتئبة في طريقنا من المطار إلى لندن.

ـ لا بد أنها كانت مصابة بدوار، لأنها لا تأكل، فهي تود أن يكون مقاسُها صفراً!. سأطلب طعاماً، ما رأيك؟

ـ لست جائعاً. هل تعيشين وحيدة؟ هل تعملين؟

ـ زوجي في دُبي، وأنا أعمل في الأحجار الكريمة.

يفكر نيقولاس أنّ أميرة لم تكن كالعربيات اللواتي يراهنّ في سوذبيز أو عُمان، في الكوكتيلات حيث لا تصغي الأذن إلى أيّ حديث، والعينُ تشرد فتلحق كل ما حولها ولا تبصر شيئاً، خائفات

من أزواجـهنّ، سـاكنـات يربضـن كـالقطط حـتى لا تهـتـز عقـودهنّ...، وعـربيات تحت أشـجـار جـوز الهند بمايوهات جـميلة وطلاء أظافـر وكـأنهنّ شـفـاه ملوّنة على الرمال، غـيـر مكتـرثات لما حـولـهنّ، خـاصـة للأجانب.. وجد نفسه في لحظة زهو يتساءل إذا كنّ لا يجدنه جذاباً، لخلاء صدره من الشعر!.

يضـعـن سـمـاعـات الووكمن وهنّ مـتـمـددات وحـيـدات أو مع أزواجهنّ.. لا شك أنّ المغنين الأجانب يدغدغون طبلة آذانهنّ، وكذلك الممثلون من نجوم هوليوود في المجلات التي يتفحصونها.

تنهض أميرة بعد أن تسأله هل من كأس ثانية؟ يسمع قرقعة الثلج وإذا بها تمسك منكبيه فـجأة تفركهما. يشعر بأظافرها، بل يسمع صوت أظافرها على قميصه. لا بد أنه يتوهم أنها تتحرش به لكونها تلصق صدرها برقبته، تلصق حرارة أنفاسها، يدها تنسل بين اللحم وقميصه.. وإذا به يقوّس ظهره وهو يميل إلى الأمام بعيداً عنها. ورغم تردّده في ألاّ يجرح شعورها، يقول كاذباً:

ـ أنا آسف، أميرة، فوجئتُ، بل إني صعقت، إذ أنتِ عربية ولا أعرف ما...

ـ مهما حاولوا أن يسجنوني فإنهم لا يستطيعون سجن ما في جسدي. أنا إنسانة قبل أن أكون عربية. لا بد أنكَ شعرتَ بانجذابي إليك. وجدتني أترك نفسي على سجيتها، تتحـرّش بك. أنا أعرف أنني حتى إذا ارتميتُ عليك فأنت لن تلومني، بل ستبرّر فعلتي هذه.

ينعقد لسانه، يشعر بتأنيب الضمير، ويعرف أنه لن يَنْتصب.

ـ أنا آسف، لأني..

ـ أعرف، أعرف أنّ الرجل ليس كالمظلة الأوتوماتيكية يُضْغط زرُّها فينتصب.

أخذ يضحك رغم ارتباكه الشديد للطريقة التي عبّرتْ بها عن حالة الرجال أو عن حالته. ولدهشته بادلتْه بضحكاتٍ أشد صخباً.. ثم مالت تقبّله على خدّه الأيمن ثم الأيسر ثم الأيمن مرة أخرى قبل أن تودعه قائلة: «ثلاثة كما هي العادة»..

في طريق عودته إلى سيارته مرَّ برجل عربي يساوم مومساً عربية وباللغة الانكليزية. وقد دفعه هذا إلى التفكير بأنّ ادجور رود شارع إنكليزي أيّاً كان الأمر.

الفصل الثاني

- ١ -

القطة هي التي استقبلتْ ليس وقادتها إلى العِلّيّة، حيث كانت معلمة اللهجة الإنكليزية تشرب القهوة وتطل على ربوة «الپريم روز هيل»:

ـ تفضلي لاميس، هل لفظي لاسمك صحيح؟ آسفة لم استقبلك عند الباب.

(طبعاً عرفتني من لكنتي)، تفكّر ليس.

ـ أرجوك اجلسي. شاي؟ قهوة؟

ـ لا شيء، شكراً.

القطة تحوم حول ليس، تناظرها، تلامس بجسمها فستانها، حذاءها، حقيبتها.

ـ تريد أن تتعرف إليك. هل يضايقك هذا؟

ـ إذن ، تريدين إتقان اللهجة الإنكليزية.

ـ نعم.

ـ هل لي أن أسألك عن السبب؟

ـ أريد أن أعيش في لندن.

ـ أين تعيشين الآن؟

ـ في لندن!

ـ متى قدمتِ؟

ـ منذ ثلاثة عشر عاماً. لم أكن أشعر أني أعيش في لندن، كنت في بيئة عربية صرفة.

ـ طبعاً كنتِ في حاجة إلى أن تكوني ضمن أجواء عربية، خاصة أنك أنت هنا نتيجة حرب الخليج.

ـ لقد تركتُ العراق قبل أن تقع حرب الخليج..

ـ أوه طبعاً، طبعاً..

تجلس المعلمة على الصوفا وتطلب من ميس الجلوس.

ـ عليَّ أن أسألك بضعة أسئلة إذا لم يكن لديك أي مانع، لأن هذه الدروس لن تبدّل لهجتك فقط، بل الطريقةَ التي سوف يتحرك بها لسانك. كلُّ ما له علاقة بصوتك، وبحنجرتك، سوف يتبدل. إنها ليست مسألة نطق فقط: إنها أعمق من هذا.. فالعربية هي لغتك، وتعديل الطريقة التي سوف تتحدثين بها ستؤثر في شخصيتك بالضرورة.

ـ أفهم، أفهم..

ـ لذلك أريد أن أعرف لماذا بعد ١٣ سنة، قررتِ فجأةً اكتساب لهجة إنكليزية صرفة؟ ولماذا اخترتِ انكلترا لتعيشي فيها، لا أيّ بلد آخر؟

ـ جئت إلى لندن لأتزوج من عراقي كان يعيش هنا، وأنا الآن مطلّقة، ولي ولدٌ منه. لقد قررتُ أن أندمج في هذا المجتمع وأصبح واحدة منه. أحتاج إلى أن أعمل،.. أعتقد أنّ إجادتي للهجة إنكليزية صرفة سوف تساعدني على ذلك.

ـ بمعنى آخر، لقد اتخذت انكلترا كبلد ثان لك..

ـ لا، كبلد أول. لقد تركت العراق، وأنا في الثانية عشرة من عمري ، ولا أعتقد أني سأعود إلى العيش فيه.

ـ إذن، أنت متأكدة ومصرّة. حسناً.. دعينا نبدأ.

تكلمت المعلمة كثيراً إلى درجةٍ أشعرتْ ميس بالنعاس، وقالت لنفسها: هكذا هم الإنكلين، كثيرو الشرح والتشاؤم وهل أن إتقان اللهجة الإنكليزية كما ينطق بها الإنكليز معجزة؟

تؤنّب المعلمة قطتها التي أسقطت القلم والورقة وكتاباً صغيراً، قبل أن تحاول أن تُسقط الكتاب السميك. ثم تعتذر من ميس قائلة إنّ الأحب إلى قطتها أن ترى الأشياء تتساقط. «أخاف أحياناً أن يحلو لها أن ترى نفسها تسقط من العلِيّة».

تغادر ميس المعلمة بعد ساعة وفي يدها ورقة، عليها أن تتمرن على السطرين الأولين منها. نصيحة المعلمة الأخيرة ترن في رأسها كالجرس: «افتحي التلفزيون، اذهبي إلى المسرح والسينما كل ليلة إذا استطعت. تحدثي مع أصدقائك الانكليز. ابتعدي حتى بأفكارك عن كل ما هو عربي. امتنعي حتى عن المأكولات العربية لأن عقلك الباطن سينطق بأسمائها».

ـ أوكي، أوكي، سوف أفعل هذا!

تهنّئ نفسها لأنها تجرّأتْ وتركت الشقة. أوشكتْ أن تعتذر من المعلمة وتلغي درسها. نهضتْ هذا الصباح وقلبُها يدق بعنف، خوفاً أن تكون ما زالت في دُبي. تزيح الستائر: إنها هي التي كانت تغبش الحقيقة وتجعل المدن كلها واحدة، بل إنها تخفي المدن وتترك الإنسان مع وحدته وهواجسه. تتأمل البرجَ، وفسحةً بيتٍ زرعت في أصص الورود، ثم امرأةً وهي تحفض طفلها. ترى أيضاً صناديق الكرتون الكثيرة والشنط والأكياس خلفها. تقترب منها. تحاول فتح الصندوق الأول. تتوقف كثعلب يراقب فريسته غير متأكد من الهجوم. تتصل بمدرسة ابنها لتقفل الخط قبل أن تطلبه. ماذا ستقول له؟ فبالرغم من أنها أمه وهو ابنها، فإنّ كلاً منهما سيعيش على حدة ما عدا لقاءات من وقت إلى آخر. تعود تتلصص قبالتها حيث موظفون يكبّون على مكاتبهم، ثم يرسو نظرها على أنابيب مضحكة الأشكال، على سطوح البنايات، وكأنها نبات فطري معدني، تنفث دخاناً.

يتحوّل برج الـ BT في النهار من ميكي ماوس إلى برج مراقبة بلونه الرمادي الشاحب. ترى فسحات أرضية إسمنتية يطفو عليها العشب. قبة الكنيسة جميلة بلونها الأخضر الصدئ وكأنها دخيلة على هذه المنطقة. شجرة واحدة تطل بين هذا الإسمنت، تحاول بكل قوتها أن تحيا.

في النجف كان التلصُّص ضرورياً عبر فتحات النوافذ المغلقة، ولذلك كانت طاقة الحمّام عالية. كان التلصُّص في الاحتفالات الدينية يبلغ ذروته. عبر مناديل النساء السوداء، وعبر الدماء التي

تملأ وجوه الشباب وهم يضربون بالسيوف رؤوسهم، منادين: «حيدر، حيدر، حيدر، العباس العباس العباس». هل يخطر لهذه المرأة الأجنبية، التي ترتب ملابس طفلها الآن، أن هناك مدينة اسمها النجف؟ تشاهد لميس جارتها وهي توصد النافذة في وجهها ثم تسدل الستائر تاركةً فتحةً صغيرة. طفلها ما زال بين ذراعيها وقد أيقنتْ أنّ لميس تراقبها.

تسير لميس بعد أن ودّعتْ معلمة اللهجة، متأكدةً أنها لن تصادف حماتها أو زوجها السابقين في شوارع بريم روزهيل. تريد أن تكتشف لندن الأخرى، أو أكثر من لندن واحدة كما يعرفها ويعيش أهاليها.

تريد أن تتوسع تماماً كالأميرة الفينيقية أليسار التي أسستْ قرطاجة غصباً عن أخيها الذي منعها من بناء مملكتها، بل أعطاها رقعة من الأرض لا تزيد عن حجم جلد الثور. واحتالت عليه بأن طلبتْ من رعيتها أن يسحبوا خيوط رقعة الجلد طولاً وعرضاً وعرضاً وطولاً، إلى أن امتدت مملكتها إلى رمال الشواطئ وأمواجها. تنتقل لميس من مقهى إلى شارع تبحث بعينيها، فترى النبات والشجيرات وواجهات البيوت. ومن أجل إسعاد المارة، وضع سكانُ هذه البيوت باقة من الورد على طاولة في منتصف الغرفة، أو عرضوا حصاناً خشبياً. كانت لميس تفكر قبلاً أن كل مَنْ يعيش في هذه البيوت لا بد أنه سعيد. وقع خيالها على ستائر بيتها الزوجي وباقة الورد فوق الطاولة. غاص قلبها بؤساً وضجراً وهي ترى نفسها داخله، زوجها يمسك بالتلفون النقال، وأم زوجها جالسة تحتسي القهوة تداعب حفيدها، وصوت التلفزيون يعلو ويعلو.

تجد نفسها تبتسم لطبقين من ورق الألمنيوم، في وسطهما دائرة سوداء تشبه العين، تراهما كعينين تعتليان شجرةً، بل شجيراتٍ متلاصقةً على امتداد جدار حديقةٍ منزلٍ قُصَّت أغصانُها وشُذبْت لتصبح حيواناً ذا ذيل.

منذ أن قدمت من دُبي لم تبتسم كالآن. تتراجع وهي تفطن أنها ابتسمت للرجل اللبناني صاحب السعدان. «كان عليَّ أن أعتذر للمرأة المغربية، أميرة، عن تخلفي عن تناول العشاء معهم» (تفكر ليس فجأة).

تتأمل من جديد النبتَة ـ الحيوانَ. لا بد أن الذي فكر في أن يحوّل هذه الشجيرات إلى حيوان هو شخص خلاّق، ذو نفسية مرحة، كأبيها الذي لم يلفت نظره في معرض المراكب واليخوت في «ايرلز كورت» سوى أشكال ورود غريبة كانت مزروعة حول المراكب. تنقل نظرها من الحيوان إلى صالة الجلوس، تتخيّل نفسها تجلس فيها رغم أنها لم تتبيَّن أثاثها من جراء العتمة، ولكنها ترى علبة من الشاي الصيني على طاولة المطبخ. ترى هل الذي شذّب هذه الشجيرات على هذا النحو هو رجل أم امرأة؟ تسير ليس في طريقها خطوات ثم تتوقف، إذ رأت مَنْ يدفع الباب الحديدي. رجل إنكليزي في يده أكياس ظهرتْ منها برتقالة. تعود مسرعة، وتنادي الرجل الذي لم ينتبه إلى وجودها:

ـ المعذرة.

يلتفت إليها. كان في منتصف العمر، جذاباً. لم يسألها ماذا تريد.

ـ هل هذا لك؟ هل هو تنين؟.

ـ هذا للحديقة، هو دينوصور.

يدير المفتاح في ثقب الباب ويدخل بعجل. ربما لم يشأ أن يتحدث إلى امرأة لم تفرِّق بين الدينوصور والتنين. لم تبحث عن موقف الباص. ندرة سيارات الأجرة في هذا الشارع أربكتها قليلاً، رغم أنها سألتْ نفسها لماذا العجلة؟ لماذا هي خائفة ألاّ تجد تاكسياً؟ تستطيع السير ولو استغرق الأمر ساعة للوصول إلى شقتها. ماذا عن الباص أو الأندِرْغراوند؟ ما هو التاكسي، تساءلتْ؟ هو وسيلة لنقل البشر من مكان إلى آخر؛ إنه ليس دولاب نجاة ولا محطة أمان. لن تضيع، ما دامت لها عينان تقرآن أسماء الشوارع وأذنان تنصتان إلى من يدلُّها على وجهة سيرها. لماذا لا تتوقف وتأكل في مقهى، في مطعم؟ لِمَ العجلة؟ لكنها وقفت تبحث عن تاكسي وهي تشعر بالذنب كما في الماضي، وتتصور أنّ كل مَنْ في البيت في انتظارها. لم تشعر بالاطمئنان إلا عندما رأت تاكسياً شاغراً وأصبحتْ داخله. تدخل الشقة. ينعصر قلبها للحظات؛ فلا لا أحد تخبره عن يومها: عن دروس اللهجة، وعن تمشيها خارج جلد الثور، وعن الساعات القليلة وكأنها أجمل الأوقات.

رنَّ الهاتف. تناولتْه من غير وجل. كانت المتكلمة بلقيس، تلومها لعدم اتصالها بها: «أتيت بالنمرة من أهلك في دُبي.. مشغول بالي كتير عليك، قصة الخشخاش لا على البال ولا على الخاطر».

تحاول لميس أن تكون طبيعية، تفكر أن تقول لبلقيس إنها اتخذت قراراً بألاّ ترى أحداً من الماضي. وأن جميعهن كن صديقاتها

بحكم زواجها. وعندما لم تستطع أن تفعل هذا، أخذت تبكي. ثم وافقتْ على اللقاء بها في متحف «اللايتون» حيث تقدم مسرحية تتناول حياة الفنان لورد ليتون بمناسبة ذكراه المئوية. تعيد السماعة. تشعر بالارتياح فجأة. تتصل بمدرسة خالد، ليقال لها جربي بعد ساعتين. ترددتْ قبل أن تعطي اسمها، وفجأة تركت رسالة: «هذه أمه، عدت من السفر، وأني مشتاقة له كثيراً».

ترتاح إلى جملتها. إنها هي الحقيقة، أنا أمه ولو طلقت والده، أمه إلى الأبد، لن يتسطيع أحد رفع هذه الصفة عني حتى هو. تدب فيها شحنة من النشاط فتدور حول الصناديق، تفتح واحداً منها، تمسك بلفة ما إن تحاول فكها حتى تظهر قدما تمثال المرأة اليابانية المصنوع من العاج، يُخيَّل إليها أن القدمين سوف تدوسان أصابعها، فتلفها وتعيدها إلى الصندوق. هذه بعض الأغراض التي أحبتها واختارتها والتي كانت حماتها تنتقدها عند شرائها إياها، لا لأن هذه الأشياء لم تكن تبرز لشدة قيمتها وزخرفة ذهبها فقط، بل لأنها أيضاً لم تكن تعلن أسعارها ولم يكن يُعرف مصدرها. قالت لها حماتها في إحدى المرات إنّ زوجة فلان دخلت الحفل الخيري بقيمة نصف مليون باوند انكليزي. «كيف عرفت؟» سألتها ميس بحنق، فأجابت: «قمت بجمع أسعار الحلي والملابس على الآلة الحاسبة، فأنا أعرف ثمن كل ما اشترته».

عند هذه الخاطرة تقاعست ميس عن الذهاب للقاء بلقيس، ودلفت إلى المطبخ تكبس زر سخان الماء الكهربائي. راحت تعد لنفسها فنجاناً من القهوة. رائحة القهوة تبثّ فيها روح المغامرة والنشاط من جديد. تهرع إلى ارتداء ملابسها: لا بد أنها تحت تأثير إعلان لقهوة

النسكافه، حيث الشابة الوحيدة على الشاطئ تجفّف دموعها ما إن احتست القهوة بينما تعالت الأغنية.

أستطيع أن أرى بوضوح الآن.

هذا النهار المشمس المشرق.

فاق الوقت هذه المرة عادتها في اختيار ملابسها. تريد أن تبدو لبلقيس ليساً أخرى: ليس السعيدة لأنها طلقتْ. ليس الحرة لا المكبوتة، ولا المستهترة، بل المتوازنة، المختلفة عنهن جميعاً. تختار قميصاً من النايلون مطبوعاً برسوم، ترتديه فوق قميص فانيلا أبيض وبنطلون فضفاض. وبدلاً من أحذيتهن ذات الكعب العالي انتعلت حذاء واطئاً بمقدمة طويلة وكأنه حذاء علاء الدين. ضمّت شعرها بشريطة إلى الخلف وتركته مرخياً، وكأنه سيقع من ضمته في أية لحظة.

ـ ليتون هاوس، من فضلك، هولند بارك.

ـ ماذا؟

ـ ليتون هاوس، متحف اللورد ليتون في هولند بارك.

ـ آه.

ما إن توقف التاكسي أمام المتحف حتى تراخى انقباض صدر ليس وهي تشتم رائحة منعشة، شذية، وترى الأشجار العالية. وحين تبينت تسريحة شعر بلقيس التي وقفت تنظر في ساعتها ثم تصلح من شعرها وياقة معطفها، عاودها الانقباض. تسحبها التسريحة إلى الماضي، تعيدها إلى الدمغة الواحدة، إلى شنطة شانيل. ازرار شانيل. حتى إذا ما حطت العين على حرفي السين الشبيهة بكماشة لسحب

الجنين من بطن أمه، أعطت إشارة بأن من تحملها تستحق أن تكون ضمن الحلقة ـ حلقة الانتساب إلى جمعيات خيرية، حيث تتنافس النساء على الملابس، وعلى المركز الاجتماعي، وأخذِ الدروس لدى سوثبيز وكريستيز: دروس في ترتيب موائد الطعام، وتاريخ طقس الشاي الانكليزي، علم الجيولوجيا الخاص بالأحجار الكريمة، تاريخ الشوكولا، البريديج، تنسيق الازهار. حتى إذا تواعدن في المطاعم بعد هذه الدروس شعرن بأنهن يستحققن هذه الجلسة في المطعم. كأن هذه الدروس جعلتهن يخترقن الجدار الانكليزي، تزيدهن ثقة بأن تجربتهن في هذه البلاد لم تذهب سدى. من يستطيع أن يقول إنهن فارغات؟

وكانت بلقيس كالأخريات، دجاجة تنقر الأرض وهو تولول: «حرام أن تطلِّقي، حرام».

ـ أعاني من الغثيان وخفقان الروح. أنا لست سعيدة.

ـ ربّما تعانين التهاباً في أذنك الداخلية؟ لربما لديك الدودة الوحيدة؟ لربما أكثرت من أكل الشوكولا والصعتر..

وكانت نصيحتها إلى ليس أن تجرب الفنغ شوي حتى تدخل السلام إلى نفسها. وفعلاً بدّلت ليس سريرها الحديدي والمرآة المغبشة، ووضعتْ قرب سريرها الورود، غيرَ مبالية بحشرجة حلقها من قوة أريجها، ولا إيقاظ زوجها لها يسألها عن حبة أسبرو..

تتراجع ليس. عليها أن تهرب، لا تستطيع مواجهة بلقيس. تبتعد عن المدخل وتتلطّى بمحاذاة الجدران، تنظر في السيارات. تبتهل لرؤية تاكسي مضيء.

«كيف يهون على بلقيس انتظاري ٤٥ دقيقة. إنها غاية في الوفاء. كريمة. هذا كل ما في الأمر. وأنا عليَّ أن أخجل من تصرّفي، عليّ أن أتقدم وأعانقها. لكن ها أنا أهرب. أنا خائفة من أني إذا نظرتُ إلى بلقيس رأيت زوجها يختبئ خلف تسريحة شعرها يؤنبها لأنها ما زالت تتحدّث معي».

كانت معظم النساء يتحوّلن إلى أزواجهن في مناسبات كثيرة، خاصة في الحفلات الخيرية، لا بأسمائهن فقط بل بأشكالهن، لتجد ليس أنها محاطة بمتعهد المقاولات بدلاً من زوجته الهادئة. تختفي نرمين وعقدها المرصع بالحجارة الثمينة، ويظهر زوجها الدبلوماسي وهو يسوّي من ربطة عنقه بعصبية.

حتى ليس نفسها كانت تتحوّل إلى ثرية، تمسك بسيكار ثخين في يد وتفرك حبات مسبحتها في اليد الأخرى وهي تردد: «لقد جربت كل شيء.. وجمعت ثروة وها أنا في الخمسين من عمري.. لم يعد هناك شيء أفعله سوى امتهاني السياسة». تمر تاكسي مضيئة، تفكر ليس في الإسراع إليها، لكن بلقيس هي التي ركضتْ إليها. لا بدّ أنها رأتها من الداخل. تتجه ليس إلى المبنى وكأنها جاءت للتو. تنظر في ساعتها وهي تنتظر صوت بلقيس ينادي: «ليس، ليس». لا تعرف كيف دفعتْ ثمن التذكرة ولا كيف أسرعتْ. تقف مع المجموعة التي كانت من خمسة أشخاص، يحتسي أفرادها الشمبانيا، فيما رفضت هي أن تتناول كأساً، أمام دهشة الآخرين، إذ كانت هذه الكأس هي سبب ارتفاع ثمن تذكرة الدخول.

تقاد هي والمجموعة في الظلام إلى الباب المفتوح. تصدر عنه أصوات إنكليزية، تتخلّلها قرقعةُ الأواني والأشواك والملاعق وكذلك رنين زجاج الكريستال. ثم يتناهى إلى المجموعة صوت:

«بالطبع يا صاحب السمو. هل تود المزيد من الكونياك؟»

ثم صوت آخر: «هل ستلعب برامز؟». تشير الدليلة الرشيقة إلى المجموعة للحاق بها إلى غرفة الطعام، حيث يقف الساقي يعاين المائدة وعليها بقايا الخبز، زهور السوسن والشموع، والعنب في الأطباق والجبنة قبل أن يبدأ يجمع الحلوى، ويمسك صحناً لم تلمسه يد. الأصوات تأتي من جديد. «الصوص» «المرق»، عظيم يستحق التهنئة. «شكراً يا سمو الأمير». شاب يدخل، يبدو عليه أنه فنان ويتحدث مع الساقي الذي ما زال يحمل صحناً من الحلوى. لا تفهم ليس ماذا يدور بينهما، لكنها أخيراً تستوعب أن الشاب هو فنان ناشئ يريد أن يرى اللورد ليتون كي يعتذر منه ويتراجع عما قاله بأنه لا يتعدَّى كونه رجلاً ارستقراطياً، وها هو يحاول أن يقنع الساقي أن يُعدّ له موعداً. تتشبّث ليس بوجه الشاب المثل الذي نفر شريان صدغه. رجل كهذا تتخيل ليس نفسها تسترق النظر إليه من مكانها على رأس الطاولة حيث تجلس، بينما هو يقف يريها لوحاته الموضوعة تحت إبطه. تستمع إليه وهو على الطرف الآخر، ثم تنهض، ذيلُ فستانها الطويل خلفها كذيل الطاووس. تُبعد كل الفضة من سكاكين وملاعق، تُبعد الكريستال، تبعد آنية الزهور، تبعد لوحاته، إناءَ الخمر، نصفَ الكأس، تقترب من حافة الطاولة ترسو هناك، وهي تهبه فمها.

تزوغ في ألوان الجدران الأرجوانية وبين السجاد العجمي حين سمعته يقول: «لوتس في هولندا بارك». تنظر الدليلة في عينيْ لميس تطلب منها أن تحث الخطى، إلى حيث الممثل الذي كان يقف بالعباءة البيضاء. تستقبلها الكلمات قبل أن يستدير الممثل يواجههم ويبعثر كلمات عربية، فهمتْ منها: «سلام أيها الحاج عبدالله وسبحان الله» وهو يفتح لهم الباب على مصراعيه. تدخل المجموعة إلى دنيا ألف ليلة وليلة. تدخل لميس إلى شفير هاوية!

اللون الفيروزي في القبب والجوامع، البلاط الفخاري يحمل العصافير فوق أغصان الشجر وحول نافورة بركة ماء، حولها الموزاييك الأبيض والرمادي والأسود، أعمدة فيكتورية ترفع الآيات القرآنية العربية باللون الأزرق.

تمر عيناها سريعاً على ما أدهش المجموعة، إذ تَعْرف جيداً ما يكمن خلف جدران الأضرحة وخلف المشربيات الخشبية: نساء يتوسّلن من أجل أن يرزقن طفلاً، من أجل أن يعود إليهن أزواجهن، من أجل أن يشفين من مرض ما. وجوه نساء يَطمس تكاوينَها خشبُ المشربيات المكعبة والمستديرة. لن تدع كل هذا يتسلّل إلى عينيها ويستميلها. ومع ذلك دخل قلبَها صوتُ المؤذن المتصاعد لأنه كان يخفي والدها في السرداب. تصلها رائحة البخور فجأة، ويستدرج الشذا عينيها. يدخل في غبار السجاد العجمي الراكد، وشقوق الأرض الخشبية. يطغى على رائحة الاوركيدة المنتشرة هنا وهناك بألوان حبيبات حلوى «السمارتيز». تسمع واحداً من المجموعة الواقفة التي تحضر المسرحية يهمس لمن معه:

ـ كأني في كنيسة.

ـ إنه البخور، اللّبان.

ـ اللبان يأتي من البلاد العربية.

ـ طبعاً، الملوك الثلاثة.

تنتقل المجموعة إلى استديو لورد ليتون. لم يكن هذا سوى بؤرة من الأفكار والألوان وتنفُّسِ مسام الجسم والأحلام والبلاد البعيدة، وكلّ ما تحمله تلافيفُ دماغِ مَنْ جلس وارتمى وبكى وضحك. ولا بد أنها كلها لا تزال تهيمن على هذه المساحة المأخوذة من الفضاء، والتي عشّشتْ في الزوايا العالية، التي لا يستطيع أحدٌ أن يطولها (أستطيع أن أكون بدلاً من هذه الممثلة وكأنها لا تعرف التمدد فوق هذا الكرسي العربي، ولا أن تطلّ من هذه المشربية). أطر الصور العربية حفرت في الذاكرة العربية، لا ذاكرة الانكليز، تعرف ليس ماذا تود أن تقول هذه القطع الصامتة، تعرف تاريخها، تعرف ما رأت. لو تتمدُّد هنا. بينما لورد ليتون يخلط ألوانه. السكون يلف هذا البيت، ويسمع حفيف الأشجار. تفتح شنطة يدها، تبحث عن قطعة لبان. كلما مضغتْ، تمنّت أن يحدث لها شيء لا تعرفه.

عليَّ أن أكون ضمن مجموعة كهذه الليلة، ذات مصير واحد. ربما هذا ما عليَّ أن افعله كل مساء، من بيت لورد ليتون، إلى بيوت أخرى، أعيش حياة الآخرين ولو لوقت قليل. لماذا على كل منا أن يؤسس حياة له؟ ربما العين التي رأت الكون، استنفدت كل شريان وأرادت النوم.

كلما تنفّس شخصٌ من المجموعة فحّت رائحة الشمبانيا والنبيذ. تتنبه ليس فجأة إلى أنها في ظلام دامس، تنيره الشموع المنتشرة في الأرجاء والسلالم والعتبات وفي انفراد هذا البيت.

هناك من يلامس كتفها، ترى التماع عدسة نظارة، أسناناً بيضاء. تسمع أنفاساً، تبني ليس شكلاً من هذه القامة. وإذا بصوت امرأة: آسفة.

ابتعدت حرارة الأنس وعادت ليس وحيدة في فراغ الغرفة. لا بد أن واحداً من هؤلاء يشعر كما تشعر هي الآن، ولا يقترب.

تجرّ المجموعة نفسها وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسي خلف وقع الأقدام، تارة فوق الخشب وتارة فوق السجاد، ولم تتعدّ نظرات الآخرين إلقاء التحية عندما واجه بعضهم بعضاً في النور الضئيل، ثم في الغرفة التي سعل فيها اللورد ليتون طويلاً حتى فارق الحياة.

كانت غرفة نومه تشبه غرف النساك. السرير يلتصق بالحائط العاري، كأنه أراد أن يبتعد عن كل ما في الخارج من جمال وإغراءات ويدخل من ذاته إلى ذاته. تخرج ليس خفيفة. زال عنها تماماً تأنيبُ ضميرها إزاء بلقيس. لن تعود إلى حياتها الأولى ولو للحظة واحدة. تفرح لأنها مطلقة. تدخل المكتبة. لو أن بلقيس فعلاً يهمها هذا المعرض لكانت دخلت وحيدة. من المؤكد أنها أرادت استقصاء ما حدث لليس في دُبي، وفي المقابل تنقل من اخبار وكلام جماتها وما يقال عنها، وطبعاً حتى تخبر الأخريات أنها زارت المعرض: «يي يي يهبّل يجنن»، ولو من أجل استثارتهن وتحريك شعور الغيرة لديهن.

كانت لميس، وهي في صدد اختيار كتاب عن اللورد ليتون، تجد نفسها تضع الكتاب الذي كان في يدها، وتسرع لتشتري تذكرة دخول أخرى.

فلقد رأت نيقولاس، الرجل الانكليزي الذي عثر لها على جواز سفرها والذي أصر على مساعدتها في حمل حقيبتها حتى المصعد.

كان يتحدَّث إلى امرأة في الأربعين.. وجدت لميس نفسها تتقدم منهما:

ـ نيقولاس، هل تتذكرني، لقد...

ـ أوه، لميس.. رائع.. كيف حالك؟ آسف.

ـ باملا ـ لميس، (قام بالتعريف، ثم أكمل)، لقد انتظرناك ذلك المساء..

ـ تشرّفتُ بمعرفتك، باملا.. هل ستحضرين حياة لورد ليتون؟

ـ ليس أنا (أجابت باملا بسرعة).

ـ باملا هي إحدى المنظمات (علّق نيقولاس).. طبعاً أريد أن أدخل القرن التاسع عشر لعشرين دقيقة.. فكرة جيدة..

ـ دعوني آتي لكما بالتذاكر (قالت باملا).

ـ لديَّ تذكرة.

ـ إذن سآتي بأخرى إلى نيقولاس، أوه.. لقد تذكرت، علينا أن ندفع لك ثمن البخور، أليس كذلك؟. هذه المرة والمرة السابقة أيضاً.

ـ كان توقفي في دُبي في طريقي من الهند من حظك.. لقد نسيت البخور.. عندما سافرت إلى الهند.

هذه المرة لم تشأ ميس أن تُسلِّط عليها العتمة بلونها الأسود، حفظت الجدران والعتبات والأبواب كأنها أعمى عرف بالتكرار والمران أنه لن يسقط في الحفرة. وكما يهتدي الاعمى إلى ما يتوق، تصنّعت الاهتمام والانشغال بما تراه للمرة الثانية.

فقط عندما فحَّت رائحة البخور وتعالى الأذان أفلحت الأجواء بأخذها إليها من جديد.

ـ كمن في الكنيسة (تردّد ما قالته المرأة الانكليزية).

ـ البخور يفتح لي أنفي، (همس لها).

ـ أنا أرتعش، أريد الاعتراف.

ـ الاعتراف؟

أمسك بخصلة من شعرها ثم أمسك بيدها يشدُّ عليها، صدر عنه صوت كأنه يعاني الآلام، أو يستذوق شيئاً. لم تفهم معنى هذا الصوت، إلاّ عندما لمس بأصبعه وجهها، ومرّ عليه كأنه يرسم شيئاً. عندما كرّر ذلك وجدْت أنها تلمس بإصبعها إصبعه. وهنا لامس شفتيها بكل رقة، فاستطعمْت رائحة الأوركيدة والسوسن الأبيض التي عبقتْ في المكان. شعرت بقلبها يرفُّ ثم يخفق خجلاً، ونيقولاس يعود إلى ملامسة شفتيها، وكأنهما وحيدان. كانا وحيدين، فالمجموعة انتقلت إلى الغرفة المجاورة. فمه كالنحل الذي اكتشف أين يكمن الرحيق. جرها من جديد للحاق بالمجموعة وكأن شيئاً لم يحدث. لذلك لم تتصوَّر أنه سيعاود الرجوع إلى شفتيها وكأنه عاد يلتقط شيئاً كان خلفه. «الأشياء الغريبة تحدث بعد حمام باداداس».

Strange things happen after Badadas والأمر كذلك بعد الطلاق، أيضاً. ولذلك تلقَّت أول قبلة في حياتها.

عندما غادر المتحف، سارا في شارع هولند بارك.. بين المنازل المعتمة والمضيئة. لم تستطع ليس أن تركز على الحديث. قُبْلتُهما ما تزال تتنفّس في داخلها، لم تعرف في أي طريق كان نيقولاس يقودها. لكنها سارت إلى أن وجدت أنهما عادا إلى المتحف حيث سيارة نيقولاس. تمنّت ألاّ يسألها أين ركنتْ سيارتها. تشعر بالخجل لأنها تجهل قيادة السيارات. تمنّت أيضاً ألاّ يسألها ماذا تعمل.

لكنه تردّد قبل أن يسألها: «هل أنت عائدة إلى البيت؟ هل باستطاعتي توصيلك؟»

ـ شكراً.

لماذا أيقن أنها تريد تركه؟ كان يبدو عليها الانطواء وهما يسيران معاً. ربما ظنَّ أنها ندمت على قبلتهما..

حين كان نيقولاس يقود السيارة، راقبت ليس نفسها باستغراب متساءلةً: كيف في لحظات معدودة انزاح عنها ضياعها ووحدتها؟

يبدو كل شيء بعيداً وغير مهم. الطلاق، الصناديق المكوّمة في الشقة، اللهجة الانكليزية، الشقة المهجورة، البحث عن عمل. كأن كل ما أرادته هو رجل، يقبّلها كما قبّلها نيقولاس في ليل لندن.

ـ ٢ ـ

ـ تعالي ناخذ الباص يا أميرة.. الدنيا برد خالص.. حتى المكياج بيبرد وبيبوّظ.. على كل حال محطة الأوتوبيس بعيدة عن الدورشتسر، وما حدش حيشوفنا نازلين منه.. بس تعالي..

ـ لازم نسيتِ الشجرة الحارسة الدورشستر؟ عيونها عشرة عشرة.. أنوارها اللي تشبه مناخير رودولف ذي ريندير، الواد الغزال بتاع كريسمس.

يقلهما التاكسي حتى باب فندق الدورشتسر الفخم. تدفع أميرة للبوّاب الذي فتح لهما الباب خمسة جنيهات، تتحدّثان معاً وهما تتخطّيان عتبة الفندق، تتصنّعان الثقة التي كانت تفارقهما في الأماكن الفخمة. وما إن أجلسهما الساقي بكل أدب حول طاولة جميلة، حتى تنفستا الصعداء وأيقنتا أنّ الجو الأوروبي في الصالة ـ جمال ونغمات البيانو، والأنوار شبه الخافته، وشذا عطر باقة الورود والزهور الضخمة التي تصدّرت القاعة ـ سيخلق لهما أكثر من زبونين وبلمحة بصر.

موكب يمر أمامهما، مرافقات يلحقن بامرأة. خطواتهن تغوص في السجاد الوثير ولا يُسمع وقعُها حتى وهنّ يسرن فوق البلاط الذي

كان يلتمع كالمرايا. العباءات السوداء والملابس الطويلة طغت على بياض شراشف الطاولات المنشّاة وكأنها صفحات من جليد.

الوشوشات «پرنسيس س س س پرنسيس»، طغت على نوطات البيانو الصادحة في أرجاء الجدران العالية، لتخترق أذن رئيس السقاة وتبثّ فيه الحيوية والشعور بأهمية وظيفته، فيندفع إلى خدمة هذه الأميرة العربية.

تجلس الأميرة مع مرافقاتها الثلاث، بعد أن غادرهما الرجلان الانكليزي والعربي، اللذان كانا في آخر المركب، بعد أن تحدث الانكليزي مع رئيس السقاة والعربي مع إحدى المرافقات.

ـ لازم هي أميرة مهمة.. عقبالك يا أميرة.

ـ هل لاحظتِ كفها؟ يبدو أنها تعاني مرضاً جلدياً.. كأنها لابسة قفازاً مرقّطاً.

تتبادل أميرة وناهد هاتين الجملتين وهما تحدّقان في طاولة الأميرة وكأنهما تمثالان.

لم تفارق الأنظار، العربيةُ والأجنبية، طاولةَ الأميرة. أخذ لاعب البيانو يظهر مهارته. حتى الشاي الساخن انهمر من الإبريق بسرعة، والفنجان استقرّ سعيداً في يد الأميرة.

ـ كنت أفرح وأنا صغيرة كلما طلبتْ مني المعلمة أن أعيد كوب مائها إلى دُرْجها في غرفة المعلمات، حتى أضع شفتيَّ تماماً فوق آثار أحمر شفاهها.

لكن أميرة لم تسمع ما قالته ناهد. كانت ما تزال تراقب طاولة الأميرة. امرأة جميلة تدخل البهو، يقودها رئيس السقاة إلى طاولة الأميرة وكأنه رئيس تشريفات. انحنت المرأة تقبّل الأميرة التي أصرّت على الوقوف، وأجلستها إلى جانبها بعد أن أعطتها إحدى المرافقات مكانها. سرعان ما اختفى جمال السيدة، ولونُ معطفها، وثراءُ مجوهراتها، وشنطةُ يدها الثمينة في ظل الأميرة، التي كانت كالعلامة المميزة، كالشعلة رغم ملابسها الرصينة، ورغم وجهها الذي تركته من غير مساحيق إلا من أحمر شفاه باهت. فقط شعرها الداكن الكثيف الذي يلتمع كان أجمل ما بها، وكذلك ساعة يدها الثمينة. تتأمل أميرة في رقبة الأميرة الثخينة وزنديها اللذيْن بدا اكتنازهما رغم قماش الجوخ الناعم..

- قولي يا ناهد.. وحياة أمك، أنا سمينة زيّها؟

- أعوذ بالله! أنت مليانه، وهي تخينة.. بصي سيقانها تخينة إزّاي.

- كفاية كذب يا ناهد، الأميرة لابسة تنورة طويلة!

- وماله.. المهم مفصل القدم.. والنبي تبصّي هو عامل زيّ مدقة الثوم.

- أوكي أوكي..

تفكّر أميرة: «ماذا يؤخر ويقدم إذا كانت قدما الأميرة مثل مدقة الثوم بينما ساقاي في منتهى الجمال كما يؤكد لي كلُّ مَنْ يراهما؟ وهي قلما رأتهما تستويان على الأرض بكل ثقة كلما دخلت الفنادق،

أو تلتفّ إحداهما فوق الأخرى بكل طمأنينة. بالعكس... كانتا تستعدان للطرد في أية لحظة.. لم يضمنا لها الزبائن دائماً.

تجلس الأميرة حول طاولتها كأنها يوغي، مُرشِدة. لا بد أن السبب يعود إلى صيحتها الأولى في القصر على مسمع مِن كل مَنْ كان ينتظر ولادتها. بينما صيحة أميرة الأولى تعالت بين التحسّرات وخيبات الأمل. أمها كانت تودُّ لو تعيدها إلى الرحم، فلربما سمع الله ابتهالاتها وحوّلها إلى ذكر.

تتخيّل أميرة الأميرةَ وهي تلعب في جنائن القصر، فيما هي تتكوّم حول المذياع مع أشقائها وشقيقاتها في المغرب يستمعون إلى المسلسل الإذاعي المصري، وأخوها الكبير يشتم رائحة كريهة ويأخذ في البحث عن مصدرها من غير فائدة، وما إن يقترب من أميرة حتى يزيد من تجهّم وجهه إلى أن يحزر أن الرائحة تنبعث من سروالها. كانت تعرف أنها تأخرت في الدخول إلى الحمام وهي تنتظر خارجه. وحاولتْ أن تجد سروالاً آخر ولو لأمها، ولكنْ دون جدوى، في الوقت الذي كانت تجد نفسها منه ترتعش من الحمى وحيدة مع القطة التي دأبت على ملازمتها بينما الكل منصرف عنها. معلمتها أيضاً كانت تعطف عليها وتوصيها أن تفرك أسنانها بالملح والماء بعد أن يئست من إرسال المراسيل إلى أهل أميرة تحثّهم على شراء فرشاة الأسنان ومعجونها.

وجدت أميرة نفسها تسرق النقود من جيب والدها وأخيها الكبير، تسرق علب الفوط الصحية النسائية من الدكاكين بدلاً من

قطع القماش التي لم تكن تمتص الدماء بل تتركها تسيل على فخذيها وتلطّخ لها ملابسها. تسرق دبابيس الشعر والصابون من منازل الجيران كي تحافظ على نظافتها، إلى أن تلتقي بابن الحلال، برجل الأحلام. والتقت بشاب هادئ أحبّته رغم أسنانه المتآكلة، لكنه وعدها أن يدخل الجامعة ثم يتخصص ليصبح مهندساً حتى يبدّل كل أسنانه. وهكذا اتفقا على الحب والحياة والزواج، لكن أمها نكثت بوعدها لعائلته بأنها ستقدّم لابنتها أثاث غرفة نوم قبل موعد زواجهما بأشهر، إذ عَدَلَتْ عن بيع أساورها الذهبية. حتى عندما هددتها أميرة بالانتحار وهامت راكضة إلى الصخور والبحر لم تلحق بها، بل صاحت تتوعدها ، ورمتها بالماء الذي كانت تمسح به الأرض. استنجدتْ أميرة بزوج خالتها لأنه أصبح في رأيها متعلماً، يعيش في انكلترا ويعمل في مطبخ أحد الفنادق. بكت وقالت له إنها تريد أن تنتحر. لم يسألها لماذا بل صاح بها: «هل غرق أحدٌ من أولادي في البحر؟»

ـ الأميرة تشبه المغربيات أم أنا غلطانة؟

ـ تشبه المصريات برضُه.. كلّنا يشبه بعضنا بعضاً، مش كلنا عرب؟

ـ يا ريت.. يا ريت!.

تركت أميرة ناهد تستولي على الزبون الأول.. لم تشأ الاصطياد هذه الليلة ولم تشأ مغادرة الفندق إلا عندما وقفت الأميرة ووقف كل من حولها. سار الموكب وخلفه أميرة، لتلاحظ أن إحدى المرافقات

تفرّق من رزمة أمسكتْها في يدها ورقة ـ ورقتين ثلاث أوراق من فئة الخمسين جنيهاً إلى لاعب البيانو وإلى السقاة، ثم تعطي ستاً إلى رئيسهم.

وقفت أميرة فوق درجة الدورشستر تتأمل سيارة الرولز رويس التي أقلّت الأميرة ومرافقاتها. فكّرت والرؤوس قريبة من بعضها أن الأميرة لن تكون يوماً وحيدة. ستكون دائماً محاطة بالناس. ثم وجدت نفسها تمنح البواب الذي فتح لها الباب عشرة جنيهات وهي تُقْسِم، بينها وبين نفسها، أن تمنحه ورقة الخمسين. أو ربما ورقتين. لن ترضى بعد هذا اليوم أن تمد يدها إلا لعشرة آلاف جنيه وما فوق.

دخلت التاكسي بكل هدوء واتزان على غير عادتها، وكأنها كليوباطرا مرفوعة على أكتاف أبناء الرعية. وعلى غير عادتها وجدت نفسها تدلي للسائق بعنوان شقتها بكل هدوء، وأحلامٌ كثيرة أخذتْ تبهر عينيها وتجعلها تبتسم بثقة. لكن ما إن مرَّ التاكسي من أمام صالون وسيم حتى نسيت اتزانها وصاحت بالسائق أن يتوقف وهي تخبط على الزجاج الذي كان يفصلهما.

كان وسيم في غرفة المحجبات، الغرفة الخفية المخصّصة في الحقيقة للّواتي يدخنّ ، وللمحرومات اللواتي كن يستأنسن بيد وسيم لا بمشطه. كانت وردة الجزائرية تغني، وأطباق الأكل اللبناني تكوّمت على صينية ووُضعتْ في زاوية.

تنتظر أميرة ريثما ينتهي وسيم من تسريح شعر امرأة خمسينية، تاركاً أصابعه تداعب خصلاته، ثم يلمس الوجنة وهو يسدل الشعر عليها، والزبونة تكتم فرحها وتظهر العكس، تعاتبه، تطلب منه التوقف

وهي تريد المزيد. «لو أنتحل شخصيةَ حلاق رجل»، تفكر أميرة، «لكنتُ لاعبتُ هؤلاء النساء كاللبان على الأصابع، أغازلهنّ بجرأةٍ أكبر، فيدفعن لي بقشيشاً أكثر، فهنّ محرومات صائمات يفطرن على قشرة بصلة».

ـ وسيم، أريد أن أصبغ شعري باللون الأسود، وأملّسه حتى يصبح كالحرير . أريد أن أقصّه حتى رقبتي.. لا تنفيش ولا سپْراي.. أريده أن يلمع كالباذنجانة..

ـ لا أعتقد أنها فكرة جيّدة. صدقيني مدام أميرة، كلما تقدمت المرأة في السن كان عليها أن تصبغ شعرها فاتحاً.. لو أنك أقل سمرة لكنتُ أنا البادئ في إقناعك بأن تصبغيه بلون أسود مائل إلى الازرقاق أو بلون التيوليب الأسود.

ـ لقد قرّرتُ، وسيم، هل نبدأ الآن؟

ـ غداً.. في الوقت الذي تريدينه.. هل تودّين رؤية الباروكات التي طلبتها بهيّة؟

ـ طبعاً..

أومأ وسيم إلى شاب صغير في المرآة، فاتّجه وفتح دُرْجاً وأخرج منه كيساً فيه عدة باروكات. تختار أميرة باروكة شقراء وهي تقول لوسيم:

ـ سآخذها معي، أجربها في البيت وأعيدها في الغد..

تسير في شارع أبر باركلي ستريت متجهة إلى ادجور رود، وإذا بها تمرّ من خلف فندق كامبرلند.

تتذكر فجأةً الرجلَ الخليجي الذي التقت به في الطائرة. لقد باتت تنسى أيضاً، كأن زيادة وزنها ليس كافياً لقهرها.

كيف نَسيتْ أن تخبر ناهد عن الرجل الخليجي بدلاً من مشقة الاصطياد؟ لكنْ تعود فتذكّر نفسها بأن شاي بعد الظهر في فندق الدورشستر كان كالنبوءة. تهرع إلى الفندق لتتوقف عند السوبرماركت المواجه له، تشتري ثلاث باقات من الورود.

تدق باب غرفة ٦٠٩ مرة وثانية قبل أن تسمع صوتاً يسأل «مين، مين»؟

ـ إفتح. مين؟ الله يفتح قبرك، (ثم بصوت مرتفع): أميرة التي تعرّفت إليك على الطائرة.

ـ أميرة؟

يفتح لها وهو يرتدي بيجامته وينتعل خفاً «أهلاً وسهلاً ومرحباً وأهلاً، تفضلي». تمد له بباقات الورود الذابلة يدنيها من أنفه يشتمها، «اللهم صلِّ على النبي وروح النبي». ولم يكن لها رائحة.

يحار ماذا يفعل بها، ثم يضعها على الطاولة فوق كتاب سياحي عن لندن.

ـ أودُّ دعوتك إلى العشاء للترحيب بك في لندن.

ـ الوقت متأخر، تعشيت. آه، أنتِ الحرمة اللي كانت تصيح... لازم دائماً الاتكال على سبحانه، الأعمار بيد اللّه...

ـ هل تريد أن أفسّحك حتى ترفّه عن بالك ولا تفكر في عملية عينيك؟ هل نذهب إلى كباريه رقص وغناء، أو نتمشّى في الأجور رود؟

ـ لا أقدر. مِسْتنّي، قال ابن أخوي إن المستشفى سأل عني.

ـ حجزت في مطعم، كنت أريد دعوتك.

ـ اطلب لك عشاء هنا؟

لم تدعه يطلب لها العشاء بل جلست إلى جانبه والتلفزيون يعمل.

ـ هل تُجري العملية في الغد؟

ـ إن شاء الله.. عملية بسيطة بالليزر. القطرة نغّصتْ عيشتي، أي والله خاصة في الليل عيوني تتعب.

ـ سيمتحنون عينيك في الغد وعليك أن تنجح في الامتحان، وإلا أجّلوا العملية.

ـ ويش عرّفك؟ عملتِ الليزر؟

ـ ما هذا؟ (وتشير إلى عينيها).

ـ العيون.

ـ وهذا؟

ـ الأنف.

ـ وهذا؟

ـ الفم.

ـ وهذا (تشير إلى صدرها وتتمدد على السرير).

يضحك ويضحك.

ـ وهذا؟ (تشير إلى أسفلها).

ـ أعرف والله أن دمك خفيف، قلت لابن أخوي لما سولفتِ معنا في مطار دُبي إني محتار : الأخت هي متزوجة تحب المزاح، أو قحبة؟ (ثم يتمدّد فوقها)..

تنهض تودعه. يسألها أن تبقى نصف ساعة ريثما يحين وقت قطرته. تمر ربع ساعة وتقول له: «يلّلا»، ثم قطرتْ في عينيه وودعته بعدما أعطاها أكثر مما كانت تطمح إليه.

سارت في الأدجور رود. رأت بائعات الهوى الأوروبيات والشرقيات زرافاتٍ ووحداناً. مرت بمقهى مُون لايت، رائحة النارجيلة تعبق في الشارع، تكدّس المقهى بالعرب ونراجيلهم. وبسرعة فهمت وهي ترى الكثيرات مثلها يجلسن يحاولن الاصطياد، بينما لا يجرؤ الرجال على مجرد إلقاء نظرة واحدة تجاههنّ، إذا كان يجلس إلى جانب كل رجل صهره، أو والد زوجته أو العكس. عرَّجتْ على عصير رنوش، تناولتْ ساندويتش شاورما، لاحظتْ أنه لم يبق خاصاً بالزبائن العرب، بل يكتظ بالانكليز أيضاً، خاصة من الشباب الذين يعملون في الأزياء والإعلام. تدخل الحمام، وهي مقرفصة تُخرج من شنطة يدها الباروكةَ الشقراءَ وتضعها على رأسها، ثم تسحب إيشارباً من حرير، وتضعه فوق تايورها. أصلحت الباروكة أمام المرآة، ثم دخلت فندق «الكامبرلند» من جديد. وقفتْ عند باب غرفة ٦٠٩. خبطت الباب. لم تسمع جواباً. «لازم لم يبق لك حيل، لازم أميرة سحبتْ كل حيلك».

ـ مين مين؟

ـ أنا نوال قريبة أميرة.

ـ أميرة، نسيت شيئاً؟

ـ لا، نوال قريبة أميرة..

انتظرت ما يقارب الخمس دقائق. أوشكت أن تخبط مرة أخرى، لكنه فتح لها الباب.

ـ أهلاً وسهلاً. كنت والله نايم.

ـ صح النوم..

ـ هو الآن الصباح؟ أهلاً وسهلاً.. تفضلي.

تدخل وتجلس بكل خجل وتردُّد، وعيناها في الأرض ويداها تفركان بعضهما بعضاً.

ـ أميرة اتصلت وقالت لي أن أزورك وأسلِّم عليك، شكراً كثيراً، (حانت منها نظرة إلى خفّه الانيق).

ـ ويش قالت بالصراحة؟

ـ إنك غاية الأناقة وإنك شهم. تصوُّر، أيقظتني من النوم. قالت لي إنك ستجري عملية لعينيك، وربما تنتقل إلى بيتك وبعدها لن يتسنّى لي رؤيتك، لأنك ستكون مع العائلة. وقالت لي إنك في منتهى الطيبة.

ـ لازم قالت لك أشياء ثانية.

ـ اخجل.

ـ لا تخجلي.

ـ قالت: اسم الله عليك ولا شباب ١٨ سنة.

ـ لا أشرب ولا أسكر ولا آخذ أي دواء. والضمير مرتاح والحمد لله، لكن صوتك يشبه صوتها سبحان الله.

تضع في فمه قطعة من اللبان، تتمنَّى أن تعلق بأسنانه فتشغله عن صوتها. ثم وجدتْ نفسها ترفع عنه جاكيت البيجاما، وتلامس صدره، فتصدر عنه تنهيدة. تعود لتضع يدها على خصره، وكما توقَّعت كانت السمكة ميتة. ما حصل بينهما هذا المساء كانت يقظة الحياة أو فورة الحياة، قبل إطلالة الموت. لم تحاول مرة أخرى بل انتقلت إلى صدره، وإذا به يسألها: «هي شي اسمها.... آه أميرة أختك؟».

ـ لا . ابنة عمي.

ـ ما شاء الله أنت شقراء.

ـ أمي من هولندا.

ـ ربنا سبحانه وتعالى ما راد يزعل الأم والأب خلط الاشقر والأسمر.

ـ قالت لي أميرة إنها أحبتك، معها ألف حق.

ـ هي بنت حلال والله، هي قطرت لعيوني. لو تشوفي صاحت بالطيارة صياح...

ـ هل أقطر لعيونك؟

ـ ما أدري كم الساعة الآن؟ كنت نايم، أي والله ونستونا.

ـ الساعة الثانية عشرة. (تكذب عليه بساعة). هل أقطر لك؟

ـ لازم كل ست ساعات.

ـ أستنّاك ساعتين وأقطر لك، أحسن ترتاح في السرير.

ـ وأتركك عيب!

ـ المهم راحتك.

تنهض، فينهض. لكنها تجلس فوق السرير وتمد له يدها فيأتي إلى جانبها.

ـ إذاً قالت أميرة إنها أحبّتني، وأنتِ؟

تسترخي، تغمض عينيها وتضع يده فوق صدرها، واليد الاخرى عند بطنها. ولدهشتها طلب منها أن تخلع ملابسها خافت من أن يتبين تايورها وملابسها الداخلية. أبعدت الفكرة تماماً وهي ترى عينيه عبارة عن حبتي قمح كانت تأكله بدلاً من ان تنثره للحمام في الأقفاص. يضيع الرجل في طيّات لحمها، يهمهم كأنه يقول لها من أين، من أين أبدأ، كيف أبدأ، لا أستطيع أن أبدأ وهي تحاول مساعدته، لكنه يبقى كرقبة ديك حبشي لا عضل فيها ولا لحم بل فقاعات من هواء. سمعتْ وهي تتلوّى وتتأوّه، ما يشبه الشهقات. وإذا به يضحك، يخبطها بكفه، يقلبها على ظهرها ويشد عليها بكل فرح وحنان. يقرصها في الشامة عند كتفها، يهز رأسه يميناً وشمالاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. اعترفي بالحقيقة، أنت أميرة، ليش تكذبي، اعترفي، تعذبتِ غيّرتِ ثيابك، وصبغتِ شعرك، ولفيتِ ودرتِ وبدلّتِ صوتك واسمك ما عدا شامة كتفك، اعترفي بالحقيقة، اعترفي يا

أميرة اعترفي، أني دخلت قلبك... قولي بصراحة إنك أحببتني ولم تستطيعي فراقي!»

لم تستطع النوم. حاولت مراراً الاتصال بناهد دون جدوى. أرادت أن تطلعها على الفكرة التي التحمت بها، تماماً كالبعوضة التي يجذبها النور الأزرق في دكاكين الجزارين.

كلما ظن الرجل العربي، كهذا الرجل الخليجي، أنه يود المغامرة مع أجنبية في لندن ، جذبته المرأة الشرقية إليها بعلامة الاستفهام المرسومة على جبينها، لكونها مخبأة في الصندوق، في الوشاح الأسود بين علب التمر والحنّاء. هذا ما حدسته أميرة وهي تتصفح مجلة What's on، وتقرأ الإعلانات، بأسماء غانيات خليجيات، تفوق دعايات انجي ونجوم الشام وجمال لبنان. فالصفحة تكاد تمتلئ بريم الخليج، هيفاء العرب، تمر ونخيل، وردة الخليج، أم مشاعل، الدانة الخليجية، أميرة والملائكة، بدوية في لندن.

فهمتْ أنّ هذه الاسماء لا بدّ أن تبدِّد حيرته وخوفه إزاء لندن الواسعة والأرداف الكثيرة. ستمدّه بالطمأنينة والراحة إلى أن كل ما يريده سيحدث ضمن محيطه، لغته، لا إنكليزية متعجرفة أو إنكليزية تسرقه.

عند هذا، قفزتْ أميرة إلى فكرة أخرى: عليها أن تكون جوهرة مستعصية. .. إلا لمن يعرف كلمة السر. سترسم نفسها أميرةً، وهي تستأهل أن تكون واحدة منهن. على كل حال، هي تعيش كواحدة تنام حتى الظهر، تحب الملابس ولا تحمل بيدها صحناً واحداً.

- ٣ -

الأهمية التي أخذ يغدقها على نيقولاس كلُّ مَنْ يتعامل بيعاً وشراءً بالفن الاسلامي منذ أن أصبح يعمل على مجموعة الرجل العُماني، سيف، تثير فيه الضحك والقرف في آن.

اتصل دايڤيد به هذا الصباح يسأله إذا كان يظن أن الغزال سيكون من نصيب العرب؟ وكم هو الحد الأقصى؟ لم يكن أحياناً يخفي سخطه، وهم يعتبرونه صياداً، يصطاد كل الفرص للاقتناص من العرب، مع أن سيف هو من طلب أن يعمل معه نيقولاس. حين كان نيقولاس يتوق إلى الابتعاد كلياً عن الحياة في سوذبيز التي أصبحتْ لا تطاق، وعن ليز التي تسلط حدقتيها عليه وكأنه تحفة تريد تشريحها.

ـ قصدك سيف؟ لا لن يشتريه، عدا أنه هاوي جمع الخناجر الاسلامية فقط. على كل حال، الغزال لن يكون في متناول يده.

ـ تريدني أن أصدق أن هناك أسعاراً ليست في متناول يد العرب؟ أرجوك نيقولاس أرجوك. كُفَّ عن المواربة! هل تقول لي إنهم فعلاً يعدّون ويجمعون بل يعرفون حدود ثرواتهم؟

ـ لا ، إنهم مشغولون بعدّ أصابع أياديهم وأقدامهم، باي.

عقب تخرج نيقولاس من الجامعة لم يتقدم من أية وظيفة لها علاقةٌ بمادة التاريخ الذي تخصّص بها. اعترف بالخطأ الجسيم الذي اقترفه تركه علم الفلك الذي أصبح تكملة لعينيه منذ أن قرر أنه سيجد نجمه الخاص به ويخترع صاروخاً يصل به إلى السماء. ويفكر إذا كانت نظراته وجدّته تلتقي إذا تأملت القمر في لندن اللحظة الذي تمدد على ربوة في هامشير يعاين السماء في يوم صيفيّ، معتدل الطقس.

تنقّل بين أقسام كثيرة قبل أن يرسو في القسم الهندي، حين أخذت لندن تشهد إقبالاً عظيماً من هواة جمع التحف الإسلامية من العرب، في الوقت الذي كانت الأقسام اليابانية والصينية تعاني الركود. تعرّف إلى سيف أثناء المزادات وهو يراهن على بندقية عُمانية محفورة بالعاج الملوّن. وفي اليوم التالي طلب من نيقولاس أن يصحبه إلى «سبنكس» حتى يعاين معه خنجراً يفكر في شرائه. تمنّع نيقولاس، وأصرّ سيف قائلاً: «إني أثق بك. لا أعرف لماذا! ربما شكلك وحاستي السادسة. أرجوك!

ـ أرجوك، سيد سيف. لا أستطيع. إنهم منافسون لنا..

لكنه ذهب إلى «سبنكس» وحيداً بعد أن تناولا الغداء والنبيذ الذي طلبه سيف، وكان لذيذاً جداً. نصحه نيقولاس بشرائه، إذ كان الخنجر في غاية الجمال، مطعّماً باليشم. وبدلاً من أن يشكره سيف، طَلَبَ منه أن يقسم بأعز ما لديّه، إنْ كان قد أخذ عمولة من سبنكس.

ـ لماذا تسأل وقلتَ إنك تثق بي؟

ـ لأنك أصررت على الذهاب وحدك.

كأن هذا الشك هو الذي وطّد الثقة بينهما فيما بعد. يلمح نيقولاس رسالة أبيه فيسرع إلى الاتصال بوالديه:

ـ هالو، كيف حالك؟

ـ نيقولاس، هل جئت اليوم؟!

ـ قبل يومين، ومن الهند عن طريق دُبي.

ـ الهند؟ هل كنت في إجازة؟

ـ لا، قصدت أميراً هندياً في «مدهيا پراديش» في وسط الهند يملك خنجراً في غاية الجمال. لكن اللقية الكبرى هي كرة من الذهب مطعّمة.. بالياقوت.. أعجز عن وصفها.. إنها نادرة.. من القرن السابع عشر، كان يخفيهما في تيربون راسه والحزام.

ـ عجيب، وهل اشتريتهما؟

ـ مع الأسف، لا. كما تعلم.. سيف يحب المساومة خاصةً مع الهنود. والحقيقة أنه دائماً يأتي بأفضل الأسعار.

ـ كيف هو سيف، هل أعطيته الإنجيل؟

ـ الحقيقة أني لم آخذ الإنجيل. لا أعتقد أن الأمور ستكون بهذه السهولة.

ـ ربما في مرة أخرى.. انتظر، أمك تود أن تتحدَّث إليك..

ـ نيقولاس دارلنغ. لا تأخذ الإنجيل، لا أعتقد أنها فكرة جيدة، فالموضوع حساس. لا.. لا (يسمعها تقول لوالده. ثم عادت تكمل

حديثها مع ابنها) اسمع نيقولاس: لربما ظنّ المسلمون أنك في عُمان من أجل الدين لا من أجل وظيفتك، خاصة إذا عرفوا أن والدك قس (ثم قطعت حديثها معه، «لا، لم أكمل كلامي»، يسمعها تقول هذا لوالده، غير أن والده خطف منها السماعة):

ـ آلو، نيقولاس، هل تعرف ما فعلتْ أمك؟ أنت تعرف أنها تظن أن لديها حساسية من لدغة النحل، ويبدو أن نحلة لسعتها أثناء قضائي ليلة في لندن، وهي خافت أن تموت ونطلب تشريحها، لذلك جاءت بالنحلة ووضعتها في ظرف وكتبتْ ورقة تقول فيها إنّ هذه النحلة هي المسؤولة. ثم استعدّت للموت بعدما وضعت الظرف فوق صدرها. دعني أقُلْ لك إني لم أضحك في حياتي كما ضحكت.

تأخذ أمه السماعة:

ـ هل ترى كم أفكّر بك دائماً حتى وأنا أموت؟

ـ أما زال المغلف معك؟

ـ طبعاً. برهان الجريمة، (تضحك).

ـ هيلين، اسمعي (كاد يصرِّح لها أنه وقع في الحب، لكنه بدّل رأيه وسألها) ماذا عن دروس الدفاع عن النفس؟

ـ عظيمة، هل آمل أن تأتي لزيارتنا قريباً؟

ـ قريباً جداً.

يعيد السماعة. أمه تتلقى وصديقات لها دروساً في المدافعة عن النفس، قبل أن يبدأن التظاهر ضد صيد الثعالب.

يدق الهاتف. إنه والده من جديد.

ـ نيقولاس، لقد تذكرتُ شيئاً. لا أعتقد أني أخبرتك من قبل بما جرى لهارولد، عندما كان يخدم في السودان؟ سأل مرةً كعادته السائقَ السودانيَّ الذي دأب على الإتيان بمؤونة الكنيسة الشهرية أن يرتاح من عناء الرحلة، وقدّم إليه الشاي، فلاحَظَ السائق أن السكر بقي متجمعاً في أسفل الكوب،ولما لم يجد هارولد ملعقة في متناول يده، مدّ بصليبه الكبير حول رقبته وحرك الشاي. وما إن همّ السائق بالانصراف، حتى قال له هارولد: «الآن أصبح في بطنك دير». وإذا بالرجل يتجشأ ويقول مازحاً: «وها هو أول خوري يخرج منه».

يضحك نيقولاس:

ـ هذه قصة رائعة، رائعة..

ـ ما أريد أن أقوله هو أنّ هناك استعداداً للحوار مهما كان الدين، مهما كانت الجنسية.

ـ طبعاً، طبعاً.

ـ رأيت دزموند في جنازة. وعندما أخبرتُه أنك تعمل في عُمان استغرب كثيراً، وأسمعني قائلاً إنه لم يَعْهد فيك صفةَ العجرفة حتى تقع في حب العرب وتعمل معهم. وأنا أجبته: هل تظن أنّ نيقولاس هو أ.ت. لورانس، أو بلنت، أو بيرتون؟ كل ما هناك أن الحظ ابتسم

له: معاش لا يحلم به ولو أصبح مديراً لسوذبيز، سفر درجة كلوب، بيت كبير في عُمان...

ـ لقد نسيتَ أن تقول له إني أساعده في بناء أكبر وأهم مجموعة للخناجر الإسلامية في العالم كله. على كل حال، عليَّ أن أودّعك الآن، على أمل أن نلتقي قريباً، فإما أن تركبا القطار إلى لندن أو آتي لزيارتكما.

ـ من الأفضل أن نأتي نحن إلى لندن. اسمعْ، أستطيع الآن أن أتحدث ريثما تفتح والدتك الباب. إنها مكتئبة.. والذهاب إلى لندن سيفرحها.

ـ ماذا جرى؟ هل هي متوعّكة؟

ـ لا، لم أقصد صحتها.. إنها بخير، لا تقلق.

كان يلمّ بسبب كآبتها التي كانت ترفرف عليها بين حين وآخر. فهي كانت تَعُدّ نفسَها من الطبقة المتوسطة، لكن الحقيقة أنها تعيش ووالدَه كما يعيش الفقراء: يحسبان كل بنس في كل خطوة يخطوانها.

يقرِّر نيقولاس أن يصحبهما إلى مخزن «بربريز» عند مجيئهما إلى لندن ويشتري لكل منهما معطفاً شتوياً. ويبدو أنهما وافقا أن يتكفل بدفع تذاكر الطائرة لرحلتهما إلى عُمان.. عليه دائماً أن يجد الطريقة المناسبة لمساعدتهما من غير أن يخدش كبرياءَهما.

قراره هذا مدّه بالارتياح. جاء بشنطة يده، أخرج منها صور «البولارويد» التي كان قد أخذها للخنجر وللكرة الذهبية. شعور

بالترقب والخوف سرى فيه. ترى هل كان عليه أن يدفع للأمير عربوناً، أم كان عليه الإصرار على سيف أن يدعه يتم الصفقة في حينها؟ هل يستطيع أن يثق بأن الأمير لن يتراجع عن وعده له ألا يبيعهما قبل أن يصل إليه سيف؟ لكنْ حين استعاد نيقولاس زيارته إلى الأمير عادت الثقة تطرد شعور الترقب والخوف وتمدّ نفسَها عليه حتى شعر بالاطمئنان.

الأمير الهندي وضع كرسياً عند الباب. أنزل الستائر على النوافذ الخشبية. أدار المسجّل، فانبعث صوت فرنك سيناترا يغني «نيويورك نيويورك». همس الأمير في أذن نيقولاس: «لا أثق بأحد، لا أثق حتى بزوجتي، حتى بأولادي. إني أنقل ما أورثني أياه والدي كما تَنْقل القطة أولادها من مكان إلى آخر خوفاً من الأيادي والأفواه الطماعة. ابني باع بندقية جدي مقابل عشاء وسهرة في مطاعم بومباي.

قرَّب الأمير أذنه من الباب للحظات. يفكر نيقولاس في اللّص الذي ضُبط في لندن لا بسبب بصمات يديه بل لسبب بصمات أذنيه، إذ كان يتنصت على الأبواب الموصدة قبل أن يقوم بفتحها. يرفع الأمير تيربون رأسه ويُخرج منه لفة بحجم البرتقالة، ثم يعيد التيربون إلى رأسه. يفك حزاماً من القماش الملون العريض الذي لفّه على خصره أكثر من سبع مرات. يفتح اللفة الاولى. يخفي نيقولاس شهقة، والأمير يسجي على الطاولة خنجراً ذا ورود من ياقوت براقة، تجعل عيني نيقولاس في زوغان، لكن فصوص الزمرد الأخضر تتدخل سريعاً تمنعهما من التهالك: دوائر ومربعات منحنية

من ذهب طُعِّمَتْ بها لتكون بيوتاً لهذه الورود. يخفي نيقولاس شهقة أخرى، والأمير يفتح لفة التيربون ثم يُخرج منها كرة كثمرة رمان نُزعتْ قشرتها القاسية وتركت أليافاً ذهبية لتحفظ فصوصها. كانت الحبيبات من الياقوت متساوية تساوياً عجيباً في الحجم وفي الطريقة التي اصطفت بها، وكأن أحدهم إستعان بسنتيمتر لقياس النقوش فوق أجنحة الفراشات، من أجل أن يحفظ المسافة الواحدة التي لم تكن تبعد قيد شعرة عن الأخرى، وهكذا إلى أن تكتمل الخطوط الدائرية وتصبح كرة. يسأل نيقولاس الأمير بتحفّظ: هل قطر دائرتها سبعة سم؟

- لا، خمسة سم.

- المجوهرات الملكية الفارسية تضم كرة كهذه، ولكنها أكبر حجماً.

يهز الأمير رأسه موافقاً، رغم أنه لم يكن يعرف هذا، بل أجاب بكل جدّية: «يقال إنّ جدي كان يحملها ويشد عليها لتخفف من آلام الروماتيزم لا في يديه بل في قدميه أيضاً».

يضحكان، رغم أن نيقولاس ابتلع أنفاسه من جديد. دقات على الباب وأصوات.

يجيبها الأمير، ثم يطلب من نيقولاس أن يسمح له بشنطة يده. يفتحها، يخبّئ التحف فيها ثم يلف الحزام على خصره بسرعة، يتأكد من أنّ ا لتيربون فوق رأسه، يفتح الباب، فيدلف رجل وامرأة يحملان صواني الأكل. رائحة البهارات الشهية تدخل الغرفة ذات

الاثاث الخشبي المزخرف. كانت الغرفة شديدة الحرارة رغم مروحة السقف التي كانت تدور.

عندها انفرجتْ أسارير نيقولاس، لا لأنه كان جائعاً ويحب الطعام الهندي خاصةً في المنازل، بل لأن الأجواء لن تتبدل على هذه التحف، فعُمان تشبه الهند ولو برائحة طعامها. وهي قريبة منها. من يعرف؟ ربما يستطيع الأمير الهندي استرجاع هذه التحف من سيف بعد سنوات إذا أراد. يكمش نيقولاس نفسه وهو يبرر لها بأن ما يفعله لا ينتمي إلى الذين نهبوا البلاد مما ورثته من حضارة وروح.

وعندما اتجه مع الأمير إلى المعابد في كاجوراهو بين حقول المسترده بلونها الأصفر وسنابل القمح الذهبية، ووصلا إلى معبد ناجارا حيث الآلهات اللواتي يقطرن جمالاً وشهوة، بدا أمر شراء الخنجر والكرة أقل إلحاحاً وأهمية.

- ٤ -

يصيح سمير لعلّه القرد؟ يركض سمير أو ربما القرد؟ عينا سمير تقفزان خلف التاكسي، وخلف آخر كلمات الرجل، وعينا السعدان توقفان تاكسياً، وبين الضجيج والخوف تتلعثم جمل سمير:

- «خذني خلف هذا الرجل، إنه عكروت (بالعربية) ثم Akrout (بالانكليزية)، «تركني والقرد الذي أتيت به».

عينا سائق التاكسي ترتدان عن الرجل المجنون، إلى مقود السيارة. يدور سمير حول نفسه، يخيفه هذا الشارع الذي استأنس إليه قبلاً رغم أنه كان يغص بالعرب. لا تخف يا سمير. انظر إلى المحلات العربية، إلى الجرائد العربية، إلى الشاورما العربية، إلى الإخوان العرب. اينما كان. يدخل إلى دكان يبيع الصحف والمجلات العربية، يقص على بائعها ما حدث مستهلاً بجملة: «ساعدني، الله يرضى عليك».

يترك الرجل سمير يتلو عليه قصته قبل أن يهز رأسه متأسفاً: «أفهم شوي شوي عربي، أذهب إلى Zoo».

يهرع سمير عائداً إلى الشقة، وإذا هي ولدت المئات مثلها. يقف يخاطب ربه: «يا الله يا حبيبي ما تعقّدها عليّ».

كان عليه أن يترك علامة. لكن كيف، والبنايات مثل فصوص الثوم، لا كما في لبنان، يميّزها المرء من قميص منشور، وكنار في قفص أو تنكة حبق؟ لو حفظ غيباً الطريقة التي هرَّ بها دهان مدخلها. يكبس أزرار بنايات عدة، وينادي: «ألو، ألو، ألو» وعندما دب فيه اليأس صاح: «ألو، ألو، تضرب منك إلو». تخطر له فكرة أن يتخلص من القرد. يضعه على الأرض بجهد عظيم: «يللا يا ماما، انت كلب، فاهم يللا بوبي بوبي، شمشم وين كنا نايمين؟».

يجمد القرد وهو ينظر إلى سمير لحظة ثم يقفز عليه من جديد ويحوطه بأطرافه الأربعة: سيستنجد بأميرة ولا يعرف كيف يبدأ، صندوق التلفون مخيف، هل يستطيع الخروج منه إذا دخله؟ طبعاً. يمسك التلفون بيده. يتوقف وهو يشعر بالاختناق. يجرِّب دفع الباب وعندما يفتح بسهولة يطمئن والورقة في يده وكذلك النقود المعدنية. ينشل القرد الورقة. قلْبُ سمير الذي دق بعنف تشبث يعيدها. يقبّلها من فرحه لأن القرد لم يمزّقها أو يعلكها، لكنّ قُبْلَته بللتْها. يمسح الأرقام من البلل وإذا بها تبهت وتتلاصق. يدير الأرقام وهو يمسك أحشاءه بيده، والنقود المعدنية لا تثبت بل تكرّ هابطة. يخبط التلفون «شو معك إسهال». يعيد الكرّة دون جدوى، فيدفع الباب من جديد ويخرج، ليستنجد بامرأة أخذتْ تسأله عن سن هذا السعدان ومن أين أتى به وإذا كان يُسمح به هنا كالكلاب والقطط قبل أن تشرح له طريقة استعماله. لكنه لم يُعْرِها أذناً صاغية. كان يفكر في البطاقة، التي كانت صورة لشابين غاية في الجمال طغيا على البطاقات الأخرى المعلقة في كشك الهاتف وكانت تمثل النساء

بأوضاع مغرية. يأخذ البطاقة وينظر حوله وكأنه يسرق المجوهرات. يخفيها في جيب بنطلونه. عليه أن يتخلص من السعدان الآن. يدور وكأنه مغزل في يد غزّالة.

عليه أن يذهب إلى مطعم «تبولة»، حيث الشباب اللبنانيون يفهمون عليه وهو يفهم عليهم. وحين حزر طريقه وتبيَّن المطعم من بعيد اطمأن. لندن مدينة عربية، ليست صعبة أوكبيرة كما يقال.

ـ دخيلكم.. الرجَّال هرب وتركني مع القرد. ساعدوني لأفتش عنه، هو زبونكم.

يضحك الشباب لكلام سمير ولحركة القرد التي لم تتوقف.

ينشل من أحدهم فوطة، ومن المُحاسب القلمَ المشكوكَ خلف أذنه.

ـ خذه إلى الـ Zoo واخلصْ منه (يقول له أحد الشباب).

ـ بخاف يفتحوا معي تحقيق. الله يدبر..

يخرج سمير من المطعم إلى الشارع. يأخذ الشارع المتفرّع، متجهاً إلى بنايات أكواز الثوم التي تقشر نصفها. يقف وهو يحاول أن يتعرف على النوافذ. لربما رأى ستارة تدلى نصفها، أو الثريا المنكسرة. يقترب منه ولدان وأمهما الانكليزية.

تسأله هل هذا الكبوشي له، وهل في استطاعة ولديها لمسه؟

ـ خذيه، خذيه، هو يحب الأطفال، هو لطيف جداً، أمه ماتت.. حرام!

ابتسمت المرأة. نصحته أن يأخذه إلى جنينة الحيوانات «في دورست» فهي خصيصاً لكل أنواع القرود. وأكملتْ طريقها رغم تمرّد ولديها.

يهمس سمير في أذن القرد. يرمي له بجوزتين من جيب بنطلونه، «اركض اركض»، يقفز القرد حيث الجوزتان. يسرع سمير الخطى والقرد يقفز عليه ويزيد التصاقاً به.

يدور سمير حول نفسه وكأنه درويش، فلربما أفلت القرد، وأخذ يناجي الله:

ـ «يا اللّه يا حبيبي، يا حلو، أنت خلصني من القرد وأنا بوعدك إنو ما خلّي جفني يرف على الشقر»، ثم تنبه «ولا حتى السمر. أوكي؟».

وكما يحدث في القصص وفي الأحلام، توقفتْ سيارة فارعة الطول ترجّل منها رجل عربي فتح له سائقه الانكليزي الباب. يسأل السائق سمير بعد أن حياه من أين اشترى هذا القرد وبكم؟

ـ «خذه من غير مصاري. ولو؟ نحن اخوان» (يتجاهل سمير السائق ويخاطب الرجل العربي مباشرة).

ـ «أنت من لبنان؟ يا حليلوه هالقرد جميل، ليش ما تبيعه» (يسأل الرجلُ سمير وهو يلعب بمسبحته الطويلة الثمينة).

ـ يا عمي هو بأحسن صحة. صاحبته عم تموت والرجّال هرب وأنا مسافر بكره.

ـ هل يعضّ؟

ـ لا ، لا، بس يا حبيبي مين ما بيعضّ لما يزعل. أمي، الله يرحمها، كانت تعض السمكة حتى تتأكد من أنها طازة. دخيلك خذه مبروك عليك.

يضحك الرجل ثم يناول سمير ورقتين بلون الدراق. حزر سمير أنهما مئة جنيه، يمد القرد يده محاولاً نشلها. لا يعارضه سمير. المهم أن يرضى مفارقته. «يا رب فكه عني بمفك براغي»، وإذا القرد يقفز إلى الرجل محاولاً التقاط المسبحة التي كانت تقرقع في يده. يلاعبه الرجل، ثم يخبئها في جيب بنطلونه. يحاول القرد إدخال يده في جيب الرجل، ثم بدّل رأيه ليمدها إلى شاربيه، غير مبال بسمير الذي نادى:

ـ «يا ملعون عرفت من أين تؤكل الكتف»، ثم للرجل: «هو عارف مع لبناني مثلي حيتشرد ويجوع، ومعك سيعيش في الرخاء والنعيم. طيب مع السلامة. راح يسليك ويشيل همك عن قلبك! موفق». يمد يده محاولاً أن يصافح الرجل، والقرد هو الذي يمد يده ويصافح سمير وينشل من جيب سترته المشط والمنديل الملون.

يسير سمير وهو يحضن نفسه، كأن القرد ما زال يلتف حوله. ينتفض وكأنه طير يحاول أن يجفف ريشه المبلول. عاد إليه صدره، ورقبته وخصره. لم ينم ملء عينيه حتى في الليل، فقد كانت أحلام القرد تجعله يتقلب؛ وإذا نهض سمير إلى الحمام، نهض القرد. إذاً سيسافر في الغد، سيدخر ٥٠٠ دولار فقط لزوجته وللأولاد والباقي سيصرفه هنا . هو يؤمن بأن مال البلد يجب أن يصرف فيه. هكذا كان يقول جارهم بروسبيير لونا، أيْ عبد الغني قمر الذي هاجر إلى البرازيل وأخذ يجمع كل ما يدخره في قصبة ريثما يعود إلى لبنان، وعندما قرر العودة فتح القصبة ليجد أن الفئران قرضتها دوائر دوائر، وتركتها كأقراص الجبنة السويسرية. عادت إلى سمير يده

الأخرى، عاد وجهه إليه، يقرّبه من الواجهات: الملابس جميلة، الأحذية أجمل. عليه أن يجد فندقاً رخيصاً يبقى به في هذه الليلة. يحثُّ خطاه إلى مطعم «تبولة»:

«أنا ذاهب لا لغاية في نفس يعقوب» كل ما هناك أن الاتصال بالتلفون غاية في السهولة، ولا بدّ أن الشباب يعرفون فندقاً رخيصاً، سأشتري القميص الفستقي والكرافات البنفسجية. على كل يا ربي أحب الشقر والعيون الزرق». كان يفكر في الشاب الخجول في مطعم «تبولة» الذي اكتفى بالابتسام البارحة بدلاً من أن يتجمع مع الآخرين حول سمير وسعدانه، عكف على قص البندورة وكأنها وردة، وضعها في وسط صحن الحمص، ثم أخذ يقصّ الكبيس شرائح صغيرة وكأنها أغصان الوردة، والفجل أوراقها. يزينها بكل هدوء وفن، عيناه ناعستان، وشفته السفلى متدلية تنادي.

«لا تنادني، فأنا أحب الشقر والعيون الزرق، كل ما هناك أني أمزح يا رب، لن أنسى وعدي لك».

زعق زمور سيارة وهو يعدو الشارع فارتد إلى الوراء، وإذا بسيارة الرجل العربي تتوقف والرجل يناديه منها بعدما أنزل الزجاج، (لا بد أنه يود أن يشتري عشرة منه). ينحني سمير حتى يكلمه، وإذا هناك مَنْ يتسلق ظهره، والسائق الانكليزي يعود إلى السيارة. يضم القرد سمير إليه يعصره عصراً، يريده أن يسير به.

ـ «مشكور يا أخي، أتاري قردك شيطان، خطف لي المسبحة، إنه شقي شقي. وأنا والسائق نزلنا عليه ساعة حتى قدرنا فتحنا أصابعه».

يمدُّ سمير نظارته السوداء من جيب جاكتته يعطيها للقرد حتى ينشغل بها وهو يحاول إقناع الخليجي بتبديل رأيه.

ـ جربو يوم واحد.

ـ أعوذ بالله، ضربني على خدي، آسف يا أخي مع السلامة مشكور..

تمضي السيارة فيصيح سمير:

ـ بتحط عقلك بعقله! ما هو قرد!

القرد السعيد يكشر تكشيرة السعادة، يصفّق بيديه ويكوّر شفتيه، يقبل سمير الذي شعر فجأة بالاطمئنان. ينظر إلى السعدان ويقبله: «هذا نصيبي». ثم حدس سبب شعوره بالراحة من عودة القرد، معناه أنه لن يفي بوعده.

لا بأس ستكون بدل شنطة الظهر شنطة الصدر. لن أمسك بك، أنت سوف تتمسك بي، حتى تبقى يداي حرتين طليقتين. يدخل إلى مطعم «تبولة» يطلب طعاماً تحت الهرج والمرج لدى الشباب العاملين. أتوا له بأكثر مما طلب من طعام وهو يمازحهم وهم يمازحون قرده. أحدهم يقترح عليه أن يتجه إلى التمثيل. يُسِرّ سمير من جديد في أذن أحدهم، وكان أطولهم وأضخمهم وأكثرهم دعابة، بأن يأتي بالتلفون النقال، أو يطلب له نمرة أميرة: «ألو سمير، لا.... فات عالحمام، بس، الرجّال هرب وتركه معي واختفى... حاشاك، مثل الضرطة بسوق النحاسين، بكرة راح أتركه على باب كنيسة أو على باب الـ Zoo».

مجيئه شارك في الهرج والمرج في شقة اميرة، وكأنها كانت بلا باب، بلا خصوصية. أصوات داخلة، وأصوات خارجة. وردة الجزائرية تصدح، وامرأتان تُدْعيان ناهد وبهيّة تبصّر إحداهما في الفنجان والأخرى تستمع إليها. رائحة القهوة التركية تتصاعد وأميرة تجلس وحولها تلفونها النقال والهاتف العادي، تطير كالفراشة من سماعة إلى أخرى.

تسأله هل يريد شاياً أم قهوة أم عصير برتقال؟ يقول لها إن عليه أن يطعم القرد وكان اشترى له كيساً مليئاً بالطعام. يصر أن يأخذه إلى المطبخ وإذا به يشمّ. المجلى يغص بالاطباق الوسخة، وركاوي القهوة المتنوعة المنقوعة وبقايا طعام ما زالت من الليلة البارحة. كان خائفاً على نظافة مطبخها لكنه وجد العكس.

تحزّم سمير بالقرد كما تفعل الافريقيات ليغسل الصحون، ثم شمّر بنطلونه وانحنى يمسح الأرض. القرد يظن أن سمير يلاعبه، وعندما رآه يرقص على الانغام المنسابة وينادي مع وردة: «آه آه آه» تجمّد في مكانه وأخذ يراقب سمير وكأنه رجل راق له ما يرى أمامه.

أصرّت أميرة على مبيته عندها هو والقرد.

ـ لا، يا ست أميرة، برجع وبلاقيك شانقة حالك.

تبادره ناهد:

ـ لازم يتربط بجنزير، آه واللهِ كان عند خالي سعدان زي ده وكان رابطه بجنزير.

ـ حرام يا ختي، ما هو روح! تعترض أميرة.

ـ الكلاب هنا مش بتنريط؟

جملة ناهد هذه مدته بحريته. وربط قائمة القرد بقدم الكنبة وأسرع إلى الشارع، يبحث عن شاب انكليزي أشقر، بين عشرات الرجال الذين كانوا من العرب. الرجال الانكليز كانوا إما سكارى وإما من البوليس والبعض في سيارات خاصة. كان تصور أنه ما إن تحط الطائرة في لندن حتى يرى صفوفاً من الشباب الانكلين، تماماً مثل سنابل قمح ذهبية تموج بسراويل حمراء وجلدية يسيرون اليد في اليد.

عليه أن يبحث عن ملابس جميلة. وعليه أولاً أن يبحث عن كنيسة من أجل أن يضع القرد في صباح الغد الباكر عند عتبتها حتى يعثر القس على قرد مقيد ومربوط بالسلة، بدلاً من أن يرى طفلاً. يضج سيمر ضحكاً لهذه الفكرة ثم تتعلق عيناه بواجهة و يقرر أنه يحب كل شيء. وحين يهم بالدخول يرى شابا جميلاً يروح ويجيء وينظر من حوله كأنه يبحث عنه، عن أيّ رجل. هل هذا معقول؟ وهذا الشارع يفتقر إلى الإنكلين، فكيف يَنبت له خيرةُ شبابهم؟ هل يسرع بالدخول إلى الدكان ويشتري القميص ويخرج مرتدياً إياه؟

يقترب سمير من الشاب الانكليزي الذي كان يرفع خصلات شعره الأشقر المتموّج النائم على وجهه، والذي تخيله سمير يهبط فوق وجهه، ويداه ناعمتان، وشفتاه عبارة عن حبتي فريز. يتمنى أن يغني له أغنية «أكلِكْ منين يا بطة» بالانكليزية، يبتسم له فيبادله الشاب الابتسام. يرتبك سمير لوهلة ثم يردّد الجملة الشائعة أو المفتاح لدى كل الشعوب:

ـ هل تتكلم الانكليزية؟

ـ أفهم قليلاً.

ـ ماذا؟

ـ قليلاً، أنا من البوسنة وأنت.

ـ من لبنان.

ـ لبنان والبوسنة مثل بعض Same same.

يميل الشاب برأسه في حزن، ويضع يده فوق كتف سمير مواسياً.

ـ بوسنيا، لبنان تراجيديا كبيرة، تراجيديا كبيرة..

معلهش انس الموضوع، المهم الصحة. كيف سيغازله بعد أن سبب له هذا الحزن؟ سأله:

ـ هل تريد أن تشرب فنجان قهوة؟

ـ آسف. أنتظر صديقاً.

ـ في الليل.

ـ ماذا؟

ـ نلتقي في الليل، نتحدث عن التراجيديا في لبنان وبوسنيا.

ـ أنت لاجئ، هل اشتريت هذه الجاكيت من هنا؟

ـ خذها خذها، (يخلعها سمير).

ـ لا أريد أن اشتري... إني اسأل فقط..

ـ لا تشترِ! خذها.

ولا يعرف ما هي كلمة «قِسْها» في الانكليزية. لم يدع شيئاً يقف بينه وبين الشاب الجميل. أخذ يومئ إليه بأن يخلع عنه سترة الجينز وهو يمد له الجاكيت الجلدية، وعندما تمنّع الشاب ألقاها سمير على كتفه.

تهجم على السترة أو على الشاب انكليزيةٌ فارعة الطول، جميلة. تقبّله على الوجنتين، ثم على الشفتين. عندما طال عناقهما وأغمض عينيه، وجد سمير نفسه ينتظر حتى يسترد سترته.

ترك الشابان البطاقة، وأخذا يتمايلان في جيب سمير ينفثان حرارتهما بين اللحم والقماش، وهو يسرع باحثاً عن مقهى يستطيع الاتصال منه بالرقم المدّون عليها، إلى أن رضي أحدهم وكان آسيوياً رجاه بعد أن وضع أمامه خمسة باوندات قائلاً: «مسألة مهمة، وأنا لا أعرف استعمال تلفون العلبة».

ـ هللو، أريد رجلاً، لكن امرأة، هل فهمت؟ رجل لا يحب المرأة على أن يكون امرأة. هل فهمت، أنا لست امرأة، أنا رجل كالمرأة.

تخبط السماعة في وجهه. يسمع هيصة وضحكات من رجل الصندوق، والساقي الذي بادره باللبنانية رغم أنه بدا أجنبياً:

ـ بتريد مساعدة؟

ـ يا عمي، مَنْ لسانه ثقيل بالانكليزي يكون مثل أعمى بصب زيت بالقناني.

ـ بدك تقللي شو بدك، وأنا بترجم لك ترجمة فورية.

ـ متشكر، بسيطة، الله يعافيك.

ـ ولو خليني ساعدك، أشرح لهم شو بدك يا منيوك يا عديم الشرف، يا... روح من وشي قبل ما هلق دقك قتلة وخللي اللي كنت عم تتصل فيهم يسمعوك وأنت عم تبكي دم..

يسرع سمير بالخروج، والساقي يسرع خلفه والصينية في يده تطقطق الفناجين والصحون بغضب. انتظر سمير خارج المقهى دقائق قبل أن يسترق النظر داخل المقهى ويتأكد أن الساقي منهمك، فيمد وجهه من الباب صائحاً:

ـ شو الظاهر استعاروك الجن ورجعوك مجنون؟

يستقل تاكسياً ويقدم البطاقة التي تحمل صورة الشابين المتعانقين قائلاً:

ـ هناك مدرسة ابني قرب ذاك المكان.

لم يعلق السائق، لكنه أخذ بعد قليل يتحدث بتلفونه النقال. أيقن سمير أنه يبلغ الشرطة عنه، والسائق أنهى المكالمة بقوله: «باي دارلنغ». ويتوقف عند بناء لم يكن يشبه أي بار أو ملهى أو حتى دار سينما، وعندما لم يتحرك سمير التفت إليه يحثه للنزول:

ـ هذا هو ادخل، ادخل go on go on.

يدخل سمير مكتباً يشبه مداخل المستشفيات. بقيت السكرتيرة تحييه وتقدم إليه ورقة كي يملأها في غرفة الانتظار، وهي تشير له إلى مكانها. استغرب وجود صورة لطفلة شقراء على مكتبها.

يفكّر: «كل شيء هنا عالاتيكيت والقانون.. حتى الكذا مذا».

يقول لها سمير إنه لا يعرف الانكليزية وهو يعيد لها الورقة والقلم.

ـ لا تقلق.. سوف أساعدك.. اسمك؟

ـ سمير.

ـ كم هو عمرك؟

ـ لا يهم العمر، هل فهمت. من فضلك العمر لا يهم.

ـ لم أفهم كم عمرك!

ـ ٤٠ سنة.. لا يهم العمر، مع أي أحد. هل أدفع لك؟

ـ لا ، لا لزوم.

ـ أنتم كرماء ونحن نستاهل. (لا يعرف كيف يترجم هذه الجملة لكن أين؟ ومتى؟

ـ لا أفهم. آسفة، لا أفهم. علينا أن نملأ الورقة.

ـ حتى هذه الأمور الذي يحسبها المرء صعبة هي أسهل في بلادنا. لا استمارات ولا كونتراتات، بل في المقابر، في الكاراجات عند حواجز المليشيا.

ـ لا أفهم. على كل حال، هل أصبت بمرض جنسي نتيجة عدوى؟

ـ ماذا؟

ـ هل وصف لك الطبيب مرة أنتيبيوتيك؟

ـ أجل. مرات عديدة . اللوزتان دائماً تلتهبان (يشير إلى رقبته).

ـ هل أصبت بمرض الزهر على أثر مضاجعة؟

ـ لماذا؟ لا أفهم.

ـ آسفة، لكن عليَّ أن أجمع هذه المعلومات قبل أن يراك الطبيب!

ـ الطبيب! لماذا الطبيب؟

ترتبك، تلتفت حولها. يقف سمير.

ـ شكراً أنا ذاهب.

تنهض من خلفه وعلامات الأسف على وجهها:

ـ أرجوك ، لحظة واحدة، لا تذهب، أرجوك، (تتصل بنمرة داخلية). جيمس! هل في استطاعتك مساعدتي، لحظة؟ شكراً.

تسأل سمير:

ـ من أي بلد أنت؟

ـ من لبنان.

ـ آسفة ما هي اللغة التي تتحدثون بها؟.. اللبنانية؟

ـ والعربية والفرنسية والانكليزية.

ـ حسناً. جيمس عاش في مصر وهو يتكلم العربية.

يرتاح سمير فجأة، كان عليَّ أن أغضب قبل الآن، لو لم أغضبْ لما أسرعتْ في الجدّ. يحاول أن يتخيَّل شعر جيمس. هل هو أشقر الشعر؟ تعود المرأة:

ـ جيمس لن يستطع أن يكون معك قبل ساعة، هل نجرّب معاً إذا شعرت بأنك فعلاً تود جيمس؟

تود أن تجرب معي حتى أُقلع عن عادتي وأعلق بالنساء من جديد. فهمت الآن أنهم يضعون صور الأطفال حتى يشوّقوا الرجال للعائلة وللأولاد.

هي كعمته التي كان تضربه قائلة: «إمشِ عدل، مثل الصنم، لا تتحرك يمين ولا شمال». وهي التي قامت بتزويجه.

ـ أنا متزوج، سأنتظر جيمس. (هو يعرف أن الانكليزيات يتصبَّبن شهوة على الرجال العرب).

ـ متزوّج! هل تعرف زوجتك عنك؟ الوقاية في وضعك هذا هي غاية في الاهمية. لربما انتفعنا بالوقت ريثما يجيء جيمس.

تسحب من درجها «علباً من أجل الوقاية الجنسية»، تفتحها أمامه وهي تقارن بين النايلون القوي والأقوى. تمنحه إحداها قائلة: للتجربة خذها من غير مقابل.

يفكّر في الخلايا التي سوف يرتطم رأسُها بحائط الكبوت ويضحك:

ـ أوكي، أوكي، جيمس؟ أين؟

ـ كما قلت لك جيمس سيأتي بعد ساعة.

ماذا يفعل أثناء انتظاره ساعة كاملة؟ ينهض ليتصل حتى يطمئن على القرد وهو يأمل ألا يكون قد قَفَزَ أو جَرَّ معه الكنبة.

يُخرج من جيبه كل ما فيها من نقود وأوراق. يبحث عن الورقة التي تحمل رقم أميرة. يسأل المرأة هل يمكنه الاتصال، واضعاً أمامها باونداً. تدله على تلفون «العلبة» في الرواق. يصرُّ قائلاً إنه لا يعرف استعماله، تبتسم له وتعود به إلى طاولة مكتبها. أطلع سمير المرأة على البطاقة، رغم جعلكتها، حيث الجميلان ما زالا يتعانقان.

ـ جيمس؟

ـ لا.

ـ جيمس جميل كهذا، أنا مستعد أدفع.

تفهم أخيراً ما يريده.

ـ آسفة. هنا مركز طبي للإيدز، ما دمتَ جئتَ إلى هنا لماذا لا تجري فحصاً؟

يضحك سمير وتضحك المرأة، ثم يتذكر الشاب الذي رآه في الرواق وهو في عياء شديد وأيقن أنه مدمن مخدرات.

خرج وهو يفكر أن الله أرسله من أجل أن يتحسب. يتحسس علبةَ الوقاية في جيبه، والنشراتِ التي أصرَّت المرأة أن يأخذها معه.

الفصل الثالث

- ١ -

تأتي ليس بعدة دروسها: ورقة وكاسيت وفمها. وبدلاً من أن تبتدئ بلفظ الجملة الأولى، تقف أمام النافذة تراقب من جديد ما يواجهها، خاصة بيت المرأة والطفل، الموصد أمامها بالخشب والستائر السميكة.

The task of the farm guard dog was to bark, alarm the yard, and calm the last barn- dancers.

تسمع صوت المعلمة يدور في الكاسيت في فراغ الشقة، تردِّد من خلفها هذه الجملة، أمام المرأة، وأمام النافذة، جالسةً وواقفةً. تصورتْ أنّ الجملة ستكون غاية في السهولة. سخرتْ من المعلمة عندما أعطتها جملة واحدة فقط حتى تقوم بتحضيرها، ترددها وتعرف أن هناك خطأ ما، تقوم بتسجيلها، وما إن يعلو صوتها حتى يغيب صدى صوت المعلمة الذي كان قد قلب الشقة إلى شقة انكليزية.

.. هو حرف الراء، عليّ أن لا أدعه يقفز من لساني وكأنه طفلة تقفز فوق الحبل. عليّ إعادته إلى الخلف حتى يقبع في ظلام الفم. عليّ

أن أمدده، كأني أُعده للنوم. لكنه سرعان ما يغافلني ويهرب وكأنه اللص الذي خاف من نباح الكلب في الجملة.

ـ آها آها. فطنتُ أنّ إظهـار اللسـان هو من الممنوعـات في ثقافتكم؟ لذلك تجدين صعوبة في لفظ الـ «The» كما ينبغي. ممثل اسرائيلي لفت نظري إلى هذا عندما دب اليأس بي وأنا أحاول أن أجعله يلفظ الـ «The» كما يجب.

تعارضها ميس:

ـ لكن العراق هو بلد عربي.

ـ أوه المعذرة. أخطأت. اسرائيل والعراق عدوان، دائماً تلتبس عليّ الأمـور، وأرتكب الأخطاء، كـتـخـبطي مـرة بين الايرانيين والعراقيين. على كلٍ، أريدكِ كالإنكليز أن تأكلي كلمة الـ «The».

ـ عمتي كانت تُظهر لسانها عندما كانت تقول: «هللو عيني»، فنجيبها «هاللو عيني» عشرات المرات حتى تعيدها، ويبدو لسانها وكأنه يلاعبنا. نتشدق باللبان ونجعله كرة صغيرة نقوم بترقيصها على اللسان، وكأنها كرة على فم دلافين في السيرك.

تبدأ ميس بالقراءة من جديد، وإذا بها تتوقف لا عند كل كلمة بل عند كل حرف. ومع ذلك بقي باب الكنز في مغارة علي بابا مغلقاً على حرف الراء.

تقترح على نفسها النزول وشراء بعض الطعام. يستوقفها بواب العمارة، يقدم إليها ظرفاً كبيراً. توشك أن تمد يدها لكنها تتراجع قائلة:

ـ لا بأس عندما أعود.

خطوتان وتتوقف. دقات قلبها تستلم الظرف منه قبل يدها. هل بدّل زوجها السابق خطه؟ هل هو يجرها إلى بيت الطاعة؟ هل يريد طردها من هذه الشقة؟ هل أصبح خط ابنها في هذا النضوج فجأة، أم أن رجال مكاتب التحقيقات في دُبي بعثوا إليها رسالة مفخخة، أم أن الحكومة الانكليزية تريد استرجاع الجنسية الانكليزية منها بعد حادثة دُبي من أجل أن تظل العلاقات قائمة بين البلدين؟

كانت «منمنمة» مجنون ليلى في المدرسة مرفقة ببطاقة: «هل أراك الليلة! نيقولاس»... نيقولاس الرجل الانكليزي الذي استحضرتْه قبل أن تلتقيه في السنين التي كانت بها تدوس الفُجير الذهبي والفطر البري، ترى الحصان الذي رسم بالطين الأبيض على هضبة، والقطار يمضي، والساقي يسكب الشاي الأسود والحليب في آن.

الظرف وعلامة: «حذار، ترفَّقْ بهذا المغلف». ومنمنمة مجنون ليلى والظرف طغيا على الشقة الفارغة. عمرها ٣٠ سنة وهي المرة الأولى التي تتلقى فيها هدية وكلمات إليها من رجل. تحين منها نظرة إلى ساعتها التي كانت هدية زوجها لها، لم تكن هدية؛ كانت تكملة لفواتير الطعام والهاتف والكهرباء.

«ترى هل سأجبر يوماً على بيعها إذا ضاقت بي الأحوال.. كما فعلتْ أمي، تبيع السوار الذهبي واحداً تلو الآخر عندما لجأوا إلى سوريا ولبنان؟»

لم يتعانقا كما توقعتْ ولم تمد له شفتيها ولم يأخذها بين ذراعيه. لا بدّ أنها كانت تعيش في أحلام اليقظة طوال هذين اليومين، بل سألها هل هي استلمت «مجنون ليلى» وهل تعرف من يستطيع أن يضعها لها في إطار؟ ولم تشأ أن تحضر فيلماً عربياً معه ولا أن يأكلا الكسكس في مطعم مغربي. تريد أن يعانقها ولا يفلتها. فهمتْ بعد ذلك أنه اختار الفيلم العربي من أجلها. مال إليها في الفيلم قائلاً: «هذه تجربة فريدة أن نحضر معاً فيلماً عربياً».

كانت لندن بعد السينما تنتظر إشارة من لميس حتى تفك أزرار فستانها وتقف أمامها عارية، ولميس تنتظر إشارة من نيقولاس حتى تفك سحاب بنطلونها وتقف أمامه عارية. الاشجار والبيوت والبنايات تصبح فجأة لندن، هي مع انكليزي وكل ما حولهما أليف ومصدر طمأنينية.

ـ إلى أين نذهب؟ هل أنتِ جائعة؟

ـ كما تريد. لا ، لا أرجوك (همس قلبُها له) ما كنت أفعله مع زوجي، وأصدقائه، كان الأكل.

ـ هل هذا الايشارب من العراق؟

ـ لا ، من لندن. تركتُ العراق وأنا في الثانية عشرة من عمري، ولم أعد إليها.

ـ إنه جميل، (يمد يده إلى الايشارب يتحسّسه). ولكن هل بإمكانك العودة إذا اردتِ؟

ـ أجل.. لا.. من يعرف؟ لا أعرف..

أرادت أن تشكو إليه زوجُها الذي رفعه مرةً عن الأرض وأعطاه للساقي ساهياً أنه لها، رغم أنها كانت تضعه فوق كتفيها، وحول رقبتها، في البيت على الكرسي، معلقاً في الخزانة.

يمران في بيكادللي سيركس. طيور الزرازير بالمئات.. على الأشجار، على الشبابيك على مجسم الكوكاكولا. تحط أينما كان. لكنها لا تصل إلى تماثيل السباحين التي وقفت تستعد للغطس من أعلى البناية إلى الشارع، حيث الناس والضجيج.

ـ هل نذهب إلى شقتي؟ سأريك الخنجر الذي اشتريته.

ارتاحت أوصالها، رغم استغرابها أن يستعمل الانكليز أيضاً هذه الحيلة. زفرت النَفَسْ الذي علق بحلقها، ليعود آخر جديد يعلق في حلقها ويظل إلى أن ترجّلا من السيارة وصعدا الدرجات ودخلا شقته. دارت بعينيها أولاً ثم بجسمها، وهي تُثْني على الخنجر رياءً.

عندما لم يقترب منها استحضرتْ عن قصدٍ حماتَها، أجلستها قبالتها. أجلست زوجها بينها وبينه، وعلى ركبة زوجها أجلست ابنها، أجلست أمها، أجلست جميعَ مَنْ توسط يقنعها بالعدول عن الطلاق.. هكذا إلى أن غصت الشقة بالناس. جيرانهم في بيروت، ورجال الجمارك على الحدود السورية ـ اللبنانية، التمّ كل هؤلاء حولها وقوفاً أو جلوساً، وآخرهم نيقولاس، الذي أحاط شالها، حول رقبته للحظة ثم ضبطته وهو يغمض عينيه يدني طرفه من أنفه، واعترف لها بأنه راقبها من مطار دبي.

تسيل كلماته الانكليزية في أُذُنها، أي تنفرط حرفاً حرفاً وتنزلق، تسقي شعيراتها بمادة زكية الطعم فتطلب أذنها المزيد. الهمس في أذنها هو مداعبة حرف الراء يدخلها خاصة ونيقولاس يتركه معلقاً في الهواء كفمه، فتسمع Hia بدل Here، و Lova بدل Lover. الحرف تائه يريد الاستقرار عند أذنها، إنما يعززه الحرفان الأخيران من كلمة firstly التي تركت أيضاً شفتيه منفرجتين حتى تدخل ليس. وما إن ينبعث صوته حتى تكون قريبة من أوتارها، تراها كحبال ترفع الجسور.

يئست ليس من أن يحضنها، وأيقنت أنه قبّلها في المتحف وجاء بها إلى شقته حتى يبيعها شيئاً. شاب انكليزي لحق بها مرّة في الساحة وهي تلاعب ابنها يسألها: هل ازرار كنزتها من الألماس الحقيقي؟ لم تشأ ليس المغادرة، رغم أنه سألها هل هي جائعة، ورغم أنه تثاءب. تململ بهزّ فخذيه. هل هو يحب بني جنسه؟ أمعقولٌ أنه ما زال بلا زوجة، أو حبيبة، وهو في هذه الجاذبية؟ إنه لُقية.

إنها شقة العازب، ولم تكن قد رأت شقة كهذه من قبل. كل ما بها يوحي بالحرية: الصوفا الواسعة، رغم قماشها البالي، والكتب الكتب والكتب، المصباح الكهربائي الأسود الطويل وطاولة الطعام المخصّصة لكل شيء ما عدا الطعام، ومسجل الموسيقى الستريو، والـ CD والكاسيتات وسجادة كليم. السرير وحيدٌ في غرفة النوم، تؤنسه في وحدته طاولةٌ مستديرة من قصب الخيزران وخزانةٌ ذات رفوف مفتوحة وأخرى لها أبواب، وخرائط على الجدران، خرائط العالم كلها حديثة وقديمة. تشعر بالسعادة والطمأنينية ازاء الغرفة،

ثم تسترعي انتباهَها على الطاولة عدساتُ العين. ترى ما لون عينيه؟ وتبتسم عندما ترى حذاءه مرمياً يؤكد لها أنه كان في عجلة عندما غادر شقته. تسأله هل يود أية مساعدة؟ يترك الأرز الذي كان يغسله في المصفاة الصغيرة.

ـ هذه معجزة، ما يحدث لي هو معجزة.

ـ معجزة؟

ـ لا أصدق أنك معي في شقتي، في مطبخي، أطهو لك الأرز (يستدرك)، الأرز لا شيء آخر، (يضحك لجملته الأخيرة فتضحك هي وتسأله هل يريد أن تساعده).

ـ ابحثي لي عن الزعفران، (وهو يشير إلى درج فيه الكثير من التوابل). إذاً.. أنتِ وحيدة في لندن، لا عائلة؟

تجبر نفسها على أن تجيبه بكل تلقائية كما في المسلسلات التلفزيونيه:

ـ yep.. كنتُ متزوجة..

رائحة الأرز والزعفران والبخار المتصاعد والطبقان والقدحان ورؤيتها لقنينة النبيذ في يد نيقولاس، كل ذلك جعلها سعيدة. يجلسان حول المائدة بعد أن أبعد نيقولاس ما كان على الطاولة إلى زاوية. تأكل معه الأرز الشهي. حتى عندما يسألها هل تحب الأرز البسمتي لم تنتقده كما كانت تفعل مع زوجها وحماتها عندما كانا يفضلان نوعاً على آخر.

ـ كم سنة بقيت متزوجة؟

ـ ثلاث عشرة سنة تقريباً. لديّ ابن في المدرسة الداخلية.. ومع والده. أستطيع رؤيته متى شئت.

لا يعلّق، بل يسألها هل تريد أن تجرب السلطة؟

لا بد أنه يظنني بلا قلب، لأنني تركتُ ابني مع والده. هكذا اتهمني الجميع.

ـ تركتُ ابني مع والده لأني ظننت أني ساعيش وأستقر في دُبي. أردت أن ابدأ حياتي من جديد في بلد عربي. لم اشأ أن يتأثر ابني إذا بدلت حياته ومدرسته. على كلٍ، هو يحب لندن كثيراً ومتعلّق بجدته..

تمنت ألا يسألها إذا كانت ستسترجع حضانته.

لهجتها التي كانت تختلط بالدفاع عن النفس والتأثر الشديد تجعل نيقولاس يمدّ يده ويشد بها على يدها.

ـ لا بأس، أسأتِ فهمي. شعرتُ بالأسف لأنك تزوجتِ صغيرة، هذا كل ما في الأمر، بينما كنت أطوف الدنيا بلا مسؤولية. في السنة التي تزوجت فيها، كنت أجوب الهند وحيداً بروبيات قليلة، وشنطة على ظهري، أحاول أن اكتشف لماذا لم أسعَ إلى أن أجد عملاً لي بعد تخرّجي.. أهو الكسل؟ أم أني فعلاً لم أكن أعرف ماذا أريد أن أكون..

ـ يبدو أنكِ اكتشفت..

ـ ليس بنفسي، إذ كلما حاولت أن أفكر في الموضوع شعرتُ بالرعب. لكن الصدفة هي التي قررت عني وأرتني مهنتي.

أمن المعقول أن هذا الرجل الطويل الذي يذكّرها بوالدها يشق لها صدره ويخرج مكنونات قلبه الضعيفة، المترددة!؟

ـ كنت أتمشّى كبقية السائحين عند باب الهند في بومباي عندما رأيت طفلة انكليزيه تبكي. رفعتها وأجلستها على كتفي حتى يراها من فقدها، وإذا بصوت يعلو: «تامزين، تامزين». كان ذلك والدها الذي دعاني إلى العشاء ثم دبّر لي وظيفة في سوذوبيز. وكان هذا في عام ١٩٨٧. وأنت هل تزوجت من حبيب قلبك؟

ـ لقد أُجبرتُ على الزواج من رجل بضعف عمري.

ـ هل تقصدين بذلك الزواجَ المدبّر؟

ـ لا، قصدت: زواجاً إجبارياً، زواجاً بالقوة.

ـ لماذا لم تلجأي إلى أحد، لماذا لم تهربي؟ هناك جمعيات كثيرة تلجأ إليها الشابات اللواتي يُغصبن على الزواج بالقوة..

ـ لكني لم أكن أعيش هنا، كنت ما أزال في بيروت مع أهلي. حاولت رفض هذا الزواج، حاول والدي مساعدتي، لكن أمي كانت قد صمّمت على زواجي.

ـ أنا آسف. لكن لماذا كنت تعيشين في بيروت في أيام الحرب؟ دعيني أفكر.. أجل كانت تلك أيام الحرب. هل كان والدك يعمل في السياسة؟ محارباً؟.

ـ والدي موسيقار.. يعزف العود. لقد هربنا من العراق في أوائل الثمانينات. كنا من الأوائل الذين هربوا.. فالشائعات بأن صدام حسين سوف يفني النجف كانت على شفة ولسان. هربنا إلى سوريا

لعامين ثم إلى لبنان الذي كان يتمتع آنذاك بهدنة طويلة.. شاعرة قريبة لوالدي شجعته على الانتقال بنا إلى بيروت.. بقينا هناك زهاء سنتين رغم اشتعال الحرب من جديد.. إذ العودة إلى العراق بدت مستحيلة، كالعودة إلى الموت نفسه.

يقترب نيقولاس ويأخذ ليس بين ذراعيه فجأة ويشدّها إليه. كان يريدها أن تنسى تلك الحقبة من حياتها. أَجبرتْ نفسَها على عدم البكاء، لا لأنها شعرت بتألمه الحقيقي لما مرّت به، بل لأنها وقعت في حبه، وأصبحت سريعة العطب وكأنها طائرة من ورق.

ـ لكنْ ماذا عنكَ؟ ما الذي جذبكَ إلى البلاد العربية؟

ـ الصدف أيضاً: تعرّفت إلى رجلٍ عُمانيّ يدعى سيف، يهوى جمع الخناجر الإسلامية. وهكذا استعارني من سوذوبيز حيث أعمل.. عليّ ألاّ أنسى أن السماء ما تزال تمطرني بالصدف الرائعة... كذهابي إلى متحف اللورد ليتون ذاك المساء!..

نظر إليها بطريقة وكأنه يرمي شبكته في بحرها الواسع.

ـ لدينا مَثَلٌ في العربية يقول: «ربّ صدفةٍ خيرٌ من ألف ميعاد»..

ـ هل معنى ذلك أني لن أراكِ غداً؟

كادت أن تتلو عليه مثلاً آخر: «لا تُرجئْ عمل اليوم إلى الغد».. أو «التأجيل هو لص الزمان»، لكنها اكتفت بأن نظرت إليه نظرةً تحمل معنى هذيْن المثليْن.

تتسمّر في مكانها، تمنّي نفسها بنظرة منه. إنه ينظر إليها، لم تكن تلك النظرة المنتظرة. لا تتسرع، لا تريد الندم. تبقى واقفة، كمن يستجدي بصمت، تستجدي أن تبقى في هذه الشقة.

عندمـا أطال النظر في وجـهـهـا ارتبكتْ، وسـوف يرى ارتباكـهـا. جَمَعَ شـعرها الذي كان يغطي رقبتـهـا، وأخـذتْ يدُه الأخرى تقتفي طريق رقبتها من تحت الذقن إلى الحفرة التي ما بعد الغدة. خالـجها شـعور غريب: «هل يود خنقي؟». يمر بإصبعه على كل وجـهـها حـتى كاد يلمس بؤبؤ عينيـهـا، وعندمـا يصل إلى الأنف يأخذ بحركـة آلية يتـبع الخط الذي يشق أرنبة أنفهـا إلى شـقين، حـتى تململت (لربما أفرز أنفي مخاطاً). واستأنف يمر على الشق وكأنه يحاول ان يجعله عميقاً ويخفيه.

تتململ ليس من جديد، ليترك نيقولاس الأنف ولا يترك وجـهـها. عيناه تنغرزان فيه. يسير باصبعه حتى الأذن، إلى اللحمية، التي لا بد أنها فرت من قساوة الغضروفة.. الأذنان عالم قائم بذاته، الأذنان والاصابع والصرة وعضو الرجل هي الأجزاء التي تذكر بأنّ الانسان مـعجزة. هي التي تعزز إيمان الخيال بأنه مخلوق لكوكب يسبح في الفضـاءُ يدعى الارض، ولا بد أن هناك مـخلوقات أخرى في كواكب أخـرى. يهـبط الحـفيف من لولب الاذن إلى الحنك ثم إلى الشـفـتين. تغمض ليس عينيها وكأنهما تعرضتا إلى نور سطع فيـهـمـا فـجـأة. أحستّ بإصبعـه تتلمّس شـفتيـهـا، يسيـر بها على مـهل وكأنه يعد الخطوط الزهرية التي تتكوّن منها الشفاه، خطاً خطاً، ثم يتوثب عقلها (هل علق أحمرُ الشفـاه على إصبعه؟ هل فم الرجل يستطعم الشفاه أو أحمر الشفاه؟)، ثم يشق هذا الملمسُ شفتيها، يصل إلى أسنانها.

يخلع نيقولاس قميصه ويترك عينيْن ثاقبتيْن تتـأمـلان أسنانهـا. ولدهشتها أخذ يدق دقاً خفيفا عليها وكأنه عصفور ينقر بسكوتة.

صبرها الذي أخذ ينفذ وحيرتها لما يحدث جعلاها تقضم إصبعه وتضحك، أخذ يضحك هو الآخر.. يضم وجهها إلى صدره العاري، تشم رائحة لذيذة، لم تكن رائحة جلده، ولم تكن رائحة الصابون، ولا رائحة خلّفها قماشُ قميصه. إنها رائحة جديدة، رائحة انكليزية، صدر من غير شعر. تفلت وجهها. تململها هذه المرة لم يكن سوى رغبة في أن يضم أجزاءها الأخرى إليه. لم يفعل، بل أبعد وجهها عنه، حتى يعود فيقربه من عينيه. يحيد هذه المرة إلى شعرها، يمسك به خصلة خصلة، وكأنه يفرق الأغصان التي سدّت طريقه. يصل بيديه إلى رأسها، ولم يعد بالخصلات إلى ما كانت عليه إلا بعد أن باركها بأنفاسه، يشم هذه الخصلات وينتشي، (الحمد لله إني غسلتُ شعري هذا الصباح). تزدحم أنفاسه، وفعلاً يمر بيده إلى خصرها يفك بنطلونها. تنهض لتساعده في خلع بنطلونها يمددها من جديد بحركة من يده.

يترك بنطلونها، يرتمي على الأرض. ثم ينحني إلى قدمها يرفعها قليلاً حتى يتأملها وهي بعيدة عن أجزائها الأخرى، يتحسّس ربلة ساقها ذات العضلات، لا بد أنه سيسألها هل كانت تركب دراجة. يتحسّس القدم الأخرى ، يضمها إلى الأولى خوفاً من أن تغار إحداهما من الأخرى ثم يعود إلى خصرها، فإلى خلع جواربها. ما إن يرى طلاء أظافر أصابع قدميها حتى يمر بإصبعه على كل إصبع كأنه يقوم بطلائه من جديد، يغمض عينيه. إلى أن يصل إلى فخذيها. شهق شهقة خافتة، أغمض عينيه لوهلة وهو يعاود تخليصها من جواربها. كان يشهق شهقات متتالية وكأنه يلهث. ثم يأخذ قدماً

وينحني يقبلها، لا بد أن من اخترع كريم النعناع للقدمين كان امرأةً وجدتْ نفسها في وضع كهذا.

إنه وصيف الأمير الذي كان يفحص أقدام المراهقات قبل أن يجعلهنّ ينتعلن حذاء ساندريللا، موهماً مَنْ حوله أنه يفعل هذا منعاً للغش، في حين كان يستمد لذة لا توصف كلما لامس أقدامهن. تشعر ليس بالتهالك فهي لم تعتد هذه الحركات الرياضية من قبل. يعيد إليها قدمها، ولا ينتبه إلى أعلى فخذيها وما بينهما. سروالها الصغير كان يتهيأ وكأنه ضوء منارة ترشد إليه السفينة التائهة. يلمس شامة سوداء على فخذها دأبت ليس في فحصها لدى طبيب الجلد كل عام. أخذتْ تضحك وتبعد خصرها عن يده، ثم تبعد يده عن خصرها، كانت تتزكزك خاصة عند خصرها وأصابع قدميها. تقول له هذا، وكأنها بجملتها تسحبه إلى الواقع بأنها آدمية تفكر وتتحدث، كأنها بضحكها هذا أضاعت طريقه فتوقف وقال:

ـ أحب غمازتيك.

ـ إذا أعطيتني ٥ بنسات أعدك بأن أخفيها في الغمازتين.

يبتعد عن الخصر، ويستأنف طريقه هذه المرة إلى ذراعها، يرفعها ثم يهبط تحت إبطها، فتبتدئ بالضحك من جديد.

ـ اتزكزك تحت إبطي. هل تريد أن ترى غمازتين أُخريين؟ ثم تقلب نفسها وتنام على بطنها، غمازتان عند أسفل خصرها.

يكب على الغمازتين يقبلهما، وهو يلهث، وكأنه تسلق عالياً حتى وصل إلى هضبة مؤخرتها، تشعر بنسيم سخن، تغمض عينيها،

تنتظر أن تتلقى حركة أخرى حاسمة، ولكن لا شيء، لا شيء. فجأة صرختْ من كل قلبها، وهو يكب على أصابع قدميها من جديد. وكأنها بضحكتها وصرختها هذه قطعتْ فعلاً طريق رحلتهما معاً. سألها هل أنت جائعة؟

لم تنجح، حتى عندما اجابت بالنفي، وبقيت فوق الصوفا، تحاول أن تعيده إلى سياق الرحلة. تحوّل فجأة إلى سائح أعيدت إليه محفظته الضائعة بكل ما كانت تحمله من مال وجواز سفر وعناوين. فترتْ همته ومات فضوله إزاء المكان. تحاول من جديد أن تسأله ما سر الزكزكة؟ هل لأن وظيفة الدم واللمف والعظم والمسام في تلك الأماكن تختلط؟

ـ «دعيني أحضر لك شيئاً، أنا جائع»، يقول هذا وهو يحاول أن يخبئ انتصابه. عندها أمسكته من قدمه. ابتسمتْ له ومالت إليه ووضعتْ فمها فوق فمه، لحظات قبل أن يقبلها، أي قبل أن يستمد منها أنفاسه كأنها رئة، يضع نَفَسه في نَفَسها ويدخل فمها، تاركاً لسانه يبحث عن لسانها المسجون، يدفع الأسنان التي كادت أن تهر وتتساقط سناً سناً. لكنه لم يجرها إلى غرفة نومه كما حسبتْ، بل جلس بعيداً عنها.

أيقنتْ أنها لا تعرف نيقولاس وأنه غريب الأطوار. وبدلاً من أن تنسحب سألته:

ـ لماذا تجلس بعيداً عني؟

ـ أنا بعيد عنك؟

ـ ماذا حصل؟

ـ أنا أسعد مخلوق.. هذا ما حصل!.

ـ أنا لا أفهمكَ، ماذا يجري؟ ما الذي ينفركَ مني؟

ـ أنا. أنا في الجنة. أريد أن أتأملك.. أن أحفظكِ غيباً!

ولم تترك له المجال ليتابع، بل ارتمت عليه تقبله، تأخذ لسانه وتمسك بوجهه، وتأخذ لسانه وهو يقبلها ويتلقى لسانها ويترك وجهه بين يديها. وإذا بها تخلع سروالها الصغير، ومع ذلك لم يتوقف عن محاكاة أجزاء جسمها الأخرى، كأنه تلميذ يحاول أن يكتشف سر ارتباط هذه الأجزاء معاً، من أين تبتدئ وأين تنتهي. وما إن رأت انتصابه حتى اطمأنت. حفيف الأشجار في الخارج ينادي «أنا أراكما»، ونقاط مطر خفيفة تطرق مستأذنة الدخول عليهما. وهو لايزال يستمتع بما يكتشفه وكأنه أمام جسد المرأة للمرة الاولى، (ترى ماذا يرى ما لم يره من قبل، وكلي أمامه؟). مر بكفه على إبطها وهمس: «جلدكِ ناعم للغاية».

عندما دخلها شكرت الله لأنها طبيعية.

فلقد ظنت طوال سنتيْن أو أكثر أن ثقبها عاد فلحَمَ نفسه بنفسه، تماماً كثقب الأذن الذي ما عاد الحلَق يدخل فيه، خاصة أنها كانت تشعر بألم فظيع كلما ضاجعها زوجها. تأخذه لميس إليها بكل تلقائية وهي التي طالما تساءلت: ما هي المضاجعة؟ كان فوقها. وجهه مقابل وجهها، ويداه في وضع كأنهما يدا أبي الهول، حتى لا يضع ثقله فوقها. لا يترك فمها ولا لسانها إلا ليُطل على ثدييها. عيناه منفتحتان عليها، حتى أنها شعرت بالزوغان فأغلقتْ عينيها.

فتحتهما وهي ترى وجهه لا يزال يقبلها، أو ترى رأسه وشعره، وترى ذراعيها ممدودتين تحوطانه. ثم فجأة ألحت عليها فكرة وتساءلتْ «لماذا لا يزال نيقولاس فوقي؟» لماذا لا يزال فوقي، ما به؟ ما الذي يتوجب عليّ القيام به حتى أجعله ينتشي؟ كان زوجي يمضي وحده كسهم ألعاب نارية، يصعد لمحةَ بصرٍ ثم يخر هابطاً. كيف أجعله ينتشي؟ ترى ما الذي تفعله الانكليزيات؟ إنه ليس عربياً حتى أخجل منه. عليَّ أن أترك نفسي تتمدد بحسب سجيتي. هل أتحرك أكثر؟ أصيح؟ أهمهم؟ أعض شفتيه؟ أتشبث بظهره؟ أغرز أظافري بجلده؟ أو أقول له: «اعطني إياه بيبي»؟ هل سيتمرد جسمي عليّ ويخبره بالحقيقة بأنه لا يحس به؟

«هل تقتلعين هذه الشعيرات؟» يسألها نيقولاس وهو يلمس بإصبعه ما بين حاجبيها. لم تكن قد اعتادت على الكلام خلال المضاجعة، ولا أن يتذوق لسانها لساناً آخر.

يلامس الخال الأسود على عنقها ويردِّد: «إنه جميل». ذاق أذنها وردَّد «راحة الحلقوم». أمسك بثدييها ونظر إلى صرتها وردَّد: «أبحث عن لؤلؤة». ثم كبَّ على أصابع قدمها وردَّد: «رائحة كالنعناع».

ـ ماذا يحدث؟ لماذا لا تنتشي؟

كأن جملتها هذه ضربته في قلبه، أعادته إلى الغرفة.

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟.

أتراه يظن أن عليه أن يتحاشى وإنِ النظر في عينيّ لأني عربية دُمغتُ برسم جمجمة وعظمتين وعبارة: خطر الموت؟ فكّرتْ لميس

لكنه لا يرى إلاَّ الرغبة مرسومه على وجهي. ثم يغطس في داخلي يحاول أن يبعثر الكلمات، ليجد أنه ما زال على السطح لأن داخلي يشبه الرمال المتحركة تلملم وتبلع نفسها.

يحاولان معاً من جديد. حركتهما متناسقة، متناغمة. كل من الجسدين يطلب المزيد. إنه ينتظرها، وهي تعرف مسبقاً استحالة بلوغها الذروة.

كيف؟ كيف تستحضر ملمس الخشب الآن؟ صديقتها، التي كانت تحتفظ بكولونيا عشيقها في زجاجة عطر لها، كانت تدخل الحمام لحجة ما وتُسْرع إلى فتح الزجاجة تشم عشيقها المكبوس داخلها. ثم تعدو إلى زوجها تضاجعه قبل أن تفلت منها الرائحة.

تغمض ليس عينيها من جديد، وكأنها عند حافة الطاولة، من غير فائدة. تسمع صوت صديقة حماتها تُسر في أذنها قائلةً: «اسمعي نصيحة مني، لا تتركي زوجك من أجل رجلٍ آخر. أعرف، حدث مرة، أن التقيتُ بشاب يصغرني. أراني الحب، ماذا أقول لك؟ اعتدتُه إلى درجة أني بعد ٣٠ سنة ما زلت مستأنسة بذكراي معه. احلمي ولا تقدمي على الطلاق!»

والرجال كانوا كثيرين في حياة ليس، تبحث عنهم في الغرف، على الطاولات والكراسي والملمس الملائم، وعندما لا تجدهم كانت تصاب بخيبة. الرجال كثيرون في حياتها. متعدّدو الأشكال والأجناس، والملمس الأحب إلى قلبها كان خشب الأبنوس الأصلي الدافئ، كرسي من چوا حُفرتْ على يد كل منها ثمرةُ الأناناس. تهرع

إليها كلما كانت وحيدة في البيت، فَرِحةً بهذه الفرصة المختلسة، تمسح آثارها بالماء خوفاً من أن يحزر كلبُ ابنها أين كانت خلوتها. فيلحسها أمام دهشة زوجها وحيرته. ولم تستطع الصديقات اكتشاف سر عضلات ساقيها مذ أصبحتا كعظمتي الوجه المرتفعتين من غير اتّباع أيّ من التمارين الرياضية.

كلما فكرتْ لميس في الجنس كانت تهرع إلى الحمام توصد الباب خلفها تضع أحمر شفاه. وحين يتساءل زوجها: «لماذا بالمفتاح»؟ تجيبه بأنها عادة من الطفولة. تكوِّم ستارةَ البانيو إلى جهة حتى تظهر مرآةُ الحمام التي كانت على مدى الجدران، تأتي بكريم، تدهن طرف خشب الفورمايكا الذي كان يكمل المغسلة، ثم تشق فخذيها حتى تلامسا الطرف المدبب، ترتكز بيديها على الخشب. ترى الحفرَة التي تنام تحتها سلسلةُ ظهرها منعكسةً في المرآة والغمازتين تحتهما، وهضبتيْ مؤخرتها وفخذيها كلما تحركتْ. بينما أحمر الشفاه في المرآة كان يطغى على تحركها فتتذكر الأحجية: «ما هو الشيء الأحمر الذي يصعد وينزل؟» «الحل: فريز أحمر في المصعد».

تتمدّد لميس، تاركةً رأسها على صدر نيقولاس، الذي كان يمسّد لها شعرها ويشتمّه. تنتظر ولا شيء يحدث. ترفع رأسها من على صدره تودّ أن تصل إلى شفتيه، لكنه طمرها بالقبلات وهمس: «لا بأس، لا تتظاهري.. لا بأس». وبقي إلى جانبها، كأنه شعر بأنها تودّ أن تعترف له بشيء، أو كأنها طفلة تعاني ارتفاعَ الحمى، إذ أخذ ينفخ على جبينها نفخات في منتهى الرقة. عصرته إليها وأطلعته على سرّها الذي ابتدأ في الطفولة مع كرسي الخيزران. تفارق السرير،

وتقف عند النافذة وهي ما تزال ملتفّة بقميصه الذي وصل إلى فخذيها، متحاشيةً رد فعله أو وَقْعَ اعترافها عليه.

تحين منها نظرة إلى الخارج، تطل منها على بنايات متشابهة حول ساحة أشجار وارفة. لا بد أن غريباً مثلها يسترق النظر من إحدى هذه النوافذ، ليراقب كيف يعيش الإنكليز. سيظن أنها إنكليزية تقف في لحظة تأمل أو تعاين الطقس.

الآلات الموسيقية النحاسية، التي كانت تأتي بنواحها إليَّ في أيام الآحاد من نادٍ عتيق، لن تَبْعث فيَّ شعورَ الاغتراب بعد الآن، ولا فصلُ الصيف الذي دفؤه كان يرميني بصقيع الوحدة.

تعود بنظرها إلى داخل الشقة.

- ٢ -

لم تنم أميرة جيداً. شعور بالخيانة تغلغل بها منذ أن حمدت ربها لأنها لم تجد ناهد عندما اتصلت بها البارحة.. وبالتالي لم تُطْلعها على خطتها.

إنها بحمدها لله شطبتْ على المثل القائل: «مؤخرتان في سروال» الذي كان ينطبق عليهما. فصداقتهما تعود إلى سنين طويلة تفوق العشرة، عندما التقتا في مستشفى في ريتشموند حيث تخلصتْ كلٌّ منهما من جنينها: أميرة هذه المرّة من زبون، وناهد من صاحب الكاباريه حيث كانت ترقص. منذ ذلك الحين وهما صديقتان، تشحن كلٌّ منهما بطاريةَ الأخرى بالحنان والحب.

تفضيان واحدتُهما إلى الأخرى بكلّ شاردة وواردة، حتى إنه عندما وقعتْ ناهد في حب الرجل الانكليزي ستانللي خافت أن تتعكّر صداقتها بأميرة، وتردّدتْ في المضيّ معه خاصة عندما سألها الزواج به. لكن أميرة قامت بتشجيعها قائلة لصديقتها: «هذه فرصة العمر». فناهد كانت راقصة، لا بائعة هوى عندما تعرفت إليها أميرة، لكنها حامت حول أميرة، وأصرّتْ أن تعرّفها إلى زبائنها، رغم أن أميرة

عارضتْ رغبة صديقتها طويلاً وأخذت تسدي إليها النصائح بأن الرقص من أرفع الفنون وبأنَّ عليها أن تؤدي أكثر من وصلة واحدة في الليلة. واقترحتْ عليها أن تأخذ مهنتها بكل جدّية وتأخذ درساً لإتقان موهبتها هذه إما في القاهرة أو في لندن، حيث كانت هناك راقصة متميزة أنشأتْ مدرسةً خاصة لتعليم الرقص الشرقي. لكن ما إن طلّقت ستانللي حتى سارعتْ ناهد تعمل مع أميرة.

حين أطلّ الصباح أسرعتْ أميرة إلى شقة ناهد، التي كانت في الشارع الموازي لشقتها، وقد قررت أن تطلعها على خطتها مشترطةً عليها إذا أرادت العمل معها أن تكف عن الشرب الشديد، عن الغمز واللمز والضحك والتشبث بالرأي والعراك والتصادم مع الزبائن، وأن تَعِدَها أولاً وآخِراً بألاَّ تنبسْ بكلمة واحدة أمام بهية.

كانت ناهد ما تزال في قميص نومها، ورائحة النوم والويسكي تنبعث من شقتها الصغيرة جداً. زجاجات الويسكي الفارغة ما زالت مصطفة على الطاولة كديكور، وقد ركزت على بعضها الشموع، رغم أن أميرة طلبت إليها التخلّص منها مراراً، إلا أنها كانت دائماً في ازدياد، وجملة ناهد المدافعة عنها لا تتبدل: دي اوريجنال يا أميرة.. ديكور..

- اسمعي يا ناهد، أنت لازم تدفعي فاتورة التلفون..

- عايزة أطلب نمرة جديدة..

- قلت لك ألف مرة إذا ما دفعتيش الفاتورة ما تقدريش تطلبي نمرة ثانية. أو اشتري تلفون نقال محترم! الاتصال بك صار مستحيل.

ـ أنا قفلته البارحة كان مزاجي عكر.. ده الأميرة اللي كانت في الدورشستر عملت بي العمايل.. ليه ربنا يعمل كده.. يفرق ناس عن ناس.

ـ عشان كده أنا هنا.. عايزه أطلعك على خطة.. إنتحلت شخصية أميرة سعودية من البارحة، وأنتِ حتكوني مرافقتي..

ـ يعني قتلتيها؟

ـ اسمعي يا ناهد... نقدر نربح في اليوم من خمسة إلى عشرة آلاف جنيه إنكليزي.

ـ طبعاً، عشان أكفلك وأطلعك من السجن! إسمعي، نصيبك الفشل والبوليس والسجن!

ـ لكن، اسمعيني يا ناهد.. تعالي نجرب، حنخسر إيه؟

ـ مالكنش! أنا بره، مش عايزة أكون مرافقة ولا حتى أميرة.

ـ يعني عايزه تاخدي كل عمرك ٥٠٠ أو ٣٠٠ جنيه وبعدين ٢٠٠ وبعدين ١٠٠ وبعدين عشرين؟

ـ آه، حتى عشرة كفاية عليَّ.. يلّلا نروح، طال عمرك، نشتري القماش..

تقصدان المحل الذي يبيع أغلى وأجمل الاقمشة قرب سلفردج، وهما تبتهلان معاً أن يكون الغزال السريع برونو هناك. ما إن تلمحه أميرة قبل ناهد حتى تقول:

ـ الغزال السريع! أهو. ربنا يحبنا.

تدخلان وتختار أميرة أجمل القماش. يقيس لها البائع برونو عدة أمتار زيادة حين يتأكد أن مديره منشغلٌ مع زبونة، ثم يقترح على ناهد أن يُطْلعها على قماش لم يُعرض بعد. تلحق به إلى الطابق الأرضي ثم إلى ممر حيث كان القماش يتكدس. تتلكأ أميرة وهي تتلهى برؤية المجلات على طاولة، ثم تتجه إلى الصندوق وتدفع، تعود إلى التلكؤ إلى أن تظهر ناهد وحدها، ثم يلحق بها الغزال السريع بعد قليل محمّلاً بالأقمشة، يحاول إخفاء آثار خلوته معها. تتفحّص المرأتان الأقمشة ثم تودعانه.

تأخذ القماش وتدخل بوند ستريت. تقصد الشارع المتفرع من هانوڤر سكوير، ولم تكن تعرف اسمه. وما إن ترى الباب الخشبي البني حتى تتأكد منه. فقد قصدته مرةً مع السائق لتأتي بفستان اليونانية التي كانت تعمل لديها.

عليها أن تنال موعداً. قيل لها إنّ الموعد الأول هو بعد عشرة أيام. «لربما تساعدينني» تقول لإحدى البنات الثلاث اللواتي كن يأتين بأكواب الشاي ويستقبلن الزبونات: «تأخذين مقاسي وأُطلعك على الموديل وأنت تشرحين للخياط ما أريد»، والشابة لم تفهم ما تقصده أميرة. تسير، يلتوي كعبها العالي بين شقوق الخشب.

لم ترضَ أميرة أن تعود بعد تسعة أيام، أو بعد أسبوع أو بعد ثلاثة أيام. تقول للشابة إنها ستسافر في الغد وإنّ الأميرة الأردنية فريال أرسلتها إليهم. عليها أن تحدث الخياط دقيقة واحدة: «قولي له مسألة حياة أو موت». تغيب الشابة الأخرى ويأتي الخياط:

«دارلنغ كيف أنت؟» محاولاً إخفاء خيبة أمله وهو يرى أميرة من غير الأميرة فريال.

ـ أريد فستان پرنسيس.

صبغة شعره جميلة، كذلك بشرته، لو تسأله ماذا يستعمل. يتأمل القماش، يتحسسه، يبدو أنه لم يعجبه.

ـ ألم يعجبك؟

ـ آسف. إنه جميل، لكنه سميك من أجل قَصّة «الپرنسيس».

ـ لا أريد قَصَة پرنسيس، وإنما أريد فستاناً كالتي ترتديه الأميرات.

الأميرة التي كانت تحتسي الشاي في الدورشستر كانت في منتهى البساطة، لكن أميرة كانت تصغرها وأجمل منها. على كل حال، يختلف البشر بأذواقهم وكذلك الأميرات..

ـ أوه .. تريدين ديكولتيه الصدر كماري انطوانيت، والخصر كليدي هاملتون، والتنورة منقوشة!

تكتفي بهز رأسها، موافقةً رغم أنها لم تفهم كل ما قاله لها. ألقى عليها نظرة سريعة. إنه كالجرّاح، وهي لعبة روسية خشبية، تبلع كل أولادها داخل مؤخرتها.

ـ لا يكفي القماش. على كلٍ، سيزيدك هذا الموديل سمنةً. هل تحضرين حفلةً مُقَنَّعة؟ تستطيعن استئجار ثوب من «ستراند».

ـ لا. إنما..

يدير وجهه مخاطباً البنات وزبونةً كانت تحاول الاتصال بالتلفون النقال.

ـ أخبرتُكم أنّ مسز فلاتشي أرادت أن تجد ثوب «ذات الرداء الأحمر» من أجل أن ترتديه ابنتها في حفلة «الهولووين»، وقيل لها في أحد محلات الملابس المستعارة أن تجرب «آن سامرز». والمسكينة كتبت الاسم على ورقة، واتصلت بمحل آن سامرز لتجيبها البائعة: «آسفة ليس عندنا ما تطلبينه، لكنها فكرة جيدة». ومسز فلاتشي اكتشفت الدعابة فقط عندما مرت أمام دكان سامرز ورأت الملابس الخلاعية تغطي واجهته.

تضحك البنات، بينما تغلي أميرة وهي تتصنع الضحك.

ـ أوكي إذن. أترك الاختيار لك، أنت تختار لي الموديل.

ـ إذن، خذي موعداً من السكرتيرة.

ـ لماذا الموعد؟ اتفقنا على أخذ مقاسي، فالأميرة فريال كما قلت هي التي أرسلتني...

ـ لا، لا.. عليك أخذ موعد.

ـ لا تكن كالانكليز ، أرجوك.

ـ المعذرة، أنا انكليزي وأنا فخور بذلك.

تشتمه في قلبها وهي تعيد القماش إلى الكيس غير مبالية، أرادت أن تبرهن لنفسها أنها أصبحت تنتمي إلى طبقة أخرى. تتجه إلى بوند ستريت، تسير حتى منتصفه. تقف حيث دخلتْ مرة واحدة محل

المجوهرات مع أحد الزبائن ليشتري لها خاتماً ولتغافله وتبتلع فردة حلق صغيرة من اللؤلؤ.

تكمل طريقها إلى المحل الذي تملكه رويا الايطالية، التي ولدتْ في القاهرة وكانت تلعب مع المطربة داليدا في الطفولة. كان دكانها معروفاً لدى جميع النساء اللواتي يفضلن عصفوراً في اليد ولا عشرة فوق الشجرة. لم تكن رويا في المحل، بل كانت هناك بائعة تجلس خلف الطاولة وبدت وكأنها تكملة للملابس: بالشريطة الغامقة التي كانت تتوسط شعرها الأشقر المصبوغ، وبحمرة شفتيها، والشامة المصطنعة عند جهة الفم. تسأل أميرة بالإنكليزية عن رويا، وتتأكد من جوابها بأنها عربية.

ـ الست عربية!.. زين زين. رويا هنا! قولي الأميرة، وهي تعرف.

تستيقظ البائعة فجأة من سباتها تنهض وبلهفة:

ـ تفضلي استريحي يا حضرة الأميرة. أنا والمحل كلنا في خدمتك.

جلست الأميرة بعد أن وضعتْ ساقاً على ساق، وأخذت تنظر إلى الملابس التي تقف أمامها ثم تختفي. رسمتْ على وجهها علامات اللامبالاة أو عدم الرضا، ثم اختارت فستاناً غاية في التعقيد، والبائعة تطري ذوقها. تمتمت الأميرة: «الواحد يحتار ويش يلبس في الصباح». فأجابت البائعة: «معك حق سمو الأميرة، هيدا الفستان سبور وبسيط»، ولم تقسه أميرة بل قالت بضجر: « آخذه الفندق وأقيسه هناك، وإذا لم يعجبني سأرده مع السواق». انصاعت

البائعة وأخذت تلفّه بكل تأنٍ، وخطر ببالها: كيف ستدفع الأميرة؟ وتمنّت لو تدفع نقداً وبالجنيهات الانكليزية. لكنّ الأميرة اتجهت إلى الباب وتطلّعت عبر زجاجه ثم عادت تحمل شنطتها وتتمتم: «أنا قلت للسائق يجيني بعد ساعتين، كنت فاكرة رويا هنا، قلت أشتري وآخذها نشرب فنجان قهوة. إذا جا قوليلو إني رحت «كاريبه» وإذا جت مرافقتي اسمها ايمان. تذكري: ايمان. قولي لها رحت هناك». وأمسكت بالكيس وسارت به قائلة: «خلّلي رويا تبعت لي الفاتورة، الله يحييك، أنا في الدورشستر».

رغم حيرة البائعة وارتباكها، لأنها لم تُلِمّ باسم الأميرة، فقد وجدتْ نفسها تفتح لها الباب وتودعها مبتسمة. فهي اعتادت أغرب القصص في هذا الدكان: نساء يأتين مع الرجال العرب يشترين الملابس، وبعد يوم أو عدة ساعات تعود المرأة ومعها الفساتين فتعيد إليها رويا ما دفعه الرجل بعد أن تحسم منها عمولتها المرتفعة، وبعد أن تحمل الفستان بنفسها إلى الباب وتضع نظارتيها وتتفحصه، خاصةً عند الرقبة وتحت الإبطين، ثم تمسح حمرة شفاهها بورقة كلينكس قبل أن تدنو بوجهها لتشمّه.

استمدت أميرة من تصديق البائعة لها اعترافاً كاملاً بأصالتها. لا أحد يطلب وثيقة الأميرات، أجنبياتٍ كنّ أم عربيات. كل شيء ممكن في غير بلدك. تعود فتخلق نفسك من جديد، من اسم تختاره، من أبوين تختارهما. تسير في الشارع على غير عادتها، لتلتفت إلى الخلف بين حين وآخر إلى أن يصبح دكان رويا بعيداً. لم تكن تنظر إلى الوجوه، وإذا نظرتْ فعن ترفُّعٍ لا عن فضول. دخلت دكاكين فخمة

للأثاث، وغاليرهات، ومحلات أقمشة ومجوهرات، واكتفت بالتأمل أولاً ثم باختيار شيء ما. وظلّت تتمتم بأن سائقها سوف يعود لشرائها. تسألهم أن يكتبوا لها سعر الحاجيات، والإنكليز يفعلون هذا باحترام وتقدير. أحدهم يعرض عليها أن يفتح لها الدكان بعد الساعة السادسة إن شاءت.

إنّ وقع كلمة «الأميرة» على الجميع مدّها بالسعادة والطمأنينة، وجعلها تغادر هذه الدكاكين وكأنها تملكها جميعها.

تطير إلى شقتها، ترمي بحذائها وتطرح الأكياس على السرير. تتمدّد عليه. وتأتي بكيس نايلون من خزانة ملابسها، تفرد محتوياته من الأوراق والبطاقات والإيصالات، تبحث بينها عن أرقام تلفونية معينة، وتجدها إلى جانب الأوصاف التي دونتها، فتقرأ: صدر پاملا اندرسون، أنا بنت مين، ثم المغرورة، البقرة، دنيا الله الواسعة، غولد فينغر، عنقود العنب، اللبانة، وجبة الاسنان، أسمر يا اسمراني، فاتن حمامة، الأكزيما. تختار ثلاثة أسماء، تحاول الاتصال بها من دون فائدة، فتسرع لتتصل بشركة تأجير السيارات الفخمة، تطلب سيارة رولس رويس: «أريد سائقاً إنكليزياً لا هندياً إنكليز ياً ولا عربياً إنكليزياً ولا أفريقياً إنكليزياً ولا صينياً إنكليزياً ولا بولندياً إنكليزياً ولا اسكوتلندياً إنكليزياً ولا إيرلندياً إنكليزياً. أريد انكليزياً مائة في المئة يعتمر قبعة ومعطفاً. نعم نعم، أدفع (....) بالساعة و١٠ جنيهات بقشيشاً. أوكّي لبعد بكرة». ثم تبحث عن الثلاثة اللواتي تم اختيارها لهن: «صدر پاملا اندرسون، فاتن حمامة، أنا بنت مين»، في الكازينو وبهو الفنادق، والكاباريهات، لتأخذ كلاً منهنّ على حدة

وتقول لها: «اسمعيني يا ساندريلا، لن أعدك بالزواج من الأمير.. لكنْ سأريك الطريق إلى محفظة نقوده الممتلئة بالنقود، شرط أن تسمعي كلامي وتعملي بتوصياتي وأن تحفظي السر».

تماماً كالجنية الأم، الطيبة التي هبّت لمساعدة ساندريلا، هبّت أميرة لمساعدة الأميرة. أتت بسائق انكليزي بدل الكلب حارس العربة، ثم استأجرت عربة رولز رويس بدل ثمرة اليقطينة، بينما تحولت المرافقات الثلاث إلى أحصنة.

- ٣ -

الكازينو يشبه مبانيَ قديمة، لا تزال تضم الأنديةَ الثقافية، والجمعيات، ذاتَ الماضي العريق، المحافظ.

يقف سمير محاولاً أن يكتشف لِمَ تبهره كلمة كازينو، تاركاً أفكاره وعينيْه تلحق بالأضواء المسلطة على الطاولات، والشباب من الجنسين.

الأعين على الطاولات. الدخان والزفرات والصمت والحوارات الخرساء تصدر عن الذين في حالة صراع مع النفس. الكل يطلب الشجاعة، سواء أكانوا من البخلاء أم العقلاء أم المتدينين أم المقامرين المحترفين الذين وعدوا أنفسهم بالتوقف. والسؤال يتأرجح في الهواء: «هل أمد يدي»؟

وبدلاً من أن تشتهي الأعين المرأةَ التي كانت في كامل تبرجها، مظهرةً حنايا جسمها، كانت تستنجد بالأرقام، على الطاولات، في الخيال أو في حساب البنك، والجيوب. المال ينزف، ينزلق من أيدي الناس إلى الآلات، والوجوه متجهِّمة، وكذلك الأنفاس.

رأى سمير كل هذا، فصاح:

ـ يا ستّار، يا رحيم: هيدا كازينو؟ هيدا جنازة. أنا بعرضك، أميرة! طلّعيني من هون.

تضحك أميرة وتصحبه إلى غرفة أخرى. غرفة كأنها صالون استقبال، من حولها ماكينات Slot machines تحدث رنيناً يشبه صوت آلات تحميص الذُّرة. مقاعد وطاولات هنا وهناك، السقاة يأتون بالمشروب والساندويتشات، والقرد موجود أيضاً تحت معطف سمير وشاله.

لم تأخذ أميرة مكاناً لها وتجلس بين الأخريات إلاّ عندما قيل لها إن أم ابراهيم توفيت.

كانت أم ابراهيم قد أدمنت الكازينو منذ أن مات ابنُها شاباً، فوجدتْه حلاً ملائماً لحزنها ولوحدتها. فهوالمكان الوحيد المفتوح طوال الليل، تدخل إليه من غير التزام تسلية الآخرين أو الطلب إليهم تسليتها. وفي الليلة الوحيدة التي تغيبْت فيها أم ابراهيم عن الكازينو، ولازمتْ فراشها وهي ترى البَرَد يتساقط من سماء لندن ويضرب النوافذ، لفظتْ أنفاسَها الأخيرة.

كانت تقول: «الكازينو هو الوحيد الذي يجعلني حية. فيه ينزّ مني العرق خوفاً، أو فرحاً. هو المكان الوحيد أتسلّق سلالمه من غير عصا ومن غير لهاث».

سرعان ما انتقل حديث النساء إلى السيد كاباني «النيجيري». والإشاعة التي سرت بين الجميع هي أنه سيزور هذا الكازينو بالذات حالما يصل من ميامي، حيث لُقِّب «بإصبع الذهب». هكذا أخبرهم

قريبه الأفريقي الذي خسر الكثير ولا يزال يخسر منذ أسبوع. إصبع الذهب دأب على توزيع البقشيش بآلاف الدولارات إلى كل مَنْ يلتقيه: مِنَ التي تُجري له مساجاً، إلى مضيفة الطيران، إلى فرقة موسيقية. تنهض أميرة لتنتقل بين هذه الغرفة وصالة القمار، تصافح هذه، تتجاهل تلك، تسأل عن ذلك، تترك سمير جالساً بين نساء عجائز يُرِحْنَ أكفهنّ إثر ضربٍ كثيرٍ على الماكنات، وبعض الزوجات المنتظراتِ أزواجهنّ بضجر وغضب، وبين شابات عربيات جميلات، وأجنبيات يتمازحن، ويتغامزن، يتمشين ويطّلعن على ما يجري في طاولات القمار ليعدن وفي حوزتهن كل التقارير.

تململ القرد الساكن في دفء معطف سمير، ولفت نظرَ الزوجات المنتظرات والنساء المتجسِّسات على مَنْ يربح ومَنْ يخسر، والتففن حوله، وإذا به يُبعد عنهنّ الضجرَ، والترقب... حتى لو التفت بوجهه من جهة إلى أخرى، أو قام بفحص ذيله، أو شَحَذَ الطعام، أو أرسل قبلات في الهواء. إحداهن تجرّأت على الرغبة في احتضانه ودعته «بالمقلنس»، وهي تؤكد لسمير أنها تربّت في الهند وكان لديها عشرات القردة. وعندما أبى القرد أن تحتضنه، قال سمير للشابة:

ـ هذا القرد أنثى تحب الرجال!

رأى الساقي القرد وسأل سمير بخوف كيف أدخله. «قرد؟ أيّ قرد؟ هذا كلب يشبه القرد». غير أن أميرة نادت الساقي ووضعت بيده شيئاً وهي تهمس له بأن سمير والقرد يخصان أميراً كريم العطاء، وهو سيلحق بهما بعد قليل.

ثم نظرتْ في ساعتها، إذ لم يكن هناك ساعة في الكازينو. ناهد لم تأت كما وعدتْ، وهي لم تجد صيداً واحداً. كانت تحب زبائن الكازينو، إن شهقوا فرحاً أو حزناً. للحظة تتوقف الروليت عن الدوران، ويقف الحجر، ويجمد تماماً. فتأخذ المصابَ بالتاكسي إلى بيتها، وهي تسأله عن الوقت، ليعطيها ساعة معصمه وكله ثقة بأنه ما زال قادراً على العطاء.

موسيقى «الكان كان» تعالت في الأرجاء. تابستري كبيرة عُلقتْ خلف البار تصور بضعة سعادين تلهو، أحدهم يشد ذيل طاووس، وآخر يطرح صنارة صيد السمك في الماء، والبعض الآخر يصَوِّب بنادقه على الطيور التي ترفرف على الاشجار.

بدا قرد سمير تحت أضواء الكازينو بفروه الأبيض والأسود كأنه ارتدى قميصاً أبيض وسترة سوداء تلمع كالحرير. ومع ذلك بقي «كابوشينو» ـ وهو الإسم الذي أطلقه عليه سمير ـ ضئيلاً ناحلاً، حتى بذنبه الطويل المعكوف، وكأنه خصلة من لويس الخامس عشر. وكان سمير قد مسَّد شعر كابوشينو عند مقدمة رأسه، محاولاً إخفاء الصلع البسيط الذي زحف على جانبي جبهته. أحب القرد هذا المكان الدافئ، وأخذ يُظهر لصاحبه كل المودة. كان سمير يتصرّف مثله هذه الليلة، بسرعة حركاته، وفضول نظراته، جاعلاً النساء يضحكن على الطريقة الذي اتبعها وهو يقص عليهم قصة القرد كابوشينو الخرافية.

موسيقى «الكان كان» ما زالت تتعالى. أفلت القرد من قبضة أميرة التي كانت قد استمالته بالأكل. لكنّ الموسيقى، والضجيج،

والتفاف النساء عليه، جعلته يفلت منها، لكنه لم يهرب وانحنى وكأنه ينحني أمام ملك، ثم أدار وجهه للحضور، وعندما تأكد من أن الأنظار مصوبة عليه أمسك بذيله وكأنه ذيل فستان. انحنى أكثر وأكثر قبل أن يدور على المندهشات وهن يراقبنه. مد يده يستعطي، متضرعاً بعينيه، إلى أن اختار امرأة، وأخذ يفتح ويغلق خياشيم أنفه أمامها. قدمتْ له طعاماً لكنه رفضه. احتارت المرأة ماذا تفعل، أمام نظراته التي كانت تتبدّل من تضرُّع إلى حيرة فتفرُّس. أعطته فيشاً كان في يدها، وإذا به يأخذه منها يقربه من وجهه يتفحصه قبل أن يرمي به أرضاً. وعاد يمد يده إليها مرة أخرى، ففتحتْ شنطتها تبحث عن شيء ما. ضاق بها، قافزاً إلى أخرى، يستعطفها بِمدٍّ يده، فتعطيه المنديل الورقي الذي كان في يدها. ولكنه يرميه، ثم يعاود مد يده، تتناول من شنطتها باونداً فيحفظه ويقربه من وجهه، ثم يهز رأسه بكل امتنان. وحتى يتأكد الجميع أن المال هو ما يطمح إليه، تمنحه إحداهن خمسة باوندات وإذا به يهلل فرحاً ويحكم قبضته عليها أمام ترقب الجميع لما سوف يفعل. ينظر بعينيه، يدور بهما، يلتفت بوجهه، برأسه، يصدر أصواتاً، ثم يهرع إلى أميرة. يبدّل رأيه. يبحث عن شيء ما، ينظر بعينيه يلتفت بوجهه، يصدر صوتاً، ثم يهرع إلى أميرة من جديد، متشبثاً بها. تتعالى الضحكات.

ـ يا أميرة حتى القرود بتخليها تحب الفلوس!

ـ وحياة ربي وديني إني لم أكن أعرف أنه شيطان! لازم سمير علّمه.

يحثّها القرد على السير به. تضع عليه معطف سمير وشاله، خوفاً من الحارسين اللذين كانا يتجولان بين الزبائن. يرفس القرد معطف سمير، وأميرة تشتمه. يصدر صيحةً توقّف لها كلٌ من في الكازينو حتى الخاسرون. أسرع سمير لنداء صيحة القرد الذي ما إن سمع صوت سمير حتى نفذ من المعطف وتهلّل وجهه وفتح كفيه المطبقتين على النقود يفرغهما في كفّيْ صاحبه.

يتضرّع سمير: «والله في الله». يحضن القرد ويجهش بالبكاء ثم يتوقف ؛ فالدهشة الكبيرة سيطرتْ على شعور الحب الذي أغدقه عليه القرد. لا بد أنه عرف بأن سمير خسر الجنيهات العشرة. التوأم يعرف ماذا يفكر توأمه. فكل منهما يعيش في قلب الآخر.

الفصل الرابع

- ١ -

الشمس التي تسللتْ إلى السيارة هي نفسها التي جففت زجاج «الوستمنستر آبي» هذا الصباح. هي فوق كل شيء، من كثرة ما افتقدها الانكليز ووجهوا إليها اللوم. السُياح دائماً يحرسون ساعة بيغ بن من دون مقابل. التائه منهم ينظر إلى السيارات الانكليزية المسرعة، يحسدها ولا يخطر في باله أين يأخذ نيقولاس ليس.

فرّ قلب ليس واستوى لدى العراقيين الذين تجمعوا في «تراڤلغر سكوير» رجالاً، نساءً، وعجائز، وأطفالاً يحملون يافطات تندد وتطلب محاكمة صدام حسين.

تحاول أن تخنق دموعها. فلأنها متفرجة، تمر على العراقيين بنظرة فقط، تماماً كما يفعل السائحون والإنكليز قبل أن تحط أنظارهم على شيء آخر.

كأنها لم تكن منهم، كأنها لم تخف يوماً وهي تسأل العتمة: ترى أين سأنام في ليلة الغد وأين سوف استيقظ؟. كانت كالعصفور الصغير الذي ما إن يطل الصباح حتى يجد في عشه مخلوقات لا تمتّ إلى جنسه.

ورغم حزنها وشعورها بالذنب فإنها كانت تتنفس الصعداء لأنها ليست واقفة بينهم تحمل يافطة، ولأنها ليست من اللاجئين الذين يلتفون حول مائدة مُدَّتْ لهم في كنيسةٍ ما في ضواحي لندن. كانت أمها تبكي وتتنهّد قائلة: «أشتاق حتى إلى غبار النجف»، ليحل محلَّ توقها ولوعتها شعورٌ بالطمأنينة، بل بالسعادة، حين تسمع بحدوث اضطرابات جديدة في العراق داخلية أو خارجية.

ـ «لكنْ يا حبيبتي إذا كنت جد حزينة لماذا لا تظهرين تعاطفك؟ لماذا لا تنضمين إلى المتظاهرين العراقيين؟ شعوري أن حزنك ومخاوفك ليست عميقة. إنك تنفعلين عند سماعك للأخبار وتصفحك الجرائد أو مصادفتك لمظاهرة.. كالآن.

ـ لا أحب أن اشترك بمظاهرة..

اسمعي! الأمر غاية في السهولة. فإذا كان ذلك يعني لك كثيراً افعلي شيئاً.. لكن ربما هناك سبب يمنعك من عدم انضمامك إلى أي تجمع عراقي.. مصادفتك لأم زوجك، أو لزوجك؟

ـ هو أو أمه؟ هناك طبقات اجتماعية حتى ضمن اللاجئين،.. هما لا يفعلان شيئاً من هذا القبيل.. إنهما من الطبقة المترفعة..

كان صالون بيت ليس يتحوّل كل صباح إلى مركز لاستقبال الرجال، حيث تُدار عليهم علب السكائر من خمسين صنفاً، وهم يسبّحون بمسابحهم التي كانت تَصْدر عنها طقطقة كضحكاتهم. يعيدون ما كتبته الجرائد عن الأخبار العراقية وقصص صدام حسين وأخبار الحركات السياسية.

زوجها يبدو في أفضل بذلة، وأفضل كرافات، يجلس فوق الكنبة الوثيرة فيغوص فيها. ساعة معصمه تلمع كالتماع بعض أسنان الزائرين الذهبية. يجلسون جميعاً ولسانهم هو المقارنة: «هذا مليونير، هذا كان مليونيراً، هذا ابن وزير سابق، هذه عائلة السفراء، هم أبناء العائلات العريقة، هم أبناء العائلات الثرية، يريدون سحب العراق من صدام حسين...».

لم تكن للميس أيةُ علاقة بهذا التجمع الذي يجري في منزلها. تراقب وتتأفف من رائحة السيكار، وأحياناً لا تتحمّل احتلال منزلها لهذه الساعات الطويلة فتحتج وتدخل الصالة، تفتح النافذة. وما إن ينصرف آخرهم حتى تهجم وتفتح النوافذ.. ترمي أعقاب السكائر، تنفض الوسائد المخملية، وهي تقارن تجمع زوجها بتجمع آخر من اللاجئين الجدد من العراقيين الذين عذبهم التشرد في كل بقاع الأرض، عربية وأجنبية، قبل استقرارهم في انكلترا، ومع ذلك لم تتوقف معاناتهم إزاء البؤس والإحباط وقلة العيش، بل هم أكثر شجاعة، وهم يعارضون نظام صدام حسين بالكتابة والنشر.

ـ لكنْ يا حبيبتي أنا لا أفهم شيئاً. ما أسمعه الآن يعج بالتناقض. هل تريدين القول إن زوجك وأمه يتنصّلان من لاجئين كهؤلاء؟. ومع ذلك هذه العائلة الثرية أخذتك زوجة لابنها رغم أنك من طبقة أخرى.. أرجوك لا تسيئي فهمي.. أنا لم أنس أنه بزواجه منك كأنه نال أهم جائزة..

لا تفهم ميس لماذا كان نيقولاس يأخذ الأمور بهذا الانفعال وهذه الجدّية، لكنها تمضي تدافع عن نفسها:

ـ أم زوجي حاكت قصة عن عائلتي صدقتها أمام الجميع فقط، بأننا من عائلة اشتهرت بالعراقة والعلم والثراء في النجف والأهوار، وبأننا تركنا كل هذا خلفنا. أما بيني وبينها فقد كانت دائماً تذكّرني من أين أتيتُ، خاصة عندما كنت أُظهر أدنى تمرّد غير مبالية بأني أنجبت صبيّاً، فتغني لي أغنية «البنت الفقيرة» الذي أحبها الأمير لجمالها وهام بها وتزوجها وبنى لها أجمل القصور وأقام لها أفخر الموائد، ومع ذلك ما إن كانت تسمع بائع الخبز ينادي على بضاعته حتى تهب مغادرة مائدة القصر العامرة بكبد الطاووس وبيض السمك، وتسرع إلى النافذة مادّة يدها وهي تستجدي: «يا طاقه عطيني رقاقه».

*

تقرأ: «انديا هاوس، بريتش ليبريري». يطلب نيقولاس كتاب OR5323 وهو يقرأ الرقم في مفكرته الصغيرة.

نظرت المسؤولة في كاتالوغ وإذ رفعتْ عينيها بادرها نيقولاس: «أعرف أنه محظور.. لكنْ هل مس پورتر فوق؟».

ـ انتقلتْ إلى المتحف البريطاني. هل تعرف الدكتور بيكر؟ إذا وقّع لي الورقة جئتُ لك بالكتاب.

امتلأت القاعة بالطاولات الطويلة. ينكب خلفها الأكاديميون الذين يبدون وكأنهم لم يفارقوا هذا المبنى منذ دهر. يضع نيقولاس معطفه

ومعطف لميس على إحدى الكراسي حول الطاولة الأخيرة، ثم يأخذ بيدها إلى خارج القاعة حتى تضع شنطة يدها في خزانة تحتفظ بمفتاحها قبل أن يدخلا الكانتين.

ـ أبدلتم أغطية الطاولات؟

ابتسمت له امرأة الصندوق ولم تعلِّق سوى بهزة من رأسها. أغطية الطاولات كانت من البلاستيك الملون.

يعودان إلى القاعة الفسيحة. يمنح نيقولاس انفراج أساريره للميس وهو يرى المخطوطة في يد الدكتور بيكر في علبة نبيذية اللون. كان يحملها تماماً كما تحمل الأم صينية طافحة بالحلوى تبعدها عن أيادي الاطفال. يتمنّى لهما الدكتور بيكر وقتاً ممتعاً وهو يطلب منهما بكل لطفٍ كاملَ الحرص على الكتاب. كطبيب نسائي يُخرج نيقولاس الطفل من بطن أمه، ساحباً المخطوطة ذات الغلاف السميك بلون البطيخ الأحمر من علبتها.

أسندها إلى حاملة أمامه فوقفت كاللوح، يفلش الصفحة الأولى، ولميس تقرِّب وجهها من الصفحة التي كانت بلون السكر الأسمر؛ إنه ينتظر رد فعلها. لا تعرف لماذا تُصاب بالارتباك. إنها تجهل الصرف والنحو في القواعد. لم تكن تركز اهتمامها في مدارس دمشق وبيروت (لا بأس ساقرأها من غير تسكين إذا طلب مني)، تذكِّر نفسها بأن نيقولاس لا يقرأ العربية، تتبين الحروف والكلمات، التي تكاد تكون تكملة للرسوم ذات الألوان السوداء، الذهبية والنبيذية. كان يفلش الصفحات مسرعاً فلا يتسنّى لها سوى قراءة عنوان

الصفحة ورؤية الرسم الذي يرافقها. تترك كوكبة المثلث، كوكبة النجم، رسم كوكبة الفرس، كوكب الكلب. كوكبة السفينة والكلب يطل عليها وجملة «ما يرى في الكون» ثم جملة «ما يرى في السماء».

يزيح نيقولاس الحاملة الخشبية نحوها، لتجد ليس نفسها مجبرة على تفحص الكلمات. ويخيَّل إليها أنها تقرأ جملة: «ذات الكرسي». يده تتوقف عند كوكبة «ذات الكرسي». يهبط نيقولاس إلى فخذيها. «الجالسة على سنام الناقة حيث تعشعش بين الكواكب النيّرة». تسير يده في بطء شديد إلى أن ترتاح هناك. وليس لا تزال تقرأ: «وعلى وجنتها وعلى رقبتها، جهة صدرها، زندها، يدها». يجد نيقولاس مكاناً لكفه بين فخذيها ليسحبها ما إن استغرقت ليس في القراءة «تثنى على كفها الأخرى، المتكئة على صولجان أو حافة الكرسي، على طية زندها، في آخر طرف جديلتها ثم في آخر قدمها». يد نيقولاس وجدتْ مكانها أخيراً، وتتأمل ليس «ذات الكرسي» وهي تجلس على كرسي الناقة التي لم تكن تظهر في الرسم، «صورتها كما ترى في الكرة الارضية» وقبالتها صورتها «كما ترى في السماء، وما يحدّها من الكواكب».

المخطوطة هي **صور الكواكب** لمؤلفها أبو الحسين عبد الرحمن بن أمة الصوفي، وتعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر.

تدهش ليس لاكتشافها أنّ اللغة العربية ما زالت كما هي منذ أن تركتها: واضحة مألوفة للعين، وفي الذاكرة. حرف السين، المسلسة، السمد، السنام، السادس، السابع، بطليموس، الكرسي، الرأس. حرف السين يشبه موجة بحر، زهرة قرنفل، كأنه جناح طير.

لا بد أن هذا الكتاب ينقل من يد إلى أخرى، من صندوق إلى آخر، من أعلى سنام جمل ليتدلى فوق خرج حصان، ليعبر القوارب والسفن، ثم ليستوي في قطعة من «بحر الظلمات» كما تعلمت في المدرسة.. فهذا البحر المخيف لم تكن تجرؤ السفن العربية على الإبحار فيه، خوفاً من ألاّ تعود وترى السواحل، بل تضيع بين أمواجه العظيمة وغيومه المتلبدة وأمطاره وصقيعه.

كأن لميس اشتمت زهرة الياسمين للتو إذ غاص دماغها في ذبذبات التوتر، وأخذ ينبض ويستقدم المشاعر والأفكار معاً. فهي لم تر مخطوطة قديمة مثل هذه، بصفحات لونُها كالسكر الأسمر ولون الليموناضة الصفراء، رغم أن في علّية جدها كتباً قديمة يسند إليها استكانات الشاي قريباً من المنقلة، فتتمدد الأحرف من سخونة الشاي. وعندما حسبت السنين ووجدتها هائلة، همستْ لنفسها وهي تتبيّن الكلمات والأحرف، وتقرأ الجمل بسهولة عظيمة: «لا أصدِّق أن اللغة العربية لا تزال كما كانت من مئات السنين»، ويخفق قلبها حباً لها. تفكّر أن ما كانوا يتلونه عن ازدهار الحضارة العربية فيما مضى، في المدارس، هو حقيقة، وهذا برهان تاريخها العريق. كانت تفكر في الأيدي التي فلشتْ هذه الصفحات، وتقضم روحها ندماً لأنها فكرتْ وهي في دُبي أنّ كونها عربية عثرةٌ في سَيْر الحياة.

تستحضر الآن جدها وهو يجلس متربّعاً على الأرض وأمامه طاولة، ينكبّ على الكلمات، بعيداً عن ضوء النهار في غرفته، يتوقف من حين لآخر يحتسي الأعشاب المغلية، فاركاً عينيه وهو يشرح لها معنى الكلمات التي بدت وكأنها رُسمتْ:

«كم كتاباً كتبته يدي
سوف تبلى يدي ويبقى الكتاب»(*)

ـ «هل كتبت كل هذا يا جدي»؟ وهي تشير إلى الآف الكتب.

*

كانت ليس تزور جدها في علّيته بعد ظهر كل يوم من أجل أن يرش على راحة يدها نقاطاً من العطر الذي كان يأتي به من مكة المكرمة ويخبئه في درجه. كانت تشمّه وتردّد خلفه: «اللهم صلِّ على النبي وآل النبي» ثم يفك شريطة شعرها، يسرح شعرها بالمشط، يضفره لها، ثم يأتي بالشريطة التي لفها على إصبعه يفردها ويقربها من بخار السمادر وكأنه يقوم بكيها.

عندما أصبحتْ ليس في التاسعة من عمرها، وعت انتقادات جدها لوالديها، وخاصةً لوالدها الذي كان يختفي في السرداب حين يظهر جدها على عتبة البيت، ويلوم أمها قائلاً: «أعرف أنك تتسترين عليه.. أعرف أنه يعزف على العود ويحتسي الخمر.. ويتدخل في خلق الله ومشيئته.. انظري إلى هذه العصافير».. يقول لها وهو يضرب أقفاصها بعصاه، مستغرباً الضجيج التي كانت تحدثه رغم ضآلتها. «إذا كان الله عز وجل أراد لعصافير النغل هذه أن تغني كالشحرور أو الكنار لكان زوّدها بما تحتاجه! زوجك منحلّ».

(*) مخطوطة دمشق ظاهرية ٤٨٧١ ص ١٣٦٠.

ولم تتوقف عن شرودها إلاّ عندما تململ نيقولاس.

- إني أفكر في جدّي..

- في جدّك؟

- هذه المخطوطة تجعلني أفكّر به.. هل كان يتصوّر أن لميس الصغيرة ستصبح في انكلترا وتقع في حب انكليزي؟.

- تعيش في لوندرس.. وتقع في حب رجل من الفرنج!

- هل يا ترى فكّر والداي عندما أجبراني على الزواج والعيش في لندن أنهما يفرضان عليَّ وعلى أحفادهما حياة ولغة جديدتين؟.

- كم أنا ممتن يا حبيبتي لأنهما لم يفكّرا في شيء. فأنا لا أستطيع أن أتصوّر أنك لست في حياتي.

ثم أعاد يده إلى مكانها السابق.

لكنهما حبيبان. وأنفاس الأحباء ساخنة. وأعينهم دائمة الحوار اللاهب، وريقهم يسيل، وأنوفهم كالروايا تتنفس، تشهق وتزفر، وصدورهم كالزجاج، ورقابهم كالقثاء.

كل هذا ضارٌ بالمخطوطة التي كانت محفوظة في درجة حرارة مناسبة، كلميس نفسها التي كانت حتى الآن محفوظة من حرارة العشق التي تشعلها رموشُ عينيْ هذا الفرنجي، فتنسدل من شدة الشوق والهيام بها. كانت محفوظة من الرطوبة التي أحدثتها الآن تنهيدةُ أنفاسه، وكأنها تنبعث من أسفل أحشائه.

جملة: «امرأة ذات الكرسي الجالسة على سنام الجمل» أرخت تلافيف دماغ لميس المنقبضة حول عادتها السرية.

شعرتْ بكل جزء منها يتمدّد، يرتاح فوق المقعد، يترك نفسه حراً طليقاً أمام ما كان يهابه: أمام الرجل.. «أوه ليس هناك ما أخفيه، ليس هناك ما أخفيه».

ثم، ولأول مرة، منذ أن دُثرتْ في حِرام عقب صيحتها الأولى وجدت نفسها عاريةً أمام المرآة الحقيقية: نيقولاس. كأنها طفل يواجه المرآة للمرة الاولى ولا يعي ذاته سوى تدريجياً إلى أن يدرك، بعد لحظات من الشك والخوف، أن الصورة في المرآة هي صورته.

كان من يراها وزوجها يتحدثان في النهار، يظن أنها سكرتيرة أو مهندسة ديكور. كان كرجل مخصي لا يشعر بأية شهوة، وبأي رغبة في احتكاكٍ جسديٍّ بينهما. وإذا حدث أن تلامست أيديهما وهو يتناول فنجان الشاي ، شعر وكأنها جزء من الصحن الصيني. بينما شعرت هي بملمس الجنيهات الانكليزية. ومع ذلك كان المخصي وسكرتيرته أو بائعة الغيارات يتشاركان سريراً واحداً. غزله كان يبدأ بسؤال: هل أنت نائمة؟

ينكب عليها نيقولاس، في شقته، وفي النهار نفسه كما كان والدها ينكب على أوتار العود عندما كان يلاحظ أن النغم يتلكأ قبل أن يصل مكتملاً.

تحتضن رقبته بقوة حتى لا يرى وجهها، وتحتضن صدره، كأن أصابعه هي الملائكة في لوحة «ڤينوس وإله الحرب مارس». تحاول إيقاظ أوتارها المتشابكة والكثيرة، وتنفخ في آذانها من غير جدوى، بل تبقى كمارس الهادئ النائم.

يمس أوتارها وتراً وتراً، وكل لمسة منه كانت تتبدّل: بحسب النغمة التي كان يريد أن يسمعها. وكأستاذ لم يدب فيه اليأس بعد لعدم استيعاب التلميذ لشرحه، يعيد ا لكرة بكل صبر، إلى أن تتململ وتقول في بطنه: «لا بأس أنا سعيدة هكذا، لا بأس، لا يهمني».

ـ «لكن أنا لست سعيداً».

ثم كأم تفطم وليدها عن ثدييها، وهو يصيح ولا يرضى سوى الحليب، وهي لا تطلب سوى ملمس الخشب.

كما الأم تضيف إلى حنانها شراباً لذيذ الطعم، هكذا فعل نيقولاس.

توقّف ورفع نفسه في اللحظة التي شعرتْ لميس أن جسمها أصبح جداراً سميكاً ضد ضربات المياه ورشرشاتها، ومال يتمدّد إلى جانب السور لتجد نفسها تسترق النظر إليه، وهي تنتقل من رقبته إلى كتفيه إلى بطنه، إلى فخذيه، إليه كله. لم تتمدّد وزوجَها هكذا مرةً واحدة طيلة اثنتي عشرة سنة، ولم يكن ينهض من السرير قبل أن يتكوّم على نفسه وهو في قميص بيجامته وأحياناً في بيجامته كاملةً.

تشعر بأنّ عينيها فارقتاها. طارت في الغرفة لترى رجلاً وامرأة، آدم وحواء. تفكر أن الحياة ابتدأت من خلوة كهذه، من يد تتلمس الثدي ويدٍ تتلمس الفخذ، من يد ساكنة،وعين ساكنة، ومن شعور بالالتصاق كهذا.

ثم رفعها وثنى لها فخذيها حتى أصبحت جاثمة فوقه. وسط لميس في ذروة الضياع، لا يدري هل يستجيب لحلمة الثديين وحركة القلب،

أو الفخذين وما بينهما؟ شعورها به جعلها تصبح في نشوة طويلة، وتنسى ملمس الخشب إلى الأبد، حتى خشب الليغنوفيتي الذي اشتهر بنزّ زيوته.

- ٢ -

زوجها وابنهما ينتظران عند باب التروكاديرو. وكانت تحاول أن تتمارض خوفاً من لقاء ابنها. خائفة أن تبكي.. تتشبث به وتبكي وتطلب منه المغفرة. زوجها من دون السيكار الطويل الثخين، إنما بسترة جديدة من الكشمير، ما إن رآها قادمة حتى ودع ابنه قائلاً: «طيّب، لا تتأخر عن دروسك». تستوقف ميس عينيه قبل أن يغادر وتسأله عن صحته. يهمهم بكلمات وهو يهرب. يستوقفه خالد، يريد مالاً. ورغم تدخل ميس بأنها سوف تعطيه ما يريد، يمد الوالد يده إلى جيب بنطلونه ويعطي ابنه عشرة جنيهات.

كانت ميس قد استعدت لمواجهته إذا ما انتحى بها جانباً يطلب منها العودة إليه. أعدّت الجمل التي سوف تنطق بها إعداداً كاملاً وكأنها قامت بختمها بالشمع الأحمر لكنه نظر في ساعة يده. هي عزّة نفسه وعدم تمكنه من الإفصاح عن مشاعره. قبل أن تتجرأ وتطلب الطلاق كان يشهد غثيانها المتواصل، بكاترها، إيصادها لباب الحمام ولغرفة النوم في وجهه، نهوضها في الليل وسفّها للحبوب المهدّئة والمنوّمة. فينصحها بأن تستشير الطبيب لا أكثر ولا أقل. أن

يتزوجها ويتباهى بجمالها وطبعها الهادئ شيء، وأن يعكر هذا الجمال حياته شيء آخر.

هل يعقل أني كنت قريبة من يد هذا الرجل يوماً ما، شاركْته حياته، ولولاه لما كنتُ أقف على أرض إنكليزية ولا كنتُ تعرفتُ بنيقولاس! من قال إن هذا ابني إلى الأبد ولن ينكر أحد هذا الواقع؟

لكن يبدو أن الذي يقف أمامها هو ابنه فقط وابن جدته لوالده التي حضنته حين ولد وهي تبكي حباً له، بينما كانت ليس تبكي لأنها كانت تعاني حصر البول... خائفة من أن تعود الممرضة بالأنبوب المطاطي وتدخله بين فخذيها... خائفة أن تحمل مولودها بين ذراعيها.

ترى الآن كيف التحم هو ووالده ضدها من غير سابق تصميم، كأنهما يغنيان الأغنية المصرية التي كانت تغنيها معه وهما يدلان على المارة:

«سوا سوا والكلب لوحده قاعد يعضوض في جلده».

نظرة منها إلى زوجها السابق كانت كافية لتبدّل رأيها. إنه لا يعرف الغناء، ولا يعرف الدعابة، إنها تشعر بالذنب لا أكثر ولا أقل.

تأخذ ابنها بين ذراعيها، تشم رائحته وتُقنع نفسها بأنها قد عثرت عليه بعد أن تاه عنها لثوان بين الجموع.

- حبيبي كبرت كلش، حبيبي زاد طولك من شهر ونصف؟

أحب هذا العقرب على جبينك وجاكيت الجلد السوداء، آخر موضة!

ـ أوه Shit نسيت أن أطلب منك إقناعه بأن يسمح لي بأن أعود بقطار الاندر غراوند وحدي!

ـ لا تحكي هيجي... المرة القادمة!

ـ هذه المرة على كل حال لن يعرف، سأقول له ماما أوصلتني.

ـ لا. لا. لا.

ـ دائماً، أنتم قطط خائفة، لن يحصل شيء. لست طفلاً. تذكري أني سأصبح في الثالثة عشرة قريباً.

ومسّد شعره بيده.

أرادت أن تضحك. إنه يمسِّد شعره بيده دائماً كأنها عادة في الكلام.

تتأبّط ذراعه وتقول له:

ـ مشتاقة جداً، وجدو وبيبي كلش مشتاقينلك وخالتك وابن خالتك. وأنا تركت دُبي وراح أعيش في لندن قريب من عندك.

ـ كنت متحمساً لزيارتك في دُبي. هل اشتريت لي ما أوصيتك به؟

ـ نشتريها من هنا الآن!

ـ هل يعني لم تشتر شيئاً من دُبي؟ الكل يقصد دبي ليشتري كل ألعاب الكومبيوتر، وأنت كنت هناك ولم تشتر أي شيء.. أمي!

ـ كانت الظروف صعبة وأعصابي هلاك...

ـ لا أصدق. لا أصدق... تكونين في دُبي ولا تشتري شيئاً.

ـ قررت العودة إلى لندن قبل ساعات من إقلاع الطائرة! صدفة غريبة أني وجدت مكاناً لي فيها.

ـ وماذا عن المطار؟ فيه كل ألعاب الكومبيوتر حتى لعبة الطائرة، بأقل من خمسة باوندات.

يطوف في خيالها سمير في مطار دُبي ومراقبتها له، تستحضر نيقولاس، يعانقها فتأخذ نفساً.

ـ ظننت أن جدتك ووالدك أخبراك بما حصل، هل تعرف ما حصل لي؟

ـ أعرف أنهم غاية في البلاهة.

لم يعد خالد يحبني! صُعقت.

كيف يحبها وقد تركته لتعيش في دُبي، رغم أنها وعدته بأن تأتي إلى لندن مرة كل شهرين من أجل أن تراه، وأنّ والده سوف يوفده إليها في دُبي بين الزيارة والأخرى لها؟

«لكنه يحبني»، تطمئن نفسها، ما زال صغيراً على تقديم البراهين على ذلك!

لكن، انتظرتْ حركة ما.. كلمة ما، تمنّت لو أن هناك ميزان حرارة تضعه على جبينه لتقرأ: «أحبك»، «لا أحبك» كالتي كانت تأخذ به حرارته أثناء مرضه.

عندما صاحت بزوجها وحماتها تريد الطلاق كان خالد أمام شاشة الكومبيوتر، يتحاور مع صديقه تيموثي، وإذا به يرفع نظره عن

الكومبيوتر، ويسألها أفعلاً ستطلّق والده؟ لا بدّ أن نبرة صوتها أوحت إليه بأنها جادّة هذه المرة. أسرعت إليه تحضنه: «كلش عزيز عندي وأنا أحبك هوايه هوايه»... وإذا به يعود إلى صفحة في بريده الالكتروني ويطبع: «لا أعتقد أنهم سيطلقان، إنهما يتخانقان كالعادة. لن يطلقا».

دخلا «پلانت هوليوود». لم تستطع أن تلفت انتباهه أو تجره إلى أي حديث. كانت عيناه على الشاشة، وكذلك أذناه، فقط فمه يمضغ الطعام. تريد أن تحاكم نفسها الآن، حتى يصدر حكمه إما بإدانتها حتى تبرّر له ما فعلته، أو ببراءتها لتفرح. كان منهمكاً يحاول أن يعرف أسماء الأفلام من خلال المشاهد، وبطريقة مواربة كان يريدها أن تشتري له جاكيت جلدياً أحمر باسم المطعم. تسأله «هل ارتديتها؟ ظننت أنك أصبحت صديقاً لبروس ويليس أو شوايزارهوف؟» يعلق ساخراً: «شورزنيغر، ماما، شوايزهوف اسم الفندق في سويسرا».

ثم يقول:

ـ ماما، ما عدت أحب هذا المكان. إنه يجعلني أشعر بالغثيان من شدة الضجر. من فضلك خذيني إلى الأكواريوم.

ـ في حديقة الحيوانات.

ـ لا قرب بيغ بن، بعد جسر واترلو... التاكسي يعرف!

ـ أكواريوم، للسمك؟

ـ لا، للفيلة!

تبتسم له، تفضل وقاحته هذه على أن يكون معذباً لأنها تركت البيت.

يوقف تاكسياً بلمحة ويشرح له أين: County Hall.

كان الأكواريوم في بناء قديم يواجه النهر وبيغ بن. هدوء المبنى جعلها تفكر أنه المكان المثالي لتتحدث وتشرح له كم تحبه، رغم أنها تشعر باستقلاليته التامة عنها. تفكر لو أن في حوزته الكثير من المال لما احتاجها حتى يتفسّحا معاً. ولّت الأيام التي كانت له الدليلَ يحتمي به خارج البيت، واللسانَ الذي ينطق به حتى يرى ويجرب ويطّلع. لم تكن تعرف أنه مهتم بالأسماك، بأي شيء خارج التكنولوجيا. والأكواريوم لم يكن هو مقصده إذ لم تَحُز الأسماك وحيوانات البحر منه سوى نظرة خاطفة.

كانت والدتها وهي صغيرة تقول لوالدها شيخ الدين، فيما تصدح أغنية في المذياع وهو يدير زره باحثاً عن القرآن المرتل: «بابا هذه هي المحطة، بعد الأغنية مباشرة سوف يرتل القرآن».

يجرها ابنها إلى الأركيد، محطة نامكو المجاورة للأكواريوم، حيث البريق يلتمع في الأعين وينبع من الأدراج، من الممرات، الجدران، من السقف والجوانب، أزرار وأضواء ملونة وفلاشات وموسيقى، كأنهما يدخلان لاس ڤيغاس. يهجم خالد على سيارة سبور حمراء. يجلس على مقعدها تاركاً الهواء البارد يلاعب وجهه وشعره. يدخل في سباق، يخترق الشوارع وهو ينادي: «داأسوق ماما... أريد أتعلّم السواقة».

ينتقل من لعبة إليكترونية إلى أخرى. هو طيار. جندي. عليه أن يبيد الدبابات التي كانت تفجر كل ما في طريقها. هو محترف سباق

سيارات. هو الجبار الذي يكبل المرأة بسلاسل من حديد. يضربها بها ثم يلعق القيد وينظفه. لم يكن يسمع أمه، بل كان يحثها على أن تلعب معه بتوسّل شديد للحظة، ثم ينسى وجودها ويسرع في الحماس والصياح. تعتاد لميس البرق، والصخب، وتصبح كالبنك المتنقل: تُلقم الپاوندات في أفواه هذه الآلات.

ـ ماما ٥٣ فيديو وألعاب، أريد أن أجرب choker، تيموثي أخبرني أنها عظيمة! Cool.

ـ لا، لا تحاول. لا، يعني لا. هذه كرسي كهربائي!!

ـ لا، ماما إنها ليست حقيقية، إنها مزيفة.

ـ أعرف. فكرتها تزعجني. لا.

ـ ماما! إقرأي. إقرأي أرجوك!

تقرأ: Simulate lethal voltage with intense vibrations. Totally safe.

(جرب الكرسي الكهربائية. امتحن قوتك. هل تستطيع التحمل؟).

ـ هل قرأت؟ يقولون إنها غير مؤذية.

رجل يجلس على الكرسي، يقبض على مقود، والأضواء تلمع في وجهه. يكشّر، يصيح، يهتز، ثم يفارق الكرسي وهو يقول لصديقته:

ـ عظيمة! يشعر المرء أنه يمس تياراً كهربائياً مميتاً.

تبتعد لميس وتجد أنها عادت أمّه، وهي تجره من يده، كأنها لم تزل في البيت. لا يصدق خالد أن أمه لا تعرف كيف تمارس هذه

الألعاب. أخذ يعلّمها وهو مازال يأكل رقائق البطاطا ولوحاً من شوكولا الكيت كات. الأضواء المشعة والصخب والبرق وأدرينالينُ ابنها تتمكن منها أخيراً. تشعر أنها في هذا العصر، وأنّها من عمر ابنها في مدينة العجائب والغرائب الإلكترونية. يمدها هذا الشعور بالألفة والدفء. بدا طلاقها أمراً لا بد منه، تهجس أن نيقولاس كان صائباً في حثها على أن تجعل ابنها يختار نزهته. تركب السيارة الحمراء Ridge Rider، عند باب الخروج والدخول، يصفع الهواء البارد وجهها، وتجد نفسها تضع قدمها على مداس البنزين وتضغط.

انتظرا التاكسي، وهما أمام بيغ بن، وأمام النهر والجسر. الغسق في لندن هو أجمل الأوقات في الصحو، والسماء قلما تمطر في هذا الوقت، بل تتلوّن بلون الشفق وتبدو وكأنها استعارت سماء أخرى من حقل شقائق النعمان. يقال إن هذا لون التلوث، ولندن هي جزء من الجزيرة التي تريد أن ترى نفسها فتبعد غيوم النهار لتظهر الشمس وهي تغمز برموشها قبل أن تتوارى وتحل السكينة.

يدلفان إلى التاكسي وتطلب من السائق إيصالهما إلى منطقة «ريجنت بارك». أخذته في حضنها لأن حنجرتها غصت وهي تسأله:

ـ حبيبي، هل تريدني أن أعود، هل تشتاق إليّ؟

ـ أشتاق إليكِ، كنتِ دائماً غير سعيدة، كنتُ أراكِ تبكين.

تبكي الآن وهي تضمه إلى صدرها فيشد عليها هو الآخر.

ـ أحبك ماما.

تحتضنه من جديد، وتغالب شهقة. إنهما يقتربان، والتاكسي يمر من أمام تمثال البرونز الذي كان يقلق ليس كلما رأته أو فكرت به. تمثال امرأة تقف وكأنها فوق مغارة ترفع يدها إلى عينيها أو جبينها، تريد أن تحجب الشمس أو المطر، لترى القادمين في الأفق، تستفسرهم عن سبب تأخرهم. (لا بد أن حماتي هي التي أوعزت إلى هذه المرأة أن تتجسّس عليّ).

تطلب من التاكسي أن ينتظر ريثما ترى ابنها. ضغط الأرقام الإلكترونية حتى يفتح باب العمارة. لو تلحق به وتحتضنه وتشده إليها. ينقبض قلبها ما إن رأت الباب الحديدي المزخرف بالنقوش الذهبية يغلق خلفه، ثم سرعان ما استعادت الطمأنينية لأنها خارجه. ينطلق التاكسي بها. تمسح دموعها.

«هذا البيت سيسعدني» فكرتْ فيما مضى، عندما وقفت تطل من نافذته على ريجنت پارك تحت تماثيل وزخرفة زرقاء تذكّر بالرومان واليونانين، لا بالضباب والأبنية الإنكليزية. ولكنها راحت تعترف لنفسها يوماً بعد آخر أن هذا البيت هو سجنها، تطل منه على الأشجار، وعلى العشاق الذين ينظرون إلى هذه البيوت المشعة الرابضة تحت التماثيل. يتمنون لو كانوا فيها، ساهين أن في هذا البيت بالذات تقف امرأة تحسدهم.

ما إن تلفظ اسم «بيمليكو» للتاكسي حتى تتسلط عليها السخونة. كانت أمها توصيها: «على زوجك أن يرى الفراش أمامه كلما رآك».

وها هي الآن تفكر في نيقولاس.. تفكر أنه ينتظرها في الفراش.

- ٣ -

أعدّت أميرة كل شيء من أجل أن تحمل لقب أميرة. ولم يعد هناك سوى أن تنفخ الروح في نفسها. سألتْ واستفهمتْ، أجرت المكالمات الداخلية والخارجية، قامت بتسجيل لهجة زبائنها من الخليج. اتصلت بالسفارات والمكاتب تسأل الأسئلة التافهة من أجل أن تسمع هذه الكلمة أو تلك. «وش هو؟ ما أبغي، ما أبّي إلا، شلونه، أبّي أروح ما أبيك».

أية شخصية عليها أن تكون؟ الأميرة الحالمة التي تحب نظم الشعر، المدمنة على رؤية الأفلام والتعرف بالنجوم، التي تترأس الجمعيات الخيرية، العصرية التي تعرف كل المطاعم والمحلات والنوادي. وماذا عن الأميرة التي تكرس حياتها من أجل أن تكون جميلة، ولو خضعت لعمليات التجميل؟

بمساعدة الحلاق وسيم استطاعت أن تعمل مترجمةً لدى أميرة حقيقية كانت تجري عملية جراحية في «لندن كلينك». أصبحت صلة الوصل بين الأميرة وبين الطبيب والممرضات والمستشفى، بين حاشية الأميرة ومطبخ المستشفى، تطلب لهن الأكل والقهوة والشاي، تزوّدهن

بأفلام الفيديو بتلفزيون ذي شاشة أكبر من الحالية. انتبهت وتعلمت حرارة الصوت وانخفاضه، وإشارات اليد، ومتى تبتسم، ومتى تضحك، متى يتجهّم وجهها، متى تنصت، متى تتكلم، متى تكون غاية في الكرم، وكيف تتحدث مع أفراد عائلتها عبر الهاتف.

وعندما أطل اليوم المعهود، غادرت أميرة شقتها بتايور مؤلف من سترة وصلت إلى ما تحت الخصر، وتنورة طويلة. الشعر أسود فاحم. عباءة شفافة سوداء فوق الكتفين. ساعة معصمها وخاتم أصبعها وبكلة شنطة يدها المصنوعة من جلد التمساح تلتمع جميعها مُثْبتةً تميزَها.

طلبت من سائق الرولس رويس موافاتها لدى صالون وسيم. خافت أن يفضحها بواب عمارتها وسمير والسعدان.

كانت المرافقات الثلاث في انتظارها لدى وسيم. بعد أن تأكدت من ملابسهن ومظهرهن أخذت توصيهن بألاّ يسرعن، بألا يفتحن باب السيارة، بل عليهنّ أن ينتظرن السائق أن يقوم بهذا طوال الوقت. ويبدو أن توصياتها لنفسها ولهن التي ابتدأت منذ أيام، وكذلك فخامة السيارة، والتوجس من الفشل قد ساهمتْ في جعل النساء الأربع غايةً في الاضطراب، ولم يضحكن جميعاً إلا عندما قالت لهن أميرة: «مالنا عاملين زي الثعابين اللي تأكل أذنابها؟».

كانت قد عينت البنك، مكان الحيلة الأولى لسببين: الأول، لأن البنك لا يوحي بأجواء الاحتيال؛ كل ما به منظم ومعروف من الحوالات والشيكات إلى النقود. السبب الثاني، لأن الضحية سوف تكون قريبة من مالها.

يتوقف السائق لدى البنك العربي في پارك لين. ولم تترجل أميرة رغم أنه فتح لها الباب وانتظر، بل مدت إليه بورقة زرقاء كانت قد طَبَعتْ عليها بأحرف عربية نافرة غايةٍ في الأناقة: «العنود بنت.. بن.. بن..»، بالعربية.

ـ اسأل البنك من فضلك إذا وصلتْ حوالتي من المملكة؟

ـ لكن هل تظنين يا صاحبة السمو أنهم يأتمنونني؟

ـ كل ما أطلبه منك أن تسأل إذا وصلت الحوالة، وبعدها أَدخل بنفسي..

ـ طبعاً، طبعاً، سمو الأميرة..

كانت أميرة قد استأجرت هذه السيارة وسائقها من مكتب لمدة ثلاثة أيام بعد أن قصدته بنفسها، ودفعت مسبقاً ما يتوجب على الأميرة العنود بعد أن وقَّعت الإيصال باسم «أميرة فايزة، مرافقة ومترجمة للأميرة».

لم تعد المكاتب تثق ثقة عمياء بكل من يأتي طالباً استئجار سيارة الرولس رويس أو مرسيدس لأمير أو أميرة، خوفاً من اختفائهم قبل إتمام حسابهم، باستثناء من هم معروفون شخصياً لديهم.

وكانت الأميرة صدقت أنها في انتظار حوالة من عمها من المملكة، إذ أخذت تسبِّح في مسبحتها إلى أن سألتها إحدى المرافقات إذا كانت ناهد فعلاً مريضة؟

ـ ناهد؟ لا، أبداً، كيف سمعت بهذا الخبر؟

ـ يبدو أني أخطأت..

تسرع أميرة تدير تلفون ناهد النقال، ولدهشتها أجابت ناهد..

ـ ايه يا نذند العنود وياك، انت فين.. ايوه الساعة السابعة.

تعيد التلفون إلى شنطة يدها وتمازح البنات.

ـ كلما نوت أخت ناهد زيارتها.. ناهد تمرض..

يعود السائق، يخفض رأسه، ويتحدث مع أميرة عبر النافذة:

ـ آسف، لم يصلهم شيء إلى الآن، يا صاحبة السمو. اقترح عليّ أحدُهم أن أجرب بنك الرياض أو بنك الكويت.

ـ لا بأس، شكراً، سأفكر بما عليّ أن أفعله..

يدخل السائق السيارة وما إن يدير المحرك حتى تطلب منه أميرة الانتظار فيجيبها بكل أدب وطاعة بعد أن اطفأ المحرك.

ـ لا تستطيع الوقوف هنا، لكن سوف أتدبر الأمر في حال قدوم شرطي سير...

لكن أميرة بدّلتْ رأيها وطلبت منه الدوران حول البنك، مرة وثانية، قبل أن تطلب منه التوقف لتترجل ومرافقاتها اللواتي اضطررن إلى التوقف عن نفخهن للبان البازوكا. تسرع حتى تصل إلى عتبة البنك في اللحظة التي هم فيها رجل في الستين من عمره بدخوله. وحين رآها ومرافقاتها تراجَعَ فاسحاً لهن الطريق.

لم تشكره، بل لم تنظر إليه كأنه غير موجود أو كأنّه أحد حراس البنك. لم تقف ومرافقاتها في الصف بل جلست على المقعد مع واحدة

منهن وما إن أتى دورها حتى اتجهت إلى موظفة البنك ودعت مرافقتها لأن تسأل عن الحوالة بصوت يكاد لا يخرج من فمها وبلغة انكليزية متعثرة. تطلب الموظفة الانكليزية موظفاً عربياً فيأتي بلمحة بصر. تسأله أميرة عن الحوالة بعد أن تلفظ اسمها بكل وضوح، فيرن اسمها في أرجاء البنك، ولا بد أنه رن في أذن الرجل الستيني.

كان يتأمل الموكب وينتقل بين النساء الأربع اللواتي كن على أتم هندام وعباءاتهن مطروحة على الكتفين أو ممسكة باليد. يستأذنها موظف البنك ليستشير الكومبيرتر، وما إن تتكرم عليه أميرة باسم عمها حتى يسرع طالباً إليها الانتظار في غرفة الانتظار المخصصة لأصحاب المراكز. لكن أميرة تعتذر وهي تنظر إلى ساعة معصمها مفضلة الانتظار حيث هي. وتعود إلى مقعدها. تلمح الرجل الستيني يهمّ بالمغادرة. تنهض مسرعة باتجاه الباب مع مرافقة واحدة لها وأخذتْ تتحدث في تلفونها النقال:

ـ «ما أعرف شو سوي. والله ما أعرف الحوالة ما وصلت، سمي عالنبي. أنا على باب البنك والراجل بتاع الشقة المفروشة ما صابر. السفارة؟ أموت ولا اسألها. يرسلو للبلد للتأكيد، والوزارة تتصل بأهلي، ثم ليعودو ليتصلوا بالسفارة... ». طبعاً كان الرجل العربي يتنصت عليها، لذلك قالت:

ـ «أنا بنفسي على باب البنك. طفشت، والله طفشت».

تقفل السماعة، تضع يدها على جبهتها ثم تتمتم للوصيفة: «رأسي ثقيل مرة».

تسندها الوصيفة وهي في طريقها إلى التهالك، ثم تلتقي عيناها بعيني الرجل العربي فتسترجع رباطة جأشها وتقول له كمن تعتذر: «طفشتني البنوك والحوالات مرة».

ـ آسف لكن سمّي طال عمرك، سمّي.

ـ شكراً.

ـ أرجوك، ولا مؤاخذة اعتبريني بنكاً، عندما تصلك الحوالة ترجعينها.

ـ شكراً يخلّيلك أحبابك وأولادك.

يقترب منها موظف البنك مع موظفين آخرين، قدّم أحدُهما نفسه إلى أميرة:

ـ نائب المدير، يسعدني ويسعد البنك أن نقدم إليك كل ما تحتاجينه الآن.

تشكره أميرة رافضةً رفضاً قطعياً، ثم تلتفت إلى الرجل الستيني تشكره مرة أخرى.

لكنه يصر عليها ما إن ينصرف موظفو البنك:

ـ سمّي، طال عمرك نحن في بلاد الغربة بعاد عن الديار.

ـ لا، شكراً أرجوك.

وإذا بالوصيفة تنطق بكلمة «يا عمتي» كأنها تود اقناعها.

تصمت أميرة وهي تنظر إلى الأرض بخفر شديد وكأنها طفلة بالت أمام الناس. السكوت علامة الرضا.

ـ عشرة آلاف، طال عمرك، كفاية؟

ـ اعطيك ساعتي، ثم...

ـ لا لزوم!

ـ مشكور.

ـ تفضلي، استني بالسيارة. دقايق.

دخلت سيارتها وهي تجر نفسها جراً من التعب وخيبة الأمل من البنوك وتعقيداتها. أخرجت مسبحة تسبح بها، بينما وقف السائق الانكليزي إلى جانب باب السيارة. وما إنّ أطلّ الرجل مهرولاً نحوها حتى أنزلتْ زجاج الشباك، تسأله عن اسمه وعنوانه قبل أن تمد يدها فيجيبها: «لا لزوم»، وعندما أصرّت قال لها بكل أدب: «اسمي حارس ومقيم في الدروشستر».

ـ دوّني يا بنيتي، الدورشستر، السيد حارس. إنْ شاء الله في الغد نتصل بك ونرد لك معروفك.

يمد لها عشرة ظروف، فتأخذها بكل هدوء، وتبتسم له بكل هدوء، وتودعه بكل هدوء. تنتظر لحظات قبل أن تفتح أحد المغلفات وإذا بكومة من فئة الخمسين تغمزها.

تسأل أميرة السائق الذهاب بهن إلى مطعم لبناني في «شيپرد ماركت». وحين دخلت أميرة وحاشيتها أسرع السقاة ومدير المطعم يحومون حول النساء الأربع، ويقودونهن إلى أفضل طاولة في المطعم.

أخذت الأطباق تتهافت على الطاولة من غير أي استفهام أو سؤال، حتى تخطت العشرين.

فقط عندما هجمت أميرة ومرافقاتها على الأكل بشراهة ومن غير توقف تبين لهن كم كن يعانين من الاضطراب والتوتر وهن في البنك. عندما سألت المرافقة الغرسون ليأتي لها «بقشة أسنان» لم تدعها أميرة تستعملها.

تذكرن فجأة السائق ، وعندما اقترح عليها الغرسون أن يأخذ له الأطباق التي لم تُمسّ مِنْ على المائدة، رفضت المرافقة هامسة:

ـ «لن ترضى الأميرة.. أعطه لائحة الطعام ودعه يَخْتر ما يشاء».

شعرت أميرة أن مرافقاتها قد استنفدن كل الصبر، يردن حصتهن حالاً. أين ستذهب بهن؟ إلى ناهد؟ لكن تلفونها النقال لا يجيب. تركت يديها تفتحان أحد المغلفات من غير أن تنظر إلى ما تفعله. ثم تعد خمسمئة جنيه لكل مرافقة. اعترضت إحداهن على المبلغ:

ـ لكن يا أميرة حصتك عشرة الاف!.

ـ أنا الأميرة (قاطعتها أميرة ثم أعطت لكل منهن مائة جنيه زيادة،. ورزمة صغيرة الى واحدة منهن، طالبة أن تدفع الفاتورة والبقشيش بينما اصطف السقاة وكأنهم ينتظرون أوسمة من الملكة).

غادرت أميرة الطاولة وكلها شعور أن الأعين لم تفارقها، خاصة أحد الزبائن الذي حدّق بها حين دخلت المطعم ثم صرف النظر عن أن تكون مَنْ ظنها. فقد تبدّلت أميرة، لا لأن شعرها أصبح أسود، قصيراً، ووجهها تركته من غير مساحيق، والسترة التي ترتديها لا تظهر حنايا جسمها، وإنّما لأنّ عينيها هما اللتان تبدلتا، لم تعودا جائعتين تخططان وكأن في كل عين يربض ثعلب، بل سعيدتان، مكتفيتان، ضجرتان.

اتجهت السيارة بهن الى أولد بند ستريت. مدّت أميرة لكل منهن شنطة يدها حيث خبأت القرآن، من أجل أن يقسموا يميناً بألاّ يفشين سرّها، مؤكّدةً أنها ستزيد من حصتهن في المرة القادمة.

ـ والآن، سأشتري لكلٍّ منكنّ هدية صغيرة لدى «كارتييه».

يدخلن المحلّ العريق، يسرع المدير ملبياً طلب أميرة، يأتيها بالقطع النادرة من خزنته. وللحظة آمنت أميرة أنها فعلاً أميرة إذ كانت تثق بذوقها بما تحب ولا تحب. يغادرن محل «كارتييه» وتوبّخ مرافقاتها لأنهن لم يخترن شيئاً، لتجيبها أفطنُهنّ بسخرية:

ـ كل ما اطّلعنا عليه كان ثمنه أقل مما في حوزتنا.

ـ أعدكن بشرفي بأننا في الأسابيع المقبلة سنشتري شيئاً من «كارتييه».

بعد أن أوصلتهن إلى صالون وسيم طلبت من السائق أن يأخذها إلى بيت ناهد. استدعت في خيالها شقيقيها اللذين قطعا علاقتهما بها نهائياً، ما إن ألمّا بمهنتها، وخاطبتْهما:

ـ «ألم أقل لكما إني سأصبح ثرية؟ انظروا ما يوجد في شنطتي.... ابنة ساقي الماء أصبحت أميرة تحمل جواز سفر انكليزياً»....

*

منذ ذلك اليوم وأميرة ومرافقاتها يعملن بلا توقف. هي العقل المدّبر، تُعدّ الخطة حسب الأجواء، وحسب الفريسة.

كانت دائماً تبدّل أسباب احتياجها العاجل إلى المال، لم تكن تعطي السبب نفسه أكثر من مرة، لتكتشف أن أبسط الأعذار هي أكثرها إقناعاً.

حتى اعتذارها أحياناً لعدم ردها الديون كان في منتهى الحيلة والابتكار. الحوالة ضاعت والبنك يحقق فيها، ولا تنسى أن تتهم البنك بأنه يستعمل المبلغ ليزيد من فائدته. وكانت تتلو عليهم القصص الطريفة.. كيف أن أمها فتحت الحقيبة التي أتى بها المرسل من أخيها وأخذت تتهمه بالضحك عليها وهي ترى الشيكات السياحية، واجبرته على إعادتها: «هذه أوراق، ليست جنيهات انكليزية، أين رأس الملكة والتاج؟ لا أحب الورق. أريد المال». كتلميذة مدرسة تتردّد أميرة قبل أن تصرّح:

ـ «أخجل أضايق عمي؟ أخجل أضايق والدي، مشغول مرة. أخاف يقولوا ارجعوا من لندن... أو لا يسمحوا للحريم تسافر مرة ثانية». لتضيف أنها تقاسي لأنها أميرة؛ فالأعين عليها عشرة عشرة.

ثم جاء اليوم الذي دفعت فيه أميرة ديونها بطريقة أخرى فضلتها على كل الطرق الأخرى وتركتها مطمئنة النفس والبال. كانت في فندق الكلاريدجز تحتسي شاي بعد الظهر على ألحان الفرقة الموسيقية، المؤلفة من أربع شابات، وحولها النساء الأميركيات والإنكليزيات في قبعات تشبه أغطية أباريق الشاي.

فندق الكلاريدجز لم ير كهذا المنظر من قبل أميرة ووصيفاتها الثلاث، وإحداهن ترفع السترة عن كتفي أميرة والأخرى تصب لها

الشاي والثالثة تترك أميرة تضع لها الفوطة على حضنها. كن يشربن الشاي ويتهامسن ثم يعضضن أكفهن خجلاً ثم يخفين أفواههن كلما ضحكن. بينما تجلس أميرة بكل هدوء واتزان تخفي رعبها ألاّ تستطيع الإيقاع بالفريسة. من قال إنها ليست أميرة؟ تسأل نفسها لتجيبها بسرعة: الأميرة الحقيقية لا يصيبها القلق، ولا الرعب، إذ كل شيء ـ من الناس، إلى الأرواح، إلى الأشياء ـ في متناول يدها. المهم، أن تترك الجنيهات الكثيرة في الصحن.

عندما انقطعت آمالهنْ في رؤية الزبون العربي الذي أخبرت ناهد عنه، النزيل في الكلاريدجن، أخذن يتشاورن في الانتقال الى الدورشستر رغم تحسبهن لوجود الأميرة الحقيقية هناك. وإذا بالزبون العربي يدخل وبصحبته ثلاثة رجال من إيران، ليقع اختيارهم على طاولة مجاورة، خاصة أن عباءة صدر باملا اندرسون انسدلت عن ظهرها.

تناولت أميرة تلفونها وحاولت استعماله ثم أشارت إلى مرافقتها بأنه لا يعمل. فما كان من المرافقة إلاّ أن استعارت من الطاولة المجاورة تلفوناً وهي تشرح للزبون العربي أن بطارية تلفون الأميرة قد فرغتْ، مؤكدة له أن مكالمة الأميرة ستكون للندن لا للمملكة.

تمد أميرة التلفون لصدر باميلا أندرسون وهي تشكر الرجل بإيماءة من رأسها، والرجل هو الذي ينهض ويستلمه بنفسه، ثم يعود إلى طاولته. تنحنحت، وصَحيتْها وصيفتُها، وسارت بها إلى الحمام كالأميرات. ظهرها مستقيم وكأنه صفحة رخام، وخطواتها

بطيئة. وعندما رجعتْ إلى الطاولة، شاهدت الوصيفتين عن بعد تتحدثان مع الرجل. كانتا تؤكدان له أنهما ستأتيان في الغد لأن الأميرة تحب الكلاريدجز؛ فهي قد وُلدتْ في أحد أجنحته.

في اليوم التالي أطلّت الأميرة. زادت من مجوهراتها، خلعتْ سترتها، فبدت بلوزتها الحمراء فوق ثدييها البارزين. بدّل الرجل رأيه فيها ورآها أصغر سناً وأكثر جمالاً. لم تنظر إليه رغم أن إحدى الوصيفتين همهمتْ بإشارة بأنه هنا. أكلت قليلاً من قطعة الكاتو بكل تأنٍ، واحتست الشاي بكل هدوء، ثم طلبت من الغرسون المزيد من الساندويتشات والكعك للبنتيْن. دق التلفون النقّال فأجابته الأميرة، ثم صاحت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فين، فين، مستشفى لندن؟ أعوذ بالله. يا إلهي، يا إلهي، ما يخالف، السواق. آخذ التاكسي، لا والله لا والله. عجيب، عجيب، لا أدري هل قلت لهم الأميرة ابنة... قلت لهم عن عمي، عجيب. خليني اتصرف، عجيب». ثم تمسك أميرة رأسها فتقدم إحداهما كوب الماء إليها، تحيطان بها، تريدان أن تسمعا ما حصل، وفي الوقت نفسه كانتا في أشد القلق عليها. تقول: «كوثر علقْت إيدها بالأسانسور، هي في المستشفى، هاتوا الحساب». تفتح حقيبة يدها فتأخذها الوصيفة وتشير بها إلى الغرسون «الله تعالى يبعد المكروه عن كل انسان، لا أعرف، عايزين مني حتى اسأل، والله لندن مرة غريبة»، وهي تدل بيدها فيأتي الغرسون، تنظر في ساعتها وتسأله: «متى تقفل البنوك؟»، يجيبها «الساعة الرابعة والنصف». تمد له الوصيفة ٥٠ جنيهاً، يتردد في أخذها، فتستدرك قائلة: «نحن ندفع» يفهم ما تقصده ويشعر بالخجل لأنه ظن أنها تدفع له بقشيشاً لقاء إخبارها عن موعد إقفال البنوك.

وكالأشعة تحاول أميرة أن ترسل أفكارها إلى الرجل:

ـ «والله ما أعرف كيف أتصرّف. لماذا لا تعطيني ثلاثة آلاف باوند من جيبك؟ أعرف أنك كل يوم تسحب هذا المبلغ من أجل كازينو القمار كل ليلة. إني انتظر انتظر، انتظر». تنظر حولها وكأنها تستنجد، والبنتان بدتا كاليتيمتين، وإذا بالرجل ينهض ويتقدم إليها وبكل احترام يسألها إنْ كانت تحتاج إلى مساعدة؟

ـ هل صحيح أن المستشفيات تطلب بطاقة أميركية أو شيكاً؟ والله ما عندي هذا ولا ذاك. الملكة ترسل لي كل يوم جمعة شنطة فيها المال، واليوم هو الأربعاء.

ـ أرجوك لو سمحتِ لا مؤاخذة، دعيني أمنحك ما يلزمك.

ـ شكراً، أخاف أخي يغضب عليّ.

ـ لن يعرف. عندما تأتيك الشنطة تدفعين لي.

ـ لكن البنوك مقفلة.

ـ لديّ نقدي. هل ثلاثة آلاف باوند كفاية؟ أستطيع أن أزيد عليها.

ـ «مشكورة»، يقول لها عندما تستلم منه المال الذي كان قام بتوزيعه من جيوب جاكتته،وبنطلونه ومعطفه. تجيبه في قلبها: «أنا سيدك رغم أني أستدين منك». يسألها إذا كانت في حاجة إلى أن يرافقها إلى المستشفى: «اعتبريني أخاً لك».

لكن أميرة سألت إحدى المرافقات أن تدوّن نمرة هاتفه من أجل الاتصال به «عشان تطمئن».

ذهبت في اليوم التالي وحيدةً، ثم سألته إذا كان باستطاعتها الاختباء في غرفته ساعة أو ساعتين خائفةً من أن يراها أحد.

ـ «لقد تحايلت على أمي وعلى عمتي وعلى الجميع، حتى على السائق، من أجل أن أراك».

وعندما صعدا واكتشفت أنه لا يقيم في جناح بل في غرفة فقط، ارتبكتْ واعتذرت منه. لكنها لم تغادر، بل جلست على المقعد الوثير. «لا بأس أنت كأخي، لقد كنت غايةً في النبل والشهامة البارحة، الشهامة العربية الأصيلة. لا بدّ أنك تنظم وتتلو أبيات الشعر». ثم أخذت في تلاوة الشعر الوحيد التي كانت تعرفه:

«أَريقُكَ أم ماءُ الغمامةِ أم خمر

بفيّ برود، وهو في قلبي جمر».

وسمحتْ لدمعة أن تسقط على خدّها. طلبت منه كبس زر التلفزيون، جلسا يشاهدان معاً شيئاً. أخذتْ فجأةً في البكاء، لتعبّر عن نفسها وعذابها:

فهي الأميرة المكبوتة، المظلومة تصيح بأنها لا تريد مجوهراتها. تخلع عقدها، تفك سوارها، وترمي بهما وسط الغرفة. تشد بسترتها وقميصها وتظهر صدراً نافراً وحمالةً من الدانتيل الملوّنة.

«من أول ما شافت عيوني النور وأنا محرومة من العاطفة ومن الحب»، قالت هذا وهي تتمرّغ على السرير، مغمضة العينين، ثم رمت نفسها على الأرض، تتصنّع الظن أنها كسرت يدها أو فخذها وأخذت تولول وهي ترفع تنورتها وتكشف عن فخذيها.

«يدي مكسورة؟ قدمي مكسورة؟»، تضع يدها على فخذها، تتصنع الهلع، والرجل الراكع الذي لا يجرؤ على لمسها، يسمعها تهمس في أذنه بأن روحها طلعتْ لكلمة حلوة، للمسة يد حنونة.

ثم تمسك بيده وتقول بلهجة درامية:

«لقد جفّ حلقي من كثرة ما بلع من دموع... لا بدّ أن اسمي هو السبب: العنود.. عنود، الغيمة المليئة بالمطر... بالدمع» ثم كأنها تثبت الرجل فوقها، ليفحص يدها وفخذها. تململها وهذيانها كانا يجعلانها تتحرك بوقع خاص يهيج الرجل ويجعله يقتحمها غير مبالٍ بحسب هذه المرأة أو بنسبها، ولا إن كان ما يفعله سوف يوقعه في مشاكل. عندها ومع الايقاع الروتيني للمضاجعة كانت تنسى أنها أميرة وتعود إلى مهنتها فتقفز منها كلمة أو حركة لتزيد من حماسة الرجل رغم دهشته بما صدر عنها، إلا أنها سرعان ما تتنبه إلى غلطتها المريعة، فتعود تلفظ كلمة يقرب وقعُها من الأولى، ثم لتلم نفسها وكأنها ما قصدتْ بتلك الحركة الجريئة ألا التقوقع والخجل. كل هذا وعيناها مغمضتان، لا تفتحهما حتى وهي تنزل من تنورتها بل عندما تلم المجوهرات وتكبس أزرار بلوزتها وتحمل حقيبتها وتترك الرجل، الذي كانت سعادته لا تفوق سعادة أخرى، كأنه ضاجع لتوه حور العين اللواتي يعده الله بهن. هل يصدق حقاً أنه امتطى أميرة؟..

أميرة مكبوتة، حزينة؟

كان قد فكّر أنّه بمساعدتها مادياً قد تمطّى حتى طال عائلتها التي لا بدّ أن تكون ممتنة له أشد الإمتنان. هل فعلاً ضاجع شقيقة (...) أو ابنة (...)؟

في هذا الفندق الذي يتحوّل رغم ستائره الفخمة وسريره الوثير إلى مصاعب وأهوال، كان هو الشاطر حسن الذي وصل إلى الجوهرة التي كانت في حلق التنين، وانتشلها من لهب النار.

ـ ٤ ـ

كان سمير في شقة أميرة، لا تخيُّلات ولا أحلام. لذلك عندما خلع جون الشرطي بذلة الشرطة وقبعة الشرطة وتمطّى بصدره الناحل وهو يخلع قميصه الفانيلا وبانت أضلاعه المتينة وبطنه الأملس، صاح سمير في قلبه: «آي. آي. آي. آي». وما إن اقترب من سمير وأمسك بحلمة صدره حتى ذهب سمير في نشوة تقترب إلى الغيبوبة. وحين عاد مجدداً إلى غرفته في شقة أميرة صاح:

ـ أنا عذراء، جون، هل رأيت؟ أنا عذراء. والله عذراء، مش مومس، يا.. اللّه! شو يعني هالكلمة بالانكليزي.

وفي الوقت نفسه أحس بالغبن. فقد دفع ٨٠ جنيهاً للمسة واحدة من يد جون الشرطي على حلمة صدره.

الشرطي جون كان يستطلع أمر تعرقل السير فجأة في الادجور رود وزعيق زمامير السيارات، حين رأى قامةً في برْنسٍ مغربي، بجزمة حمراء وشال بُوا بنفسجي اللون، تحاول أن تقطع الطريق بين السيارات وهي تتلوّى وتضحك. تحدّث مع شرطي آخر: «من أين أتت هذه الجنّية»؟ يسمع سمير هذه الكلمة ويتذكر الجنّية التي تركب

المقشة وتطير، فاستدار إلى الشرطي يعاتبه: Witch me? no say Ma Ma you boutiful policeman, you very boutiful I eccept go prison for you!

«أنا جنية، حرام يا ماما، بس أنت بوليس حلو كتير، من كثرة ما أنت حلو أنا مستعدة تكلبجني وتفوتني على الحبس».

يحاول سمير المستحيل كي يُبقي جون الشرطي مدة أطول في الشقة من أجل أن يعرِّفه بصديق له، موسيقار مصري لم يذق في حياته طعم الإنكليز. يحاول أن يجذبه بوجبة الطعام، بكأس الويسكي، بلا فائدة. فقط القرد هو الذي أفلح في ذلك إنما لبضع دقائق فقط.

- لكنْ يا جون الشرطي، كنت في أقصى السرعة معي؟

- اسمعي ما ما. اتفقنا على ثمانين جنيه. على كل حال إذا أتت صاحبة الشقة أميرة وضبطتنا معاً فلا بد أن تصاب بالجنون!

- لن تبالي! على كلٍ هل أنت لص، أو مصاب بداء الجُذام؟ إنها ستسعد وتشعر بالفخر.. لأنك شرطي إنكليزي وآية في الجمال!

- قصدتُ، لربما تشعر بالغيرة. لا بد أنك تستهويها، وإلاّ لماذا ترضى أن تسكن معها؟

- أولاً، هي توأم روحي. ثانياً، ألم أقل لك إني أساعدها في كل شيء؟ أنا يدها اليمنى.. بل الأحرى يداها الاثنتان... انظر.. ألا تلاحظ نظافة هذه الشقة؟ إني أعدّ لها الطعام، أغسل ملابسها وأقوم بكيّها. افتح.. أرجوك افتح الخزائن وانظر بعينيك إلى

الأغراض الموضبة فيها... كما أني لا أنفك عن الدُعاء: «إن شاء الله كل ما تدقّي رمل يصير ذهب يا ربّ»، وهي تعرف أنّ دعواتي مستجابة.

ـ لكني لا أرى الذهب... إنما أثاث متكسّر...

ـ لكن يا جوني جيتار، ناهد لم تستطع إعانتي في الحصول على الڤيزا... الرجل الذي كانت تعرفه في قسم الجوازات قد اختفى. هل تستطيع مساعدتي أنتَ من فضلك؟

ـ سأحاول. لكن ألم تخبرني أنك متزوج ولك خمسة أولاد، أم أن هذه أكاذيب؟

ـ أنا صادق... إنهم في الشارقة، في الإمارات. لماذا ذكّرتني بهم الآن، لماذا؟

ـ يا سيدنا المسيح، هل تحتاج إلى من يذكّرك بعائلتك؟

ـ أقصد الآن! أنا أفكر بهم دائماً، لكني غاية في السعاده هنا... على كل، سأحاول أن أزورهم بعد مدّه قصيرة.

رغم أن سمير قدم قبل شهرين فإنه لم يتوقف عن الشعور بالانتماء إلى هنا... كأنه قَطَعَ حياته السابقة ولم يعد يشتاق إلى أحد، ولا إلى أولاده أنفسهم.

فكلما أقبل الصباح وفتح عينيه ورأى القرد ابتسم وأضاء وجهه.

كأنه في فندق، في إجازة، كل ما حوله جديد، ولا علاقة له به.

وأما مسؤولياته في الشارقة فكانت لا تُعد ولا تُحصى:

تأمين الغاز للفرن، الطعام للثلاجة.. على كلٍّ، كان يكره صوت مكيفات الهواء رغم ضرورتها.

منذ أن تعرّف بأميرة وهو لم يعد وحيداً في الحياة. تشاركه تذوّقه الأغاني والأفلام والنكات. لأول مرة يكتشف ويحب جنس النساء «يحبونك، يحضنونك، يمسحون دموعك، ويتلون عليك أسرارهن».

والآن لديه عائلة مكوّنة من أميرة وناهد والقرد، رغم أن ناهد سريعة الغضب من دون سبب، كالمرة التي سرق بها كابوشينو أحمرَ شفاهها.. لكن السبب الأول في حبه للندن يعود إلى أنه امتهن الوظيفة التي طالما أرادها، وهي التهريج وإضحاك الآخرين. إنها هنا كأية وظيفة أخرى محترمة كالهندسة والطب وقيادة الباص. تدرّ عليه المال و تنهال عليه عبارات الاستحسان. كان يظن كغيره من اللبنانيين والعرب أن لندن عبارةٌ عن السير في الضباب والالتفاف بمعطف دافئ، وانتعال الجزمة المبطّنة بالفراء، وأنه بيكاديللي سيركس وأوكسفورد ستريت وساعة بيغ بن وقصر باكنغهام.

لكن الحقيقة أن لندن هي الحرّية، وأنت تتنفسها.

تمارس الأحبَّ إلى قلبك من غير أن تحتاج إلى اندلاع الحرب حتى ينشغل الجميع عنك بها ويتركوك تفعل ما تشاء، من غير أن تشعر بالذنب أو الخجل، من غير أن تلجأ إلى حياة ازدواجية تقودك في نهاية المطاف إلى الكبت والجنون.

لا بدّ أن الله أقام الحرب في لبنان من أجل أن يتركه الناس وشأنه، حتى يكفوا عن مراقبة تحركاته، وحتى يتوقف عن عمله في

الفندق مقشِّراً للبطاطا. جعلهم يلتهون بمسألة الحياة والموت حتى يرتدي ما يشاء، متحجِّجاً لزوجته بأنه إذا تخفّى كامرأة نجا من الحواجز واشترى الخبز بسرعة. كان يرتدي البناطلين الملونة وقميصاً طويلاً ملوناً، ويضع نظارات حمراء الإطار. وأحياناً يرتدي بذلة رقص حتى يرقص للجنود، وهم تحت تأثير المخدر والمشروب والوحدة. يتنقل بين المقاتلين، أينما كانوا، بين الخنادق والفيلات الجميلة التي احتلوها بعد أن هرب أصحابها. كان يشتري ويبيع قوارير الغاز، يعبئ الماء وينقله من حيّ إلى آخر.

أمه قبل زوجته والجيران والأقارب أثنت على حيلته الرائعة، وهي تضم إليها أكياسَ المؤونة التي كان يحصل عليها من أفراد الميليشيات، رغم أنها هي التي أدخلته بنفسها إلى مستشفى الأمراض العقلية - العصفورية -، عندما رأته مرتدياً قميص نومها النايلون الأزرق ومَرَّغ أحمَر شفاهها على شفتيه، وجعل حَلَقَها يتدلى من أذنيه، وانتعل حذاءها ذا الكعب العالي وهو يرقص على السطح ويغني.

يومَها شعرتْ بدوار ونادت زوجها الذي كان يغط في قيلولة، ابتعدت عن ابنها خائفة من أن يرمي بنفسه من على السطح إذا هي اقتربتْ منه. قريبها المجنون رمى نفسه؛ كل المجانين لا يرضون أن يمسهم أحد أثناء نوبتهم.

في مستشفى المجانين نصحهما الطبيب بإعطائه الكثير من الحنان والاهتمام، خاصة من قبل والده، قائلاً إنّ الأولاد في سنه كثيرو التخيّل. لكنهما عادا به بعد ثلاث سنوات عندما حاول الانتحار.

الفصل الخامس

- ١ -

تلقي ليس نظرة إلى الزهور التي قامت بتنسيقها في الأواني وفرّقتها فوق المدفأة وعند طاولة المدخل، وفي حمام الضيوف أيضاً، «تماماً كما لو أني ما زلت في بيتي الزوجي» تفكر، وهي تملأ المنافض الزجاجية بالماء وتنثر فيها أوراق الورد، وتغلّف الأطباق الصغيرة بالأوراق الملونة قبل أن تضع فيها الفستق الحلبي. شيئان لم تعتد تحضيرهما من قبل: حرق اللُبان العماني في المبخرة، وشراؤها الحمص وورق العنب الملفوق من ماركس اند سپنسر حتى تضيفها إلى الأطباق التي قام بإعدادها نيقولاس.

منذ البارحة تقف وتجلس وتتحرك من أجل هذا المساء. سيقدمها نيقولاس إلى أصدقائه ومعارفه، كي يصبح لها عائلة تضمها إليها ولا تبقى وحيدة، كما قال لها.

ـ لكني مكتفية بك، إلاّ إذا ضجرتَ مني!

أخذ أصدقاء نيقولاس ومعارفه في القدوم. تشعر بأنها تدبُّ على الأرض بدلاً من أن تسير، تصدر عنها أصوات كالأطفال. تستجمع حضورها، تصاب بالفشل. أحاديثهم تدور في فلك لا تعرفه، فلك

انكليزي محض، لا تستطيع أن تجامل به أو تنافق أو تخترع. يدور حول السياسة المحلية والقوانين. تفكر أنّه كان عليها أن تحفظ غيباً ما نشرته صحف هذا اليوم، ثم تبدّل رأيها حين لا تعتقد أن هذا سوف يساعدها على المشاركة.

كانت أحاديثهم كالنقاش الدائم المطعّم بالنزعة الفردية. حتى أحاديثهم عن الطعام كانت تتخللها كلمات لا تفهمها ككلمتيْ Gastranomical delights.

وجدت نفسها تلوم نيقولاس. كانت كدودة القز التي غزلت شرنقتها بكل تأنٍ وسعادة، تعد نفسها للطيران. لكن نيقولاس أخرجها قبل أوانها.

أمعقولٌ أن مَنْ حولها يؤلفون حلقة، أم أنها تفتقر إلى خطوة واحدة قبل أن تدخلها؟ لماذا لا تتحدث معهم كما تفعل معه؟ هي تعرف أنه يجد حديثها ممتعاً.. جملة واحدة عليها أن تطلق سراحها.

عليها أن تسرع، لقد واتتها الفرصة. هناك مربٍّ للصقور فقد وظيفته لأن أحد الشيوخ العرب في الإمارات العربية أعلن إفلاسه وباع مجموعة صقوره. أوشكت أن تتدخل قائلة إنّ والدها يدرب العصافير على التغريد، لكنها أوقفت نفسها، إذ عليها أن تربط قصة العصافير بالصقور. وإذا بأحدهم يسأل مربي الصقور إنْ كان ذو «المنقار الازرق» ضمن مجموعته، «قيل إنّ ثمن هذا الصقر يتراوح بين ٨٠ و١٠٠ ألف باوند؟».

ـ أوه! إنهم يهرِّبونها من جنوب سيبيريا مع «صقور الغزلان»، والسلطات الروسية تضبط يومياً عمليات تهريب واسعة.

ـ لربما تريد بيعه للمافيا!

ـ هل تعتقد أنها من الطيور المحظور صيدها أو بيعها؟

أوكي. التقطت الفكرة، هناك ما ستقوله: ستكون الفائزة، هم يحبون الدعابة. إذا جعلتهم يبتسمون فقط، دخلت عقلهم وأصبحت أهلاً لانتباههم.

ماذا لو أخبرتهم عن عمتها التي صفقت الباب راكضةً فوق الحصى والتراب وهي تصيح وتولول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هذا بيت نكاح! الطفلة تنكح الكرسي، والعصافير تنكح قماش الصوف، وحواف الخشبة، وذكر الببغاء الذي دأب على مناداة: أهلاً وسهلاً، الله أكبر» يعلو الذَكَر الآخر».

وما زالت واقفة تبتسم وتوافق، تتحكم في صوتها الذي لم يرَ النور بعد. لم تعتد التحدث ضمن مجموعة من الانكليز، لا تريد وقع صوتها كالفئران قصيراً وحاداً.

أخيراً، سألها أحدهم، ولا بد أنه شعر بوطأة الثقل التي كانت تكابده:

ـ أنت عراقية إذن. لجأتِ إلى لندن هرباً من طغيان صدام؟

أجابت وكلها ثقة:

ـ الحقيقة أني جئت إلى لندن لأتزوج برجل عراقي كان يعيش هنا.

وإذا بجملتها هذه أطفأت الترقب والفضول في عيني السائل. واكتفى الرجل بهز رأسه وقوله «أووه»، ثم انتقل ليتحدث وآخر عن سياسة انكلترا والمقاطعة إزاء العراقيين. إذن، اعتبر الرجل أنّ مجيئها إلى لندن ضمن ظروف عادية لا يستحق الوقوف عندها.

تحاول إعادته إلى الحلبة، فتقاطعهما:

ـ هربنا من العراق إلى سوريا ولبنان. والدي فنان.. موسيقار، وهو لم يستطع تحمل هيمنة التعصب الديني على حياته. ثم إن جدّي..

ـ تعصُّب ديني؟ العراق هو غير ايران؟ غير الجزائر؟ قطعاً غير مصر. لم أعرف أن هناك متطرفين إسلاميين في العراق.

ـ أقصد النجف. كان والدي..

ثم سكتت. القصة طويلة وتتطلب مفردات واستطرادات. تكتفي بالقول: «إنها قصة طويلة». تنتظر أن يسألها ما هي حتى تمضي، لكنه استأذن منها حتى يزيد من النبيذ في كأسه وتركها وحيدة تلوم نفسها لأنها لم تخبره أنهم هربوا خوفاً من صدام حسين ولأنها لم تتلُ عليه قصتَها.

ـ أخبرني نيقولاس أنك من العراق! لا بدّ أنك من بغداد؟ (يبادرها أحدهم بلغة عربية فصيحةً، وظنٌ أن عليه أن يجحظ عينيه ويتمطى بفمه ليتمكن من النطق بها)».

ـ لا. من النجف.

ـ النجف الشريف، لم أزره، رغم أني ذهبت إلى بغداد في أواخر الستينات ونزلتُ في بانسيون تملكه عائلة من الصابئة، كانوا

مضطهدين. أذكر أنهم كانوا يؤدون صلواتهم في السرداب. جذبني إلى دينهم اعتقادُهم أنّ هناك صلة للكواكب والنجوم بالموسيقى. عليكِ إخبار نيقولاس عنهم، فهو كما تعلمين مهتم بعلم الفلك.

ثم انتقل الرجل إلى حضارة ما بين النهرين، وتحوّلتْ لميس إلى كتاب تاريخ وكانت كتاب جغرافيا.

فكرة تسللت إلى ذهنها . فثقتها بنفسها أمست في الهاوية. ترى أيفكّر نيقولاس من هذا المنظار أيضاً؟

ـ أعتقد أن في انكلترا ما يقارب ٤٠ ألفاً من العراق. هل أنا مخطئ؟

تهزّ لميس رأسها موافقة، ثم تضيف كاذبة:

ـ استناداً إلى الإحصاءات هناك خمسة وأربعون ألفاً أو خمسين. أعتقد خمسين..

وإذا بالرجل يصحّح لها ما قالته صرفاً ونحواً

ـ خمسون ألفاً، خمسون مبتدأ، و«ألفاً» منصوبة.

ـ إني أتحدث بالعامية،.. على كل، عُثر في المانيا على ٥٤ عراقياً مختبئين في صناديق مغلقة، وكانوا قد انطلقوا من اسطنبول في رحلة غامضة قادها المهربون إلى المانيا ونالوا ٣٥٠٠ دولار لكل رأس. والطريف أن الشرطة الألمانية سألتهم في التحقيق عن الطريق التي سلكوها...

عندما لم يستغرب أو يبتسم، عادت تردّد: «كانوا كلهم في الصناديق». ثم تبتسم ولا تتوقف إلاّ بعد أن رأت انفراج أساريره.

تجد أنها تستعيد لسان حماتها، تماماً كمسلسل الجنية Bewitched. تحدِّثهم عن قريب الملك المغتال فيصل الذي ينتظر انهيار حكم صدام حسين كي يتولى العرش، وعن بعض العراقيين الذين يلتفون حوله في انكلترا لأنه يذكّرهم بالملك الصغير. وتحدِّثهم عن قريبتها التي اختبأت في صندوق قمامة في العراق خوفاً من عُدي بن صدام... وكيف أن الزغاريد لا تتوقف في الأعراس، حتى ولو في أفخم فنادق لندن، ولا يتوقف النحيب في المآتم حتى يتأكد المندسون في هذه التجمعات من حقيقتها ولا يفسرونها مظاهرةً ضد صدّام حسين. ثم لترفع حديثها عن الثرثرة، تضيف إليها كلمات: الأمم المتحدة والـ UNFAO والـ UN والـ Amnesty ولجنة رفع الحظر.

ثم شعرتْ وكأن شاشة تلفزيون أقيمت بينها وبينهم، هم المشاهدون وهي مراسل من العراق. لا تناقش ولا تحاور، بل تغدق المعلومات والنشر.

تتحوّل إلى مضيفة تشجِّع بعضهم على أن يضعوا المزيد من الطعام في صحونهم، تدور بزجاجة النبيذ الأحمر على كؤوسهم، تبالغ في تقمص دورها هذا حتى أصبحت ست بيت لا أكثر ولا أقل. لذلك عادت ودفعت نفسها إلى إقامة جسر بينها وبينهم من جديد، وهي تذكِّر نفسها بأنها ستجتمع مع بعض هؤلاء دائماً، خاصة إنْ لم يتوقف نيقولاس عن تقديمها لهذا أو لذاك. وهي تحاول أمام كلماتهم الصعبة، أمام إيقاع لفظهم السريع. وعندما تلهث وتلهث ولا تصل، تتأكد من أن في الأمر مؤامرة. تعرف بنية اللغة، لكنها تجد صعوبة في التحدث

بها، لأن اللغة بدت لها الآن أشبه بنادٍ خاص محظورٍ دخولُه على فرد لم تُزرع اللغة في عقله كبذرة. هؤلاء الانكليز مجبولون بصرختهم الأولى في المستشفى الانكليزي. كيف تمزج التاريخ والأدب والسياسة الانكليزية؟ حتى عندما تسمع كلمة «المسرحية الاسكوتلندية» لا تستفهم عن اسمها، بل تعرف أنها «ماكبث»، وتستجلب صوراً معينة وهي تسمع كلمة Fiver «خمسة بوندات» وكلمة Cuppa «كوب الشاي» والطفولة تخطر ببالها إذا رأت مرطبان Marmite أو سمعتْ لفظها. وعندما جلس ديڤيد كوپرفيلد أمام نار المدفأة، ترى هل ستلسعها نارها كما تلسع الانكليزي وهو يقرأها ويتشمم رائحة المدفأة؟

ثم اكتشفتْ أن وجودها فقط هو الذي يجعل الحديث يتعرج ولو قليلاً عن خطه. فأحاديثهم كانت توضع في قوالب، بحسب وظائفهم. قالب السياسة، قالب الانتيكا وتجارتها، قالب السفر والرحلات.

تجبر نفسها على اقتحام حديث بين رجلين:

ـ لم أرك بعد الظهر في بيت انطوني؟

ـ مسكين. لم أذهب عن قصد، كيف حال أولاده؟

ـ تقبلوا موته بكل شجاعة.

تشهق ليس.

ـ أوه! هل أنت تعرفينه؟ أعتقد أن نيقولاس يعرفه!

تغالب سعالاً مصطنعاً وتقول «لا» بطريقة لا يسمعها أحد، إذ انتبهت أن شهقتها كانت متلهفة وعالية. لم تبادرهم قائلة: «نحن نشهق عند سماعنا كلمة موت».

ـ اخترت من أشياء انطوني بعض الكتب والأسطوانات ويداً من خشب من مجموعة الأيدي التي يملكها، والطريف أني بدلاً من أن أجد أسطوانة راڤيل، وجدت في المغلف أسطوانة لهيتش.

ـ لا بأس، أنا أحب هيتش.

يقول أحدهم، تتمنى لو أنها هي القائلة. تعليق بسيط ولكنّه يُظْهر أنها في قلب الأمور والحياة، رغم أنها لا تعرف هل هاتش مغن أو موسيقار ولولا «بوليرو» لما عرفت من هو راڤيل.

ـ وأنا أتصفح مسز بيتون، إذا بالصفحات تفتح نفسها عند حرف الـ C. ولدى وصفه سمك «الكود» Cod المشوي، وجدتُ كيساً صغيراً من الكوكاكيين.

ـ طريقة انطوني عظيمة في تنسيق ملفاته وضبطها.

يضحكان وتضحك معهما ليس وكأنها ببغاء.

«كيف تعرفت إلى نيقولاس؟ متى عرفت نيقولاس؟ هل تعمل مع نيقولاس»، هكذا كانوا يدورون حول بعضهم يستفهمون وكأنهم يمسكون بميزان عجيب، يزنون به أهمية نيقولاس الفردية والاجتماعية حتى يصلوا إلى رقم ما.

قبل انتهاء حفلة العشاء بقليل، أطلّت فجأة امرأة جميلة، ما إن دخلتْ حتى توقفت الأفواه عن الكلام والمضغ والشرب تراقب أنيتا الشقراء ببنطلون يصل إلى الركبتين. كان من البرق الأحمر يكشف عن ردفيها ومؤخرتها ويرسم ضيقُه مثلَّثها. الكعب العالي الرفيع

يكاد يُكسر مع كل خطوة، كنزةٌ للأطفال طمستْ صدرها وأبانت لها عظام قفصها الصدري. «كنتُ مارةً، فحزرتُ أن لدى نيقولاس حفلة ولم يدعني إليها». قالت هذا وهي تعانق نيقولاس. لاحظت ليس كيف حدّقت الشقراء في وجه نيقولاس. شعرتُ بانكماش في معدتها. ركضتْ إلى الحمّام رغم معرفتها أنه آجلاً أو عاجلاً سوف تُجبَر على التعرف بهذه المرأة الجميلة. تتصنع ليس الانهماكَ وهي تدور حول المدعوين تملأ كؤوسهم إلى أن حشرتها أنيتا وعرّفتها بنفسها.

كانت تتحدّث بلغة انكليزية، مهزوزة اللفظ و اللكنة. تخطف الأحرف وتبدلها وتلفظ حرف الجيم وكأنها حرف الياء فتقول Inyoy بدل من Injoy. ومع ذلك رفعت الستار الذي يقف بين الانكليز والآخرين وأصبحتْ في صفهم. سارت بالأحاديث أشواطاً رغم أن أحداً لم يسألها عن الدانمارك. فهمتْ وأفهمتْ وحاورتْ وتحاورتْ. طفا الحديث بينها وبينهم، وغرق بكل تلقائية من غير تكلّف. «لأنها من الدانمارك» تفكر ليس، «لأنها أوروبية».

ـ أوه.. أنت من آرابيا ARABIA.

يصححها نيقولاس بضيق: من العراق.

تقول لها ليس.

ـ أجل، أجل، من آرابيا. (محاولة ألاّ تعقّد الأمور لأنيتا).

ـ لقد أجبت على رسالتك التلفونية وتركت لك الكثير.. بالمناسبة أريد شراء صورة فوتوغرافية لبيار لوتي من سوذوبيز.. هل تستطيع

أن تأتي لي بسعر مناسب؟ صورته في زيّ نفرتيتي هل تعرفها، نيقولاس؟ آسفة، نسيت اسمكِ.

ـ لميس.

ـ لميس، هل تعرفين لوتي؟ بيار لوتي هو الذي جعلني أحب أرابيا، خاصة عندما يتحدث عن الرائحة فيها، فيقول: «إنها كرائحة المسك، منعشة ولذيذة». هو الذي زادني حماساً لكي أزورها. أوه.. صور بالأزياء العربية جميلة جداً، عليك رؤيتها. إنها فعلاً ملهمة.

تنظر إلى لميس وتبتسم، تهمهم لميس بكلمات استحسان رغم أنها لم تسمع قبلاً ببيار لوتي. تُرى كيف لم يقع نيقولاس في غرامها، أم أنّه وقع في الماضي؟ ووجدتْ نفسها تتمنّى فجأة لو أنها أوروبية.

ـ اسمعْ نيقولاس، أوكي، اسمعي لسيم. آسفة. آه لميس، أحب اسمك الغريب. كنت أفكر في أرابيا طوال هذا الأسبوع، وها أنا ألتقي بك. هل تعرفين أن الحريم عمل سادي ماسوخي، في آن؟ لم يفكر أحد من قبلي في هذا، ولا حتى المستشرقون. الحريم يساعدن بعضهن بعضاً في الحمام والزينة والتدليك والتبرج استعداداً لسلطان واحد، ثم ينتظرن أن يختار واحدةً منهن، وهن جالسات معاً. هل تتصورين الغيرة والعذاب، عند اختيار السلطان هذه لا تلك؟!

أريد أن آخذ صوراً من جديد للحريم، لا أعرف كيف! لكن لديّ فكرة عن السلطان.

ما إن تلتقي نظرات لميس ونيقولاس حتى ينفجرا في الضحك. تشاركهما أنيتا من غير أن تعي السبب.

يتركهما نيقولاس ليودِّع آخر المدعوين ويتبادل معه الحديث عند عتبة الباب. وفي لحظات تحولّت لميس إلى تلميذة صغيرة تحاول المستحيل لإرضاء محبوبات الفصل وأطْلعتْ أنيتا على حياتها السابقة.

ـ هل صعب الطلاق؟ أنت عربية؟

ـ لم يكن صعباً عملياً. نفسياً، أجل.

ـ لماذا طلقت؟

ـ دهمتني كآبة امتدت أشهراً، كلما نام معي زوجي تقيأت.

حين كانت أنيتا تبدي إعجابها بلميس وبصراحتها، كانت لميس تفكر أنها أخيراً وجدت لها صديقة. وإذا بأنيتا تقول:

ـ كان يغشى عليَّ من الضحك أحياناً عندما كان يضاجعني نيقولاس.

يغوص قلب لميس. ترى هل تعرف أنيتا بعلاقتي معه؟

ـ لأنه رومانسي ورقيق! في المرة الأولى قال لي: «أريد أن أعزف لعينيك الجميلتين أغنية». وما إن رأيته يرفع غطاء البيانو حتى ضججت من الضحك. على كل حال المضاجعة العادية ما عادت تروقني، إنها مملة. عندما أَعْرفك أكثر أُخْبرك ما أقصد.

ـ كيف تعرفتِ على نيقولاس؟ (تسأل لميس وهي تبلع شوكة).

- في حفلة من الحفلات، لفت نظري عندما سأل صديقتي الممثلة الإنكليزية: «لماذا هي بحذاء طبي؟» وكانت تنتعل جزمة دفعتْ ثمنها أكثر من مئة وخمسين باونداً، وعندما سألته من أين جاء بهذا القميص الجميل مزّق ياقته وأعطاني إياه.

يهبط قلب ليس أكثر وأكثر، وتتساءل إنْ كانت تعرف نيقولاس جيداً؟ وأنيتا تستأنف: «حماسي لأن يدعوني إلى شقته كان لا يوصف، وإذا به يفتح الإنجيل يبحث فيه عن مقطع، وأنا أكاد ألهث من رغبتي فيه. هل تتصورين أحداً يدعوك إلى شقته ويقبلك على شفتيك قبلة كلها رغبة ثم يفتح لك الإنجيل، ويقرأ عن بنات صهيون الممدودات العنق يمشين بالخلاخل؟ لم أعد أذكر...

رأت ليس نفسها مع نيقولاس في متحف اللايتون والبريتيش لايبرري، كذلك رأته مع أنيتا، حتى إنها سمعت خلاخل بنات صهيون وشعرتْ بالغدر.

وما إن غادرت أنيتا أخيراً وأخذا يوضّبانِ الأقداح والصحون قبل أن يخلدا إلى النوم حتى شعرت ليس أنهما متزوجان، وأنها زوجة غيورة.

- لكنْ، ليس، لم يكن بيننا علاقة... كنا نلعب الألاعيب فقط.. لم يكن يجدر بها أن تخبرك.. إنها حمقاء..

- حتى إنك اتصلتَ بها عقب وصولك من السفر، رغم أنك اعترفت لي أنك وقعت في حبي ونحن في التاكسي..

ـ ستوب.. تذكري فقط أنَّنا لم نكن نعرف بعضنا بعضاً. على كل، هل كنت تتوقعين أني مازلت أحافظ على عذريتي إلى أن التقيت بك؟

هدأت ليس. تذكرتْ أنَّها تساءلت وهي تبادله الحب كيف باستطاعة أية امرأة بادلته الحب أن تعيش بعيداً عنه للحظة، وكنَّ في خيالها كثيرات.

أخذا يُعلّقان على السهرة وهما في السرير:

ـ شكراً، ليس.. لقد كنتِ مضيفة رائعة! هل قضيتِ وقتاً ممتعاً؟ إلى أن ظهرت أنيتا... لا أصدّق أن كل مَنْ دعوته لبّى الدعوة.. رأيتك تتحدثين مع ديفيد وماثيو، ما إن رآك ديفيد حتى سألني إذا كان لديك أخت شبهك.. لا بد أنه يحسدني عليك.

ـ أتظنّ ذلك؟ لقد قال لي إنه يعيش مع امرأة يحبها وهي مسافرة حالياً..

ـ إذن، ليس بحاجة إلى إطراء... أنت بالنسبة لهم طير فريد من مكان بعيد.. مهما تعرفوا إلى ثقافات وبلاد أخرى..

ـ ماذا عنك؟ لقد وجدتُ نفسي أتساءل ــ والجميع يتحدثون إليَّ كعربية، بل كعراقيَّة أولاً ــ إذا كان سبب انجذابك لي هو كوني عربية.

ـ سألت نفسي السؤال نفسه، خاصة أني أمضي أشهراً في العالم العربي، وعالمي يدور حوله الآن. هذا يحدث أحياناً: تتجسد الثقافة والبلد في شخص واحد.. لكن، عندما أقلب خنجراً عربياً في

يدي لأول مرة وأُعجب به، فإنّ جزءاً من إعجابي يعود إلى كونه عربياً، لكن ما إن أتمعّن بجماله الباهر ودقة صنعه حتى أجدني أقع في حبه هو. والآن أخبريني.. هل غازلك ديڤيد؟

ـ لم أحبّه، استفهم مني إذا كنتُ صلة وصل بينك وبين سيف. وسألني أين كنت أعيش في لندن. وهل تعرّفت بك في سوذوبيز، وكذلك إذا ما كنت على معرفة بملك العراق المُرشّح. يبدو أن ديڤيد تعرف إلى والد زوجته وانبهر بثروته الطائلة!

ـ كان يجب أن تتحايلي عليه.. لكن حبيبتي.. هل سألتك النسوة إذا كنت تعملين وعندما أجبت لا شيء.. تجاهلنك؟

ـ لقد لفّقتُ كذبة. قلت إني أعلّم العربية في مدرسة الجالية العراقية كل يوم سبت.

ـ جميلتي المنافقة!

ـ أنت تعرف أني أبحث عن عمل. لكنْ أخبِرْني مَنْ هي المرأة الشابة ذات الشعر الأشيب؟ ما إن عرفَتْ أني من العراق حتى أصبحتْ عدائية وخاطبتني بلهجة أقرب إلى التهديد، لأن العراقيين يرحلون عن العراق وأنا قلتُ لها ما أَسْكَتها. أخبرتها ما حصل لجدّي وأعمامي وعائلة خالتي التي أبيدت من جراء قصف الطائرات العراقية عندما كانت تنتظر مع الآلاف النجدةَ الأميركيةَ.

ينظر إليها من جديد ويقول:

ـ كلما احتككت بثقافات أخرى اكتشفتُ أننا سذّج. الحقيقة أننا لا نعرف تماماً الوضع السياسي في العراق... كلما سافرت اكتشفت

أننا شعب غريب. كنت وأنا طفل أفكر أننا طبيعيون.. لكن الآن أشعر أن الإنكليز انطوائيون، مصابون بالحياء، ونفتقر إلى الثقة. لدينا الكثير من التابوهات.. التي نحاول أن نتحاشاها: الثراء، الجنس، الدين..

يضحكان معاً. توافق ليس وتزيد:

ـ الآن فهمت لماذا يبدأ الانكليز في أحاديثهم بهذه الكليشيه «أنا خائف..»، حتى إذا كانوا يخبرونك أنهم ذاهبون في إجازة. ضحك نيقولاس واحتضنها حتى بَدَوا كملعقتين في درج.

ـ أوه.. لقد نسيت. أمك اتصلت (أخبرته ليس والشعور بالألفة والقربة يزداد).

ـ هل ثرثرتِ معها؟

ـ أعتقد أنها تحبني. لم تقل لي إنكَ أرسلت لها صورتي؟

ـ بما أنك رفضتِ التعرف بها وبوالدي!

ـ لم أرفض، لكني أرجأتُ.. إنها مسلِّية. أخبرتْني أنها رمت قفازيْ والدك في الزبالة وأن الكلب عاد بهما في منتهى القذارة..

ـ هل أخبرتك إذا كانا سيأتيان بعد غد؟ دعوتهما لتناول الغذاء معي قبل أن أصحبهما للتسوُّق.

ـ لقد أخبرتني، واعتذرت بأن ابني خالد...

ـ تقصدين أنك كذبتِ. هل أنتِ تعبة ليس؟ ما كان يجب أن نسهر طويلاً مع أنيتا.

فكرت أن تسأله عنها وبدلاً من أن تفعل ذلك، أبقت أنيتا على جفنيْ عينيها، تراها تتحدث، تتحرك وتضحك. ثم أخذت يده وقبلتها. عندما أعادتها تأكد أنها تطلب النوم. أفلتت نفسها منه. منحته ظهرها ونامت قريبة من طرف السرير، لم يستطع أن يجعلها تنام ملاصقة له طوال الليل ـ كملعقتين في درج ـ بحسب تعبير أمه.

- ٢ -

استأجرت أميرة غرفة في فندق فخم. دخلتها واستحمّت ودلكت جسمها بالكريم، وعندما فرغ المرطبان قالت: «بعد هالليلة إن شاءالله، وإن أراد الله، سأنقص من وزني، حتى لو دخلتُ مستشفى». أسرعت تعيد ملابسها فوق جسمها، تنثر العطر تحت ابطيها، تتمالك قبل أن تدير رقم عاملة تلفون الفندق: «أريدك أن تصليني بجناح الأمير...».

بلعت نَفَسَها قبل أن يجيبها صوت من الجناح:

ـ نعم.

ـ مساء الخير، لو سمحت طال عمره موجود؟

ـ من الذي يطلبه لو سمحت؟

ـ ابنة عمه.. هو يعرف!

يصمت الصوت.

ـ ألو، لو سمحتْ.

ـ ابنة عمه، ويش اسمك؟ لو سمحتِ.

ـ هو يعرف، لو سمحت!

ـ من فين تتكلمي لو سمحتِ.

ـ من لندن؟

ـ دقيقة.

تبلع نفساً آخر عندما تسمع وقع أقدام عبر الهاتف.

يُقرع بابها: «بوليس، بوليس، افتحي الباب، افتحي الباب من فضلك».

تعيد سماعة التلفون وتمسك بشنطة يدها ثم تحار ما تفعل.

ـ بوليس، بوليس، إذا لم تفتحي الباب فتحناه قسراً.

تفتح الباب وتصيح بهم مذعورة:

ـ أنا وحدي نزلت في هذه الغرفة لتوي، اسألوا إدارة الفندق. فتشوا الغرفة، فتشوا شنطة يدي، لن تجدوا شيئاً.

ثلاثة مفتشين من الانكليز كانوا ببذلات عادية، يرافقهم رجل عربي، يبدو أنه لبناني. يغلق أحدهم الباب ويتناوب اثنان على الدخول إلى الحمام. تسمع ستارة الدوش تُفتح وتغلق، ثم انتقلوا إلى الغرفة. تطمئنّ فجأة. هناك خطأ ما، يبحثون عن مجرم. أحدهم ينحني يبحث تحت السرير، خلف الستائر، يفتح زجاج الشباك ويطل برأسه منه، ثم يقفله، ويعيد الستارة، يقوم بضبطها وكأنه يساعد زوجته في تهيئة الصالون، قبل وصول الضيوف. وبكل أدب يقول لها أحدهم، وهو يشير إلى الكرسي:

ـ تفضلي اجلسي. أسئلة قصيرة: هل استعملت البانيو؟

ـ نعم.

ـ اسمك؟

ـ أميرة.

ـ اتصلت للتو بسمو الأمير، وقلتِ إنك ابنة عمه؟

ـ لا لم اتصل.

ـ أرجوك

ـ لا، لم أتصل.

ـ نحن متأكدون من اتصالك، تلفونات هذا الفندق الكترونية، اتصلت بعاملة التلفون وطلبت الجناح. هل تخبرينا كيف عرفت أن سمو الأمير في هذا الفندق، وماذا كنت تريدين منه؟

ـ لم أتصل به.

ـ ماذا كنت تريدين منه، زعمتِ أنك ابنة عمه وهو لا يعرفك!

ـ من قال لك إنه لا يعرفني؟

ـ اسمعي! جواز سفرك يحمل اسم...

ـ لا دخل لجواز سفري، لربما الأمير يكذب عليكم عندما قال إنه لا يعرفني.

يتدخل آخر:

ـ من الأفضل الذهاب بها إلى سافيل رو.

ـ آسف ماذا تقترح؟لم أفهم! (يتساءل الرجل العربي).

ـ نأخذها إلى مخفر ساڤيل رو.

ـ مكان الخياطين؟

ـ تماماً!

ـ أريد أن أدخل الحمام (تضع يدها في جيب الجاكيت وهي تتحسّس التلفون النقال الصغير وكأنه المصباح السحري).

ـ في استطاعتك الانتظار.

ـ من قال لك إن في استطاعتي الانتظار؟ هل أنت في بطني؟

تدخل الحمام وتشد السيفون وتتصل بسمير ثم تشد السيفون وتخرج.

يستأذن الرجل اللبناني رجالَ المخابرات ويسألهم هل بإمكانه التحدث إليها بالعربية.

ـ شوفي مدام، الأمير في زيارة سرية. لا توقّعي حالك أكثر معهم. هؤلاء انكليز وليسوا عرباً. بدك تحلبي معهم صافي».

ـ شو؟

ـ قصدي، قولي الحقيقة. كلما كذبتِ تورطتِ أكثر، وهم فكّروا في مخطط وعملوها قضية خطيرة. كنت جاية تسترزقي؟

ـ وأنت مين حضرتك؟

ـ أنا سكرتير الأمير.

وكأنها أنزلتْ هموم الدنيا عن ظهرها، تسأله هل يعرف مورين.

يبتسم:

- إذاً هي اللي أخبرتك. شوفي، خللي هيدا سر، وإلاّ انقطع رزقي.

- يبتسم.

- أوكي، أنا اتصلت فعلاً بالأمير (تبادر أميرة البوليس).

- قلت إنك ابنة عمه، وأنت لست ابنة عمه. لماذا؟

- كذبت، أردته أن يتحدث معي.

- لماذا؟

- أردت أن أستدين المال. أنا مريضة في حاجة إلى علاج.

- كيف عرفت أنه هنا؟

- جئت كالعادة لأشتري جريدة عربية من الفندق. رأيت عند المدخل سيارات ومرافقين، وسمعت أحدهم يقول «أمير. أمير».

- من أخبرك باسمه؟

- لا أعرف اسمه، وقلت الله أرسلني في الوقت المناسب. وأخذت غرفة لأني كنت متأكدة من أن الاستعلامات في الفندق لن تدعني أتحدث معه.

- هل أنتِ متأكدة أنك أتيت لطلب معونة مادية؟

- نعم، وأنا مستعدة أن أقسم على القرآن!

- هل يعلم أحد بذلك؟

- لا، تصرّفت بلا تفكير.

ـ لماذا تحتاجين إلى المال إذا كنت تملكين أجرة هذه الغرفة؟

ـ فكرت أني سوف أدفع أجرتها من المال الذي سيمنحني إياه.

ـ كنتِ متأكدة من أنه سوف يمنحك ما تودين؟

ـ أجل، فالأمراء غاية في الكرم، خاصة لمن يحتاجهم. زميلتي عطفت عليها أميرة لا تعرفها ودفعتْ نفقة علاجها. والأمير... نسيت ما اسمه تبرع للطفل في التلفزيون، نسيتُ اسمه ايضاً، الطفل الذي كان في حاجة إلى زرع كبد له في برنامج That's Life.

ـ ماذا تعملين في لندن؟

يتدخّل السكرتير قائلاً:

ـ ما دامت هكذا، سأسأل الأمير: هل يوافق على دفع إيجار غرفتها، وربما أشفق عليها وأعطاها ما تيسّر منه؟

ـ هل معنى هذا أنكم ستسقطون دعوى التحقيق معها وملاحقتها؟

ـ أعتقد ذلك. على كل، سأشرح لسموه وأعود.

يغادر اللبناني ومعه أحد الثلاثة، بينما تهتف أميرة.

ـ مشكور يا أخي.

ـ هل تظنين أن الأمير سيشفق عليك كما قال سكرتيره؟

ـ لا أعرف، يبدو أني أقلقته، لا بد أن زوجته معه، أو زوجاته.

يضحك الرجلان.

ـ تعالوا نُجْرِ رهاناً. كم سيدفع لي؟

ـ لا تشركينا أيتها السيدة الشابة، Young Lady، فنحن بوليس ولسنا مكتب مراهنة!

ـ شكراً على كل حال.

ـ لا تشكريني، اشكري سكرتيره عندما يأتي ويوقع أوراق إسقاط حقه.

ـ أشكرك، لأنك قلت عني إني سيدة شابة. ولكن ماذا يحدث لي لو رفض التوقيع؟

ـ نأخذك إلى المخفر ونجري معك تحقيقاً! ثم لكل حادث حديث.

لم يتسلّل الخوف إليها، أصبح السكرتير في قبضة يدها، وتأكدت من ذلك عندما عاد:

ـ وافق الأمير على كل شيء. ونحن سنتولّى أمر الغرفة (ثم مدَّ إليها ظرفاً).

ـ يا ليتني طلبت الشامبانيا والكافيار!

يضحك السكرتير. يشاركه الضحكَ الثلاثةُ.

ـ اذن، نعتبر القضية منتهية؟

ـ نعم ، أتمنى لو تتوقّف السيدة عن اللعب بالنار (يقول السكرتير).

ـ أنا بالخدمة إذا أردت أي شيء (تجيبه أميرة).

ـ مع السلامة.

تتناول أميرة حقيبة يدها، تنظر إلى السرير وتقول للسكرتير:

ـ يجب ألا تدفع إيجار هذه الغرفة، فأنا لم استعمل حتى السرير.

تشعر وكأنها متّهمة. لقد أثارت الشبهات ومسّت القانون. أخذت تستعيد ما حدث الليلة من أجل أن تطمئن نفسها من غير فائدة؛ فهي قد أعطت الفندق بطاقة الاعتماد الخاصة بها. والآن بإمكان سكوتلند يارد استخدام هذه المعلومات للعثور عليها متى شاؤوا.

سألتْ نفسها بضيق: لماذا ما إن عرفت مِنْ مورين أنّ سكرتير الأمير سوف يقصدها ككل مرة يزور بها لندن من أجل أن تنزع شعر صدره وظهره الكثيف، انتهزتْ هذه الفرصة بدلاً من البقاء مع مرافقاتها في بهو الفنادق وغرف النوم والروس رويس؟ أرادت المزيد من المال وبأسرع وقت.

أن تكون أميراً يعني أن تتحول النقود إلى مياه جارية تصبّ في الرولز رويس، سمير، الوصيفات، المطاعم، شاي بعد الظهر، البقشيش للمخبرين الذين يعملون في الفنادق، الكازينوات وشركات الطيران، البنوك والكباريهات، حلاقي الفنادق، الذين كانوا يأتون لها بأسماء الزبائن من اللواتي يتردّدن على الصالون. وكانت تتابع أسماء الأمراء والشيوخ من الجرائد والصحف والمجلات الأسبوعية العربية التي تصدر في لندن.

كانت أمها تؤْمن بأن الفقراء يصرفون على الأغنياء، لا العكس. ومنذ أن صرفتْ كل ما ادخرته مرةً على دعوةٍ غداءٍ أقامتها من أجل قريبة لها تعمل ممرضة في الخليج، وهي تطمع بقطعة قماش من حرير، أو بساعة ذهبية، والقريبة لم تحمل معها سوى مؤخرتها السمينة، التي زادت بعد أن لحست الصحون.

تبخّرت لندن من ذهن أميرة. لم تعد تفكر إلاّ في إيجاد تاكسي ورؤية ناهد. ولم تفتح شنطة يدها لتتأكد من أن النقود تنام في قعرها كعادتها. فهي تخاف على المال الطازج الذي حملته بين خفقات قلبها أن يتقافز كفقاقيع الهواء، ويختفي.

لم تكن ناهد في شقتها، وتلفونها النقال يطلب من أميرة ترك رسالة. لم تكن لدى بهية. تتصل بسمير تسأله إذا التقى بناهد اليوم، فيذكّرها بأنها لا بدّ منشغلة مع شقيقتها التي لا بدّ أن تكون قد وصلت قبل يومين. «لكنْ لماذا تختفي مني، رغم أن أختها تحبني؟». عادت تقصد ناهد بعد وقت، مصمِّمةً على انتظارها الساعات الطويلة. لكن ناهد فتحت الباب بسرعة وقبّلتْ أميرة على الوجنتين ومازحتها وكأن شيئاً لم يكن.

ـ يعني بتهمليني لأني صرت أميرة، أمال أختك فين؟

ـ ماجتش، كذّبت عليها وقلت لها إني انتقلت عندك. عشان السقف بِخُرّ.. أصل اليومين دول تعبانة، مش عارفة ليه!

ـ أنا عارفه.. الويسكي.

ـ وعيني ما شربتش إلا كاس واحد البارحة وبالسرّ، كانت كتكوتة معانا..

شعرتْ أميرة بالغيرة، بلعتْ ريقها، لكنْ ماذا تنتظر أن تفعل ناهد في غيابها وقد أصبحت أميرة لبوة تبحث عن الفريسة وحيدة. وهما اللتان كانتا تصطادان معاً أغلب الأحيان! ثم أخبرت ناهد ما حدث لها هذا المساء في الفندق.

ـ الحمد لله جت سليمة.. دلوقت الجدع اللبناني حيموّت مورين، وهي حتموتك!

ـ لكن كل شيء بثمن. مورين نالت حقّها على الخبر ده، بس أنت مالك صحيح! زعلانة مني؟ بتتهربي مني؟ قولي ناهد، صارحيني..

ـ ولا حاجة، بس أفكّر في المستقبل، لازم التفكير في المستقبل هو عدوى..

ـ شاركيني بالإمارة سنة واحدة ومستقبلنا يتأمن على أحسن حال!

ـ طبعاً ونخلف بنات وصبيان.. خسارة إزاي تخلصنا من حملنا! مجانين واللّه!

ـ ما تفكريش في الماضي.

ـ وياك حق. لكن مش جايز اللّه بيهدينا. عاملني أنا عصبية خالص، وأنت بعتلك البوليس؟

ـ شكراً يا.. ربي، لكن كنت فين مازرتناش قبل كده؟

تخيم عليهما ذكرى انخراطهما في تلك الطريق..

تتذكر أميرة تماماً متى قررت أن تبيع نفسها. عندما بدأ كلٌّ من العشي والسائق في المطعم التي كانت تعمل به يحاولان القفز عليها وكأنها حمامة! حتى قبل ذلك عندما أفلح زوج خالتها في شدّ يدها غصباً عنها ووضعها على عضوه، يلحّ عليها أنها زوجته. فهو قد اضطرّ إلى عقد زواجه عليها لدى المأمور في البلدة إذ إن الحكومة

المغربية ما عادت تمنح جوازات السفر للعازبات. فالهجوم على السفر إلى أوروبا أصبح كهجوم الجراد الجائع. لقد نسيت أيضاً حارس شيش الشاورما ومنظف الجنائن في الجامع.

أخذت تفكر جدياً في أمر جسدها والرجال والثراء. فهي كانت تحت وطأة الاستنكار والذهول عندما قالت لها المرأة السورية - التي عملت لديها خادمةً فور وصولها إلى لندن - إنَّها لا بدّ أن تكون حاملاً، ما إن سمعتْ أميرة تركض وتتقيأ في الحمام لمنظر ذوبان شمعة. أخذتها إلى طبيبة نسائية أكدتْ لأميرة أنها حامل رغم تشبث أميرة بقولها إنها عذراء، وهي تفكّر في استحالة حملها من جراء لحظاتٍ حَشَرَها فيها سائقٌ آسيويّ في سيارته(وكانت دأبت في رؤيته في المطعم ينقل الطعام إلى الزبائن في منازلهم). مزق لها سروالها، ووعدها أن يتزوجها حين يتخرج محامياً.

فكرتْ: أين الخسارة، ما دامت المضاجعة بهذه السرعة، بهذه العادية، كفَقْء بزرة في الوجه، كعملٍ خاصٍ بين الرجل ونفسه وهي مجرد شاهدة، كمقعد السيارة.

ليتني وطئت لندن لتوي. ثمانية عشر عاماً، وأنا لم اشتر بيتاً على شاطئ البحر في المغرب أو شقةً في عمارة جديدة، أو حتى مكاناً صغيراً يبيع الساندويتشات. ليت اسمي ما زال «حبيبة»، أسير في بلدتي الضيقة عندما وليتُ هاربة من أمي بعدما رمت عليّ سطل الماء، فاستوقفتني سائحةٌ إنكليزية تسألني عن اتجاه السور التاريخي، أشرتُ لها بيدي وقلتُ لها بالفرنسية: «اتبعيني أنا ذاهبة

إلى هناك أريد أن، أن» لم أعرف ما معنى كلمة «انتحار» بالفرنسية، سرتُ قرب السائحة وشعرتُ أن لندن تسير إلى جانبي.

كنتُ فعلاً ذاهبة إلى الصخور العالية كما هي عادة أهالي البلدة. منذ القدم الكل يسرع إلى السور التاريخي حيث مياه الأطلسي تضرب. الموظفون الذين نهضوا للتو من القيلولة، ربات البيوت، العجائز، المراهقون والاطفال، كلهم يقفون قبالة الشفق والشمس يراقبون المغيب، والشمس لا تزال تسطع، ثم تغمز، وتغوص، ويبتلعها البحر. ينضم إلى أهالي البلدة الزائرون من أهاليها الذين استوطنوا أوروبا، يعرضون ملابسهم الأوروبية، نظاراتهم الذهبية، أو تعرض النساء مصاغهنّ. ما إن وقفتْ لندن ورأت السور والبيوت المتلاصقة خلفها حتى ودّعتني وشكرتني.. فكرت، ما ألطف لندن، وما أشدّ تهذيبها! عَدَلتُ عن فكرة الانتحار ولمعتْ في ذهني فكرة جعلتني أبدّل وجهة سيري. كنتُ في مهمة مستعجلة، أبحث عن زوج خالتي في الطرقات وعند مداخل الدكاكين، المطعم، المقهى المعروف باسم «العوذ بالله»، الذي نحت معظمه في الصخر، وحيث يختلط حول طاولاته الغرباءُ من السائحين مع حشاشي البلدة يشفطون سكائر الحشيشة.

لم يصدق بعضُ الشباب الذين كانوا يحومون حوله خائفين من دخوله ،ولا الأهالي المبعِدون الصغارَ عن بابه وكأنه وباء، لم يصدقوا رؤيتهم إياي وأنا أدخل المقهى وكأني رجل، أبحث عن زوج خالتي الذي ما إن تأكدت أنه رآني حتى خرجتُ من المقهى من غير أن أقول له شيئاً، ولم أتوقف عن البكاء ولا عن ضرب وجهي والنواح، أركض إلى الماء واعتلي الصخرة العالية.

أقف حيث دأبتْ كلُ عازبة في الوقوف، تعَد الموجات السبع التي عليها أن تلامس الصخرة كي يستجيب الله ويرسل لها عريساً.

هدّدتُ زوجَ خالتي برمي نفسي. لم يهتم، ولم يسألني ما بي، إلى أن صاح مذعوراً يتهمني بأني فقدتُ عذريتي.

لكنه اكتشف أخيراً أن كل ما في الأمر أني أريد السفر إلى لندن، وأعمل هناك.

ـ بصّي يا ناهد لندن حلوّة الزّاي..

كانتا في طريقهما إلى كازينو فندق المي فير، تمرّان في شارع ثاوس أودلي، تتمطّيان لتتأكدا من أن الفيلين الضخمين مازالا معروضيْن في واجهة «جودج وأولاده».

ـ اسمعي يا ناهد ما تضايقيش روحك.. لازم تفكري أنَّ الجميع بيعمل اللي أنا وأنت منعمله! حتى البنايات اللي بتشوفيها دلوقت هي أتبنت عشان فعل الحب، المستشفيات عشان تولِّد الأطفال وتداوي الناس، والمدارس عشان تعلمهم وتثقفهم، والمحلات عشان تكسيهم وتأكّلهم، والكازينوهات عشان ناس تخسر وناس تربح.. كل ده ليه؟

عشان اللي بنعمله أنا وأنت.. كل حاجة حتى المطارات والطيارات، التلفونات، الكمبيوتر. كل دا يأتي نتيجة اللي أنا وأنت منعمله.. عشان الراجل يحس برجولته، عشان يتأكد من نفسه، والمرأة تحبل.. هو عامل زي الطاووس اللي يفرد ريشه عشان يجذب الطاووسة. الراجل يورّي ملايينه عشان يفرجي قوته وسلطته.. صدّقيني.. هي دي الحقيقة.

ـ بس أنتِ نسيت الفيلة ده.. هي اتعملت عشان اللي أنا وأنت منعمله؟

ـ طبعاً. ياه الراجل اللي حيشتريهم حيتباهى بكل فخر أمام مراته أو عشيقته، وهي حتفوت السرير قبله عايزه عايزه..

ـ بس نسيتِ حاجة.. دول الفيلة مش للبيع؟

ـ طب وماله، ده يبرهن نقطتي أكثر.. مستر جودج صاحب المخزن العظيم ده حيقول لمراته إنه عرض عليه ملايين وهو رفض عشان كلمته ما تصيرش كلمتين. والست زوجته اهتاجت بدرجة عظيمة! ما كانتش تتصور إنه جوزها قوي وصاحب نفوذ للدرجة ده.. قوته دي كانت افروديسيا معيار تقيل.. زي بودرة قرن سيد قشطة!...

- ٣ -

فكّر سمير بمسز كنينغهام منذ أن ابتسم له الإنكليزي الشاب طالب الفنون ورفيقه عند محطة الباص. كانا يبتسمان للشال، يسحبه سمير عن عنقه، ويمده إلى الشاب الذي أخذ يفليه كما يفلي كابوشينو ذنبه، أصر سمير أن يأخذه غير أن الشاب رفض. لا يستطيع دفع ثمنه. «لا تدفع صدقني ليس من مشكل، صدقني». يؤكد له سمير ذلك للحظة، ثم يتراجع خوفاً من أن يأخذ الشاب الشال ويختفي في مجاهل لندن. لذلك لم يتركه إلاّ بعد أن أخذ منه رقم هاتفه واعداً بأن يوافيه بالمعلومات عن هذا الشال.

يريد سمير الشابَ، مكتفياً بمجرّد التنزُّه معه في الپارك. نظرة منه تشفي الغليل وتطيل العمر. كان يشبه بوي جورج، خاصة بحاجبيه. راح يغني «كما كرما كرما كرما كرما كاميليون رد اند غرين اند غولد». ابنه الاكبر كان يحب هذه الأغنية. لا تعرف أميرة كيف أتى هذا الشال إلى بيتها، «ربما من ناهد»، «قطعاً هو ليس من المغرب». يدير سمير رقم الشاب أكثر من مرة، إلا أن المسجّل هو الذي يجيبه كل مرة، وسمير يكرّر نداءه: «ليس هناك أي

مشكل. خذ الشال اليوم بسبعة پاوندات. أرجوك، اتصلْ بي. هذا رقمي. لا تنس أن تتصل.. إذا كان ٧ پاوندات كثير عليك أنا أعرف أنك تلميذ. ادفع ٥. أوكي، أوكي؟ لا تنس أن تتصل. أنا في الانتظار».

ثم يعود فيتصل به مرة أخيرة قبل أن يخلد سمير إلى النوم وكله مرارة. فتحضر مسز كنينغهام في حلمه: تقطع هذا الشال قطعاً صغيرة، وتفرّقه على المرضى الذين ما زالوا في مستشفى العصفورية. يرى سريره في المستشفى ومنظر الشراشف، ويسمع صرير حديده على البلاط. أخذ يتقلب في نومه إلى أن نهض. استيقظ وقلبه يدق. «مسز كنينغهام» كيف لم تخطر على باله من قبل؟ هل تصدق أنه أصبح في بلدها في لندن؟ ترى هل ستتذكر ذلك المراهق في لبنان الذي لم يَعْطف عليه أحد سواها؟ أرسلته مع سائقها إلى طبيب الأسنان، وتكفلتْ بدفع ثمن العلاج. أتت له بحذاء جديد عندما رأته وقدماه ملتصقتان بالأرض، وحذاء والده كان واسعاً حتى حين كان يضع ثلاثة جوارب ممزقة.

«لا بد أن صواب الشاب الانكليزي سيطير عندما يرى ما كانت تنسجه مسز كنينغهام، ومن ثمَّ سترفع هي من شأني أمامه».

كيف غابت مسز كنينغهام عن باله وهو في لندن، رغم أنه في قرارته كان يشعر بأن هناك انكليزياً واحداً يعرفه؟ فرحه كان عظيماً لأنه تذكرها. لذا بدأ رحلته في البحث عنها. اتصل بكل اسم «كنينغهام» في دفتر التلفونات. وكان يقول:

«إني أبحث عن مسز مارغريت كنينغهام، سيدة في منتهى العذوبة واللطف، عاشت في السفارة الإنكليزية في بيروت... أريد رؤيتها لمسألة ضرورية». يقترح عليه أحدهم أن يتصل بوزارة الخارجية، وإذا برسالة من ابن مسز كنينغهام تصله بعد أسبوع وفيها عنوان أمه قائلاً إنها ستسعد جداً لرؤيته.

صحِبه طالبُ الفنون وصديقُه. وفي غمرة سعادته لم يستطع إلا أن يطري ذكاءه. أخذت الدنيا تعلمه دروساً ، أم أن لندن هي التي تعلمه؟

«كانت صورتها في كل المجلات.. والله العظيم صادق»، يؤكد لهما.

ولم يكن الشابان يفهمان كل ما يقوله سمير، وكانا ممتنين لاهتمامه بفنهما. فهو أتاهما بالكثير من القماش والشالات من ادجور رود ولم تحظ بإعجابهما. ظل الشال ذاك هو القطعة المفضلة لديهما، وأخذ الشاب يلف رقبته به شاكراً سمير كلما التقى به قرب مدرسته، وكانت تدعى «سنترل» لتناول الغذاء أو شاي بعد الظهر. وسمير يحرص على ارتداء أجمل ما كانت تقع عيناه عليه، إذ حدس أن ملابسه كانت نقطة الالتقاء بينه وبين الشاب... بل بينه وبين الشابين، إذ كانا يتلازمان طوال الوقت، وأغاظ ذلك سمير. كانا معجبين بخلطه للألوان المتنافرة، وللموض التي كان يرتديها عن غير قصد، والتي تعود إلى السبعينات؛ وهي له ألبسة غالية الثمن، أوريجنال، أغدقها عليه الكثيرون في لبنان ودُبي.

فرح عندما أوقفتهم التاكسي على عتبة دور فير هاوس في كوين غيت. رأى فخامة البناية، التي تسكن فيها مسز كنينغهام، ولوهلة أصيب بالحيرة ثم بالخوف. لربما أصرت على أن تستضيفه في بيتها هذا. ولكن ماذا عن أميرة وعن القرد؟ عندما رأى امرأة خلف طاولة الاستعلامات أيقن أنه في مكان عملها لا في بيتها. تبادل الشابان النظرات عندما أتت موظفة تقودهما إلى غرفة مسز كنينغهام. سأل أحدهم سمير عن المرة الأخيرة التي زار فيها صديقته مسز كنينغهام. قبل أن يكمل سمير حساباته كانوا قد دخلوا غرفتها. يتراجع: «لا يمكن، لا بد أن هناك خطأ ما، هذه ليست مسز كنينغهام» قال في قلبه.. «هذه عجوز، والأخرى التي أعرفها كانت في منتهى الصبا». حاول أن يشرح للشابين هذا، ولكنه لم يستطع أن يلتقط عيناً واحدة من أعينهما التي طارت في الغرفة، ولا أذناً لتصغي إذ كانا يسمعان مديح كل منهما.

كانت مسز كنينغهام تتردد على مستشفى العصفورية، تحاول أن تشغل المرضى بالقماش، عندما التقاها سمير. كانت قد طلبتْ من المرضى ذلك الصباح نسل الخيوط وسحبها، «اسحبوا حتى تصلوا إلى هذه النقطة السوداء ثم توقفوا». والراهبة تدور خائفة وهي تحذّر وتراقب الذين لم تكن تثق بقدرتهم على اتباع التعليمات، كما فعل أحدهم مرةً حين قام بنسل نصف القماش، وعندما أوقفته حاول إعادة الخيطان إلى القماش ، وحين لم يفلح أخذ يشد شعره ويبكي. فرحة سمير بالقماش الجميل، الملون المتزحلق، لم تكن توصف. فهولم يلمس الحرير من قبل. اعتاد البفت والكتان. أخذ يلاعبه، يلفه

عليه، حول كتفيه وكأنه شال. وعندما ضبطته المرضة هرب منها والقماشُ ينسحب خلفه. وبدلاً من أن تؤنبه مسز كنينغهام أحبت ما رأته وأخذت له الصور، وهي تشرح للراهبة كيف أن العمل يعيد إليهم حيويتهم ونشاطهم الذهني. تحسّستْ مسز كنينغهام كنزة سمير التي طالما كرهها، وكان يُجبَر على ارتدائها طيلة فصل الشتاء. سألته من أين، وهي تثني على الصوف وجمال الحياكة؛ قال: «أمي اشتغلتها على الصنارتين، أرجوكِ خذيها يا مسز كنينغهام». بعدها طلبتْ من أمه أن تحوك لها عشر كنزات بألوان مختلفة اختارتها لقاء أجر سخيّ. وبقيت وفية تشكر أم سمير على هذه الكنزات في بطاقة أرسلتها إليها من لندن عندما تركتْ لبنان واحتفظ بها سمير طويلاً.

ـ «ذكِّرْها بنفسك» تدفعه المرضة الآن.

كان سمير متأكداً أنها ليست مسز كنينغهام، رغم الأثاث العربي المطعّم بالصدف الأبيض وعلاّقة الملابس اللبنانية. لكنه انصاع للممرِّضة وانحنى يذكرها بنفسه.

ـ أنا سمير، من بيروت، سمير من العصفورية، ع ص ف و ر ي ه (نطق اسم المستشفى، ببطء تام). سمير اللي خلليتي حكيم مزمنيان يصلّح لي أسناني، لما أعطيتني تفاحة لأكدشها وصرخت من الوجع. أنا صرت عايش هون، هول أصحابي، مثلك، بيعملو قماش. شوفي شو بيعملو!.

مد سمير يده إلى الشاب الذي أتاها بقطعة من قماش نسجها، لكنه تنحنح وقال لسمير:

ـ لا بأس، لا تزعج السيدة.

لكن سمير نشلها منه وفتح الورقة ثم أطلعها على القماش. حاولتْ مسز كنينغهام النطق، لكنها لم تستطع أن تنطق إلا بعينيها. أحبَّت قطعة القماش. تحسستها، ثم نظرتْ إلى سمير وإلى الشابين. هزت برأسها وحاولت النطق الأخرس من جديد، ثم نهضتْ فسقطت القطعة على الأرض. اتجهت إلى الخزانة تحاول فتحها، ولما لم تستطع نهض أحد الشابين يساعدها، وإذا بها تتناول كتاباً سميكاً، كاد أن يقع من يدها، وأخذت بفتح صفحاته وهي تشير لهم وإلى صور ولوحات وأزياء. كان الكتاب من أجمل ما رآه الشابان اللذان نهضا ليحيط كل منهما بمسز كنينغهام، يقلبان الصفحات لها وهي مسرورة للغاية. تَلْفت نظرَها صورةٌ ما. تحاول النطق آ. آ. آ، وهي تدل عليها. احتار سمير ماذا يفعل. راح ينظر في الأثاث العربي ويشعر لوهلة أنه في بيروت، ثم بالانشراح لأن الشابين أحبا مسز كنينغهام، ولأن أملهما لم يخب من هذه الزيارة. غير أن انشراحه أخذ يتحوّل إلى ضيق، لأنهما تجاهلاه كلياً وصبّا كل اهتمامهما على الكتاب وعلى العجوز. يمسك أحدهما بيدها يقبلها، والآخر ينهض ليأتي بالمشط والفرشاة الفضيين ويسرِّح لها شعرها. عندما ضاقت بهما انصرفا عنها ليتأملا أثاث غرفتها، وخاصة الآنية الزجاجية التي كانت على شكل حورية بحر. يتحسسها كل منهما طويلاً قبل أن يفسح المجالَ للآخر وهما يرددان: «إلهية إلهية». ثم أمسك أحدهما بالزهور الذابلة ينتشلها. ولما لم يجد سلة قمامة كبيرة اتجه بها إلى الباب، واختفى ليعود بعد لحظات مع إحدى

المرضات، لتأخذ هذه الآنيةَ وتدلق ماءها في المرحاض وتعيدها إلى المنضدة. يتأمّل سمير الخط الذي تركه الماء الآسن. لم يشمِّر عن ساعديه ويمسح المكان كعادته كلما رأى ما يحتاج الى التنظيف. كان في أشد الرغبة في الشاب، تمنى لو تغفو مسز كنينغهام قليلاً ريثما يعانقه، خاصة أن حركة يده الرتيبة على شعرها أثارته. وفعلا أخذت مسز كنينغهام غفوة كالقطط، لكن الشاب أبعد سمير عنه قائلاً: «هش هش»، ثم سأله: «ألم تكن تعرف أنها في مأوى»؟

الفصل السادس

- ١ -

تراقبه ميس من بعد، تطلب من التاكسي أن يتوقف: خافت أن ترتبك ونيقولاس يراها تترجل. ما زالت ترتبك في حضوره. لا تشرب الماء أمامه بسرعة، متوجسةً أن يُحدث ابتلاعها صوتاً. تتباطأ الآن في السير وهي تراقبه، تسري فيها قشعريرة. هذا ما كانت تحلم به، كلما أتت إلى المسرح مع بلقيس، أو وحدها: أن تقف إلى جانب رجل يحتسيان النبيذ، ويتحدثان عن المسرحية، و عن شتى الأمور. بعد أن كانت تنتظره على باب المسرح وهو يأتي تحت المطر، يقفل مظلته المبللة، ويطبع قبلة على وجنتها، مبادراً:

ـــ هللو دارلنغ هل تأخرتُ؟ أعطيتني فرصة لأتأملك وأنت تقطعين الشارع. بدوتِ وكأنك خرجتِ لتوك من البحر، في ألوانك والطريقة التي سويت بها شعرك. إني أشعر بهياج عظيم... هل تقولين لي ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ أوه.. نيقولاس (يحمر وجهها وترتبك).

ـ أوكي، أعطِني قبلة.

تميل نحوه ثم تتلفّت قبل أن تطبع على خده قبلة.

ـ من سوف يراكِ؟ ألم تقولي إنك قلما صادفت عرباً في المسارح أو في الأوبرا؟ ماذا أُخرِف الآن؟ أرأيت أنك تؤثرين بمنطقك العربي عليّ.. طز عليهم Fuck them. أرأيتِ عدتُ انكليزياً.

ـ فكرة عظيمة أن نخرج في المساء دائماً! كم أنا سعيدة.

لم تقل له إنها تحرّرتْ ما إن اقتنت تلفوناً نقالاً من أجل أن يجدها ابنُها في أيّ وقت.

رجل عجوز يبتسم لنيقولاس عندما صدف أن استشارا ساعة معصميهما معاً.

تعلّق ليس: فقط المسنّون الانكليز يشبهون العرب.

يتأملان عجوزاً آخر توقف يتأمل كلباً سعيداً يسير خلف صاحبه، بدا وكأنه يعارك رغبة ما ليلحق ويلاعب ذيل الكلب. عجوز أشارت إلى سائحة، من موقع ساحة «تراڤلغر سكوير»، وظلت تتابعها بنظراتها لتتأكد من أن السائحة تعرف طريقها.

تقف ليس بكل ثقة، كالآخرين من الانكليز، لأنها في صحبة مَنْ يعرف طقوس حضور المسرح. يعرف كيف ينظر في البطاقة، ومتى عليه الإسراع أو الإبطاء في الدخول. يهمس نيقولاس في أذنها: «أريد أن أكون في داخلك الآن» وهي تصغي، وكأنها سحلية متعطشة إلى الماء بعدما امتصت الرطوبة جلدها!

كانت تشاهد مسرحيتين: مسرحية على الخشبة ومسرحية في خيالها عن التقهقر لتأكدها أنه لا يمكن أن تنتمي إلى هنا. «لكن حتى نيقولاس لا ينتمي إلى انكلترا، انكلترا القديمة، التي تراها على

خشبة المسرح الآن». تحاول أن تعزّي نفسها. نظرة منها إليه، وإلى الرؤوس التي تعلقتْ بخشبة المسرح، بدّلتْ رأيها أمام ملامح وجوههم المتجهمة أو المبتسمة لجملة معينة، للفتة أو اصطلاح لغوي أو تنهيدة طويلة.

كانوا يأتون بأنفسهم إلى ما يجري في المسرحية حتى ولو كانت حقيقتهم بعيدة عنها!

الإحباط يحاصرها في دروس اللهجة، رغم أن المعلمة قالت لها:

«أنا متفائلة. خمس كلمات من سبع، لميس، لا بأس، كل ما يهمني عندما تنزلين سلالم بيتي ألا تفكري بأي شيء عربي. جملة واحدة في العربية، وكل ما أنجزناه يذهب سدى. هذا يتطلب الكثير. الله يكون بعونك».

تهبط لميس السلالم، وكأنها تعدو من هذه العُلّية أو مكان التعذيب. المعلمة تمسك بالسوط تلو الآخر، تنهال به على الفم، وعلى الأذن والحنجرة، وعلى العين والأنف. كلما كوّنتْ لميس صورة في خيالها عن نوع من الطعام ومن غير أن تدري كان يُردد اسمه في جوفها.. خبز، زيتون. كلما رفعت بصرها إلى السماء وفرحت لازرقاقها، وارتسمت أمامها من غير أن تدري كلمة «أزرق» في اللغة العربية، تذكرت اسمها، اسم ابنها. ولمّا لم يبق في استطاعتها التحمل وجدت أنها تعود إلى تسلُّق سلالم الصومعة وتأخذ في البكاء وهي تقول: «ذاكرتي عربية، كأني ببغاء. تُرى، ألا يفقد الببغاء الذاكرة؟».

يأخذ نيقولاس بيدها، يلف حول إصبعها خاتماً من ورق برنامج المسرحية قام بفتله على مهل.

لم يكتف بابتسامتها. يريد الجواب، أو لعلها أجابته بإبقاء الخاتم حول إصبعها، وبابتسامتها لأنه حاط إصبعه بخاتم ورقي هو أيضاً. إنها تمسك بيده وتشد عليها. هل معنى هذا أنها تقول له «دعنا نتزوج الآن»؟

جلسا في المطعم وخاتما الورق حول إصبعيهما.

ـ نطلب شمبانيا حتى نحتفل.

تضحك ليس.

ـ نعم أم لا؟

ـ نيقولاس!

ـ نعم أم لا؟ أريد أن نتزوج.

ـ لا أستطيع.

ـ هل أنت خائفة أن نمضي بضعة أشهر في عُمان.. لكنك أوشكت على العيش في دُبي؟

ـ لأني لا أستطيع الآن!

ـ شكراً لزيادتك كلمة «الآن». لن تصدّقي أني أحياناً أنسى أنك كنت متزوجة ولك ولد. على كلٍ، دعينا نطلب شمبانيا ونحتفل لأنك جميلة ولأني أحبك.

طلب نيقولاس شمبانيا، وما إن رفعا كأسيهما حتى لاحظ أن الارتباك مسح وجهها.

ـ ليس! لا يبدو أنك سعيدة... هناك ما يشغل بالك؟

ـ أريد دخول الحمام.

نهض وأزاح لها الطاولة.

تتأمل وجهها وهي تضع البودرة الزهرية، وتقول للمرآة وكأنها وجه نيقولاس: «أحبكَ أحبكَ أريد أن نذهب إلى البيت حالاً. لا بأس، لربما الانتظار يؤجج رغبتي فيه أكثر».

ـ هل أساعدك غداً في نقل كل حوائجك؟

ـ وأعيش في شقتك؟

ـ لا . تنتقلين وتعيشين فوق هذه الشجرة، ما رأيك؟ ليس لا أصدق، انظري إلى وجهك. كل ما قلتُه لك: لماذا لا تنتقلين إلى هنا؟ تعالي الآن نذهب معاً إلى الشقة المحظورة عليَّ وننقل كل ما تريدينه.

ـ سيقولون إني طلقتُ من أجلك.

ـ ستشرحين لابنك أنّ هذا غير صحيح.

لم تصارحه بأنها ليست متأكدة إذا كانت ستعرِّفه بابنها.. فكيف أن ينام ثلاثتهم تحت سقف واحد ولو من وقت لآخر؟ وجدتْ نفسها تسأل:

ـ والآخرون؟

ـ أَلم تُطلِّقي لأنك اكتشفتِ أنْ لا علاقة لك بزوجك وبالجميع، نعم أم لا؟ إنتِ تعطين الأمر أهمية كبرى.

ـ أعرف. لكني لا أستطيع إلا التفكير في هذه الأمور.

ـ لكنك تقضين كل وقتك هنا، ما عدا ساعة، ساعتين في النهار، للدخول إلى الحمام أو لتبديل ملابسك. إنك كزوج خائفٍ، عليه إثباتُ وجوده في بيته، وأنت تثبتين وجودك للجدران وللبوّاب. أوه.. لربما تفعلين هذا من أجل البواب وزوجته، حتى يختما على بطاقتك: «حاضرة، موجودة». أو أنت تودين تملُّكَ الشقة غصباً عن زوجك وأمه. إلى الآن لم أقتنع أنك تنازلتِ عن كل شيء، لأنك طلبت الطلاق!

كان محقّاً.. عندما تخرج من شقتها بعد الظهر كانت تنتظر انشغال البواب وزوجته في تناول الشاي. كانت دائماً تفلح في تبديل دفة الحديث، ولكنُّها لم تُفْلح الليلة. فهو لم يستجب لإثارتها إياه، ولا للقصص التي كانت تتلوها عليه.

ـ أوكي، لا تنتقلي للعيش معي في الوقت الحاضر. أعرف أن شقتي صغيرة للغاية، لكنْ تعالي نسافر إلى عُمان معاً لمدة شهر أو شهرين.

ـ عُمان؟! غير ممكن، أن أذهب معك إلى عُمان.

ـ أعدك بأنك سترين ألفاً وخمسمائة نجمة بدلاً من خمسمائة في لندن.

ـ أستطيع أن أتخيّلها!

ـ لا أستطيع تأجيل سفري أكثر. عليَّ الذهاب في غضون أيام.

ـ على كل، لا نستطيع الإقامة معاً.

ـ لماذا؟ ألست انكليزية تحملين جواز سفر انكليزياً؟ أوه فطنت... القانون العُماني ينص على عدم دخول عازبات انكليزيات تحت السن ٣٥ أو ٤٠، وإلا تزوّج بهن العمانيون.

أوشكتْ أن تتنفس. اسعفها السلطان قابوس!

ـ كنت أمزح.. ليس!

ـ لكننا لسنا متزوجين!

ـ لا يهم، فأنت إنكليزية.

ـ لكن اسمي المدوّن على جواز سفري هو عربي، ومكان ولادتي النجف ـ العراق.

ـ أوكي، نأخذ غرفتين في الفندق، أنت ضيفتي، لا يهمني أن أصرف عليك كل ما معي.

كان يقطر سعادة وثقة لأنه لم تَبْقَ لديها حجة.

ـ نيقولاس. لا تبتسم أرجوك. أنا التي تعرف الأنظمة العربية لا أنت. أعرف تلك الأردنية المسلمة التي تزوجت لبنانياً مسيحياً، وانتقلا للعيش في إحدى دول الخليج، وعندما قدم جواز سفرهما لإصدار إجازة خروج وعودة تدخّلت السلطات قائلة إنّ زواجهما غير معترف به ثم أحيلا على المحكمة، رغم أن الزوج قال كاذباً إنُّه اعتنق الإسلام قبل زواجهما، وجاءا بشهادة مزورة من لبنان تنص على ذلك. إلا أن الوزارة أصرّت على أن تمتحنه. أعطته بعض الكتب عن الدين الإسلامي. فاضطر الزوج إلى أن يجيء بمن يلقنه الدروس لمدة أشهر.

ـ لا يحدث هذا في عُمان، أَعِدُك، ليس في عُمان. على كل، سوف أستفسر، وإذا وُجد هناك أي عائق لا تسافري.. الأمرسهل.

ـ ما زلت أذكر عندما صوّرتْ لي عائلتي دُبي وكأنها مونت كارلو الشرق. يبدو أنك نسيتَ ما حصل لي هناك...

ـ لم أنس، بل عليك وضع هذه الحادثة خلفك!

ـ إنها ليست حادثة فقط، نيقولاس. إنها خوف تأصّل بي غصباً عني. وإذا كنت أمينة وصريحة معك أعترف أني أصبحت أخاف حتى من الفئات المعارضة العراقية، لربما لجأتْ إحداها إلى العنف الذي أرادتْ يوماً محاربته. ما زلت أذكر كيف أصبحتُ أتحاشى جدّي حين رأيته يضرب أقفاصَ العصافير، وينتقد أمي ووالدي بكل حقد.

يأخذ نيقولاس يدها ويقبلها.

- ٢ -

ينطلقان.. يشقان لندن في سيارته الصغيرة. تتحول المدينة إلى كف ذات خطوط غائرة وطفيفة، متشابكة ومتوازنة.

أخذ طريق الهايد بارك كورنر ماراً بپارك لين متجهاً إلى ماونت ستريت، ليعاينا شقة كان قد عرضها أحد معارف نيقولاس للبيع. يمرّ من أمام فندق الدوشستر حيث أقيم عرس لميس. أوشكتْ أن تخبره ضاحكة عن انشغال زوجها بعد العرس مباشرة بتخبئة قرطيْ حلقها في مكان أمين، وزوجُها يتفحّصها حابساً أنفاسه لربما اكتشف أن حبة من الحبوب قد سقطتْ. لكنها عَدَلَتْ عن رأيها خائفة من أن يسألها ماذا حلّ بها.

يضرب قلبها فجأة، لأن العنوان الذي سجّلته لدى سلفردجز حيث أودعتْ مصاغها هو عنوان شقيقتها في دُبي. والآن عليها أن تبدّله بعنوان آخر لا يكون عنوانَ الشقة التي تعيش فيها، خوفاً من أن تأتي حماتها في غيابها وتبحث بين أشيائها ثم تعثر على المفتاح في المغلف الصغير وتذهب إلى الطابق السفلي في سلفردجز تفرغ محتويات الصندوق الحديدي، حيث يقبع بين مئات الصناديق مثله، في ركن معتم، هادئ، تحت دعسات المشترين وأصداء الموسيقى.

ـ ليس، هناك شيء يحيّرني بالنسبة إلى سعر هذه الشقة المعقول بالقياس إلى الغلاء العظيم الذي اشتهرتْ به منطقةُ المي فير ـ ربما لأنها لم تعد سكنية، بل أصبحت مكاتب وحوانيت لبيع التحف الفنية، رغم أن ماونت ستريت باعتقادي هو من أجمل الشوارع اللندنية. إني أشبهه ببتراء، أقصد بألوان البنايات. أليس كذلك، دارلنغ؟

ـ لم أزر البتراء، لكني أسمع أنها سحرية.

ـ سآخذك لرؤيتها قريباً.

لا تعيد على مسامعه أنها تخاف أن تسافر معه كسائحيْن إلى أيّ بلد عربي، ولو أخذ كل منهما غرفة مستقلّة.

ـ هذه المنطقة من لندن هي التي كنا نحبها أنا وأخي.. البلانيتريوم، المتحف، الغاليريهات.

تداعب ليس شعره، تتمنى لو أنها عرفته وهو صغير، ولا تتمنى لو رآها صغيرة. كانت تبدو في إحدى الصورتين الوحيدتين من الطفولة وكأن المشط لم يعرف خصلات شعرها الذي كانت شمس النجف تجعله جافاً، قاسياً، ولم تكن الملابس الجميلة تظهر قامتها، إذ كانت في فستان بنيّ ذي دوائر حمراء، أما حذاؤها فكان بالياً انتعلته من غير جوارب بيضاء.

ـ هل كنتَ تزور لندن دائماً؟

ـ أبداً. ثلاث مرات في العام. كانت زياراتنا من هامشير إليها، وكأننا نسافر من بلد إلى آخر. نستعد لها أنا وأخي قبل أشهر. مكاني المفضل كان البلانيتوريوم، حيث النجوم تنير الكواكب. كنت متسمراً لدرجة أني صدّقتُ أمي عندما سألتها أن تستعد لأننا سنطير ونحن في

مقاعدنا إلى السقف لنلمس النجوم. حبيبتي، حتى التاكسي الأسود كنا نتوق إلى ركوبه، وغاليري التيت حيث كان يسمح لنا ان نشتري بطاقات كثيرة.. أوه، وقطار الاندرغراوند كان أهم ما على قائمتنا السياحية رغم أننا كنا نشعر وكأننا دُخلاء على لندن، كلما رأينا الأولاد في عمرنا يركبونه بكل استقلالية، من غير ان يستشيروا خريطته كما كنا نفعل. دارلنغ.. لقد تحدثت كثيراً، وأنت ما كانت أمتع الأشياء في طفولتك؟

«جكليت، جيلاتي وحلاوة»، أجاب عنها نيقولاس بالعربية.

ـ أوه ، ما تزال تتذكر ما قلت لك وفي العربية؟! أنت عبقري، هل تشعر أنك لندني؟

ـ كم أتمنى! أعتقد أن باعة الجرائد هم اللندنيون الحقيقيون.. إنهم يعرفون أصغر الشوارع من غير أن يستشيروا خريطة الـ A إلى Z، وربما لذلك كل مَنْ نزح إلى لندن لا يكف عن ترديد الكليشيه: أريد أن أترك لندن، أريد أن أترك لندن.

كانت الشقة في ماونت ستريت عبارة عن علبتي سردين مرفوعة على قضيبين من اللون الزهري، وهو لون البنايات في هذا الشارع. ما إن يركبا السيارة من جديد حتى يضع نيقولاس يده على يد لميس مواسياً:

ـ خيبة أملنا الأولى، لا بأس. شقة فولوم في انتظارنا الآن.. ما زلت أشعر وكأننا طَيْران يبحثان عن المكان الملائم لإقامة عشهما. مكان لا علاقة له بماضي كل منا.

أنا متأكد من أننا سوف نعثر على شقة واسعة.. بالمفهوم الإنكليزي لا العربي... هل تعرفين أن سيف وآخرين في عُمان

يسخرون من هندستنا المعمارية ويسألونني دائماً: كيف باستطاعتكم العيش ببيتٍ غرفةُ طعامه في دور، وغرفُ النوم في دور، وغرفةُ الجلوس في دور، والمطبخُ في القبو؟

تبتسم له ليس ولا تقول له إنها تشعر بالارتياح لأن شقة ماونت ستريت سيئة، متمنية أن تكون شقة فولوم أسوأ.

ـ ما بكِ يا حبيبتي؟

ـ لا شيء.

ـ أرجو ألاّ أكون قد خيّبت أملك عندما قلت لك إن منطقة ليتل ڤانيس تشبه ضاحية من ضواحي لندن، فحتى إذا أردتِ شراء كتاب عليكِ الذهاب إلى أوكسفورد ستريت؟

ـ أوكي.. أوكي...

ـ أوكي، أوكي. أي تريدينني أن أسكت. هذا ما أسمعه طوال إقامتي في عُمان. أوكي أوكي، هل تعرفين مصدرها؟ يقال إن رئيس الولايات المتحدّة اندرو جاكسون كان يخطئ في التهجئة، لذلك كان كلما وافق على مرسوم جمهوري وقّع كتابته Oll Korrect، مستعملاً حرف الـ O بدلاً من الـ A وحرف الـ K من الـ C.

تضحك ليس وهي تفكر لماذا يحبها وهي تكاد أن تكون مملّة. لا تعرف الكثير من المعلومات والقصص. وهي غير صريحة معه. ما فائدة علاقتهما إذا لم تكن صادقة معه أشد الصدق؟ لماذا وافقتْ على مرافقته الآن؟ لماذا أوهمته أنها ذهبت طيلة الأيام المنصرمة مع امرأة العقار للبحث عن شقة أو بيت صغير لهما، في حين أنّها في

الحقيقة رافقت المرأة إلى مكانين وكأنها خروف يقاد إلى الذبح: فما إن أدارت المرأة المفتاح في الباب حتى أرادت لميس أن تهرب، وكلَّما خطت خطوة شعرتْ بألم زيارتها للشقتين في حضور سكانهما أو في غيابهم، ورؤيتها لأشيائهم، جعلتاها ترى كلمة «العائلة» تلتمع وتخفت، وتسارعان في جذبها إلى الشعور بالاغتراب والخوف من بناء بيت لهما، مفضلةً أن تعيش كما تعيش الآن.

هل تصارحه الآن، أم أنه سيظن أنها لا تأتمنه؟

ما تزال تَذْكر كيف استغرب أنها لم تقبل نفقة الطلاق لأنها لم تطالب بها. ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما أخبرته أنها لم تجلس وزوجها ليناقشا النفقة والمؤخر. وبدلاً من أن يتفهم موقفها، وهو أنَّها لم تكن تريد شيئاً سوى حريتها، وجدتْ نفسها وكأنها أمام والديها، أمها بالأخص، وهي توجّه إليها اللوم، وإنْ بدا لومُه لها كاستهجان ووجهة نظر مختلفة.

تضع لميس يدها على رقبته. كيف يمكن أن تحبه إلى هذه الدرجة، ومع ذلك تتركه بعيداً عن واقع حياتها؟ تخفي عنه مكالمة والدها لها من دُبي أول البارحة مبتدئاً بأنه وأمها ما زالا يعالَجان منذ طلاقها.

ـ اسمعي، فدوة، الآن ذقت الحرية، هل هي جنة؟ طبعاً لا، وأنتِ تعيشين بعيداً عن خالد الجوهرة التي خصك بها الله تعالى، خاصة أنك عايشة بشقته بدل ما تدبري لروحك وظيفة. المال يأتي ويذهب. لماذا لا تعودين إلى زوجك؟ اتصل عادل، لا بد أنّ أبا خالد دفعه إلى التحدُّث معي. يود مصالحتكما. أمه الداهية تبحث له عن عروس..

تصيح لميس بعلو صوتها والخوف يتملكها.

ـ لا. لا، لا، لا أريد أن أتصالح..

وتبكي وتتشنج وتصيح.

كأنّ والدها بكلامه هذا أصدر حكماً عليها. يمنعها من الوقوع في حب رجل وابتداء حياة جديدة. كأن الهليكوبتر التي دأبت في التحليق في سماء لندن قد غطّت، فاختطفت نيقولاس وارتفعت به.

تتأمله الآن غير مصدقة أنها تكاد تملك هذا المخلوق.. بكل ما فيه من ذهن وجسم. تبدّل رأيها وتقرر أن تعيش معه تحت سقفٍ واحد. هو هِبَةٌ أتاها كما مصر هِبَةُ النيل. هذا أول ما حفظته في كتاب الجغرافيا.

لكن ما إن رأت رجل العقار في انتظارهما عند الباب في منطقة فولوم حتى عاد يتلبسها شعور بالانعتاق والضيق، خاصة أن الرجل كان عربياً، لا من اسمه بل من لهجته حين يتحدث الإنكليزية. يتقدمهما إلى شقة في الدور الثالث من بناية هادئة. كانت شقة رائعة. تحيطها الجنائن، والأشجار والأبنية الجميلة، والسماء.

ـ إنها جميلة، حبيبتي (علق نيقولاس بالعربية). وعند سماع رجل العقار لهذه الجملة العربية عن شفتي الرجل الإنكليزي أخبرهما أنه لبناني.

يتبادل نيقولاس ورجل العقار الملاحظات والمعلومات. تضيق لميس بما تسمعه من تفاصيل: عن النور الذي يعيش في هذه الشقة حتى في الشتاء، والجهة التي تدخلها الشمس، والرطوبة التي لا تعشعش في الجدران أو السقف. وما إن فكّرت في إمساك نيقولاس وسحبه من هذه الشقة حتى ثارت على نفسها، تعنّفها، لأنها لا تتخيّل العيش مع هذا الرجل، رغم معرفتها أن العيش من دونه أشبهُ ببتر ذراعها.

- ٣ -

تضع أميرة في أذنيها سماعات الووكمن. أم كلثوم تغني في قلبها «رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا»، لكن التوق إلى الحب يجعلها تتذكر الشوكولا. تسرع إلى فتح الأنبوب وتشمه، فتفحّ رائحة الشوكولا وتَدخل أنفها. تفعل هذا للمرة التاسعة، ومع ذلك لم تنقطع شهيتها كما أكد لها بيتر، الاختصاصي.

لم يكن يؤمن بالريجيم سوى من طريق الرائحة، وسد الشهية. كلما اشتهت فتحتْ أنبوباً يشبه أنبوب الڤيكس واستنشقته. إذا اشتهت الشوكولا، استنشقت أنبوب الشوكولا، وإذا اشتهت الدجاج، استنشقت أنبوب الدجاج. «ماذا عن الفلافل اللبنانية والبصطيلة والكسكس والحريرة» تسأله، ليعِدَها أن يطرح فكرة أنواع مأكولات العالم على الاختصاصي الأميركي الذي توصل إلى اختراع هذه الأنابيب.

نهضت تبحث عن علبة الشوكولا التي خبأتها في شنطة السفر المرفوعة على أعلى طبقة من الخزانة. تسمع جلبة عند الباب. تجاهلتها عشرَ دقائق إلى أن تمكن الفضول منها ونظرت في العين

السحرية. لم تتعرف إلى الوجوه ولا الملابس ولم تفهم الضجيج الذي كان يحدثه الأولاد بين الحقائب والأكياس. وما إن سمعتْ اسم سمير حتى فتحت الباب لتقف أمام اللغط العربي بروب زهري ونظارات شمسية شبه عتمة.

ـ سمير موجود؟

ـ إسعاف والاولاد؟ أدخلوا أدخلوا.

ـ مش قليل. حفَّظك أسامينا؟

ـ تفضلوا. أدخلوا، أدخلوا.

كانت زوجة سمير ترتدي معطفاً ثميناً إنما ضعف مقاسها، كُمّاه تغطيان أطراف أصابعها. دفعتْ بأولادها وبمتاعهم داخل الشقة.

ـ شو... صام وصام وفطر على مصرية.

ولم تشأ أن تصحّح لها أميرة بأنها من المغرب، خاصة أن زوجته العدائية أردفت:

ـ قلّلي لي عايش مع رجّال لبناني...

ولم تستطع إلا أن تعلّق على روب أميرة ونظارتها الذهبية ونعلها الزهرية ذات الريش.

ـ شو أنا كان صاحِجْلي إلبس هيك؟ ليش كان في مصاري حتى إلبس هيك؟ وَلَد على إيدي، وَوَلَد ببطني، وَوَلَد بين إجريّ... سمير، وينك يا سمير؟ يلّلا يا ولد، تناول خيّك من أختك (عندما لاحظت أن ابنتها الصغيرة التي لم تتجاوز الخامسة من عمرها كانت على وشك الوقوع من ثقل أخيها الرضيع. ثم صاحت بأعلى صوت):

ـ حضرته تركنا على أساس بدّو يعطي السعدان لصاحبته واختفى... يعني عمل واجبه، مكالمة تلفون وكم قرش بيبعتهم وخلص وانتهى أمرنا.

ـ اسمعي! سمير راح مع القرد.

ـ الحمد لله يا ربي يا إلهي، انك ألهمتني وبعثت وراي. يمكن لو ما جيت، كان سمير أصبح بخبر كان، وتركني أتعذب بنسله، بدي أقعد أنا وأولادي على قلبك وقلبه.

وإذا بأميرة التي ما عادت تتمالك نفسَها ترفع نظارتها عن وجهها فتبدو كدمات حول عينيها، من آثار عملية التجميل، بينما تدوّرت حدقتاهما وهي تصيح بإسعاف:

ـ اسمعيني! أنا وسمير.

ـ شوضاربك قتلة؟ شو عم يغار عليك؟ بعمره ما غار عليّ، بعمره ما ضربني!

تضرب أميرة الأرض بغضب. تدخل غرفتها، توصدها من الداخل. ينظر الأولاد إلى الأم التي أمسكت برأسها. يبدأ الطفل بالبكاء، والتملص من بين ذراعيْ أخيه والذهاب إلى أخته، إلى أن أوقعها أرضاً ووقع فوقها.

تلحق زوجة سمير بإسعاف وتخبط على الباب صائحة. لم تفتح لها أميرة. كانت تحاول الاتصال بسمير على هاتفه النقّال وهي تفكر إلى أين يؤدي درب الغيرة. ترى هل ستتوقف زوجته عن الغيرة، إذا علمت أن الغريمات هم شباب لا نساء، شباب لا يعرف سمير حتى

أن ينطق بأسمائهم، وشباب لا يعرف منهم سوى جزء منهم، ليختفوا حتى قبل أن يعود من دوار لذته معهم؟

أخذت تخاف عليه بعد أن أصبح هوسه من بني جنسه إدماناً. لذلك اشترت له عدة علب فيها عدة الوقاية، وهي كانت تعلم بالبخل الذي اشتُهر به الإنكليز. مورين كانت تحاسب زبائنها على ثمن علبة الوقاية أيضاً.

أخبرها سمير يوماً أن زوجته لا تشك بعشقه لبني جنسه، والأدلةُ الكثيرة كانت تزيدها تأكداً أن لديه أكثر من عشيقة. عندما غطت عليه في إحدى الشاليهات في الشارقة حيث يعمل في التنظيف، وعثرتْ على فستانه والإيشارب بعد أن أخفاهما في أحد الأدراج، ما إن سمع صوتها وهي تدق على أبواب الشاليهات وتناديه، أخذت تبحث عن عشيقته، خاصة أن العرق الممزوج بعطر جورجيو على الفستان كان طازجاً. ولم يجد له بداً من الاعتراف بأنه يحب ارتداء الفساتين. وعندما لم تصدقه قام بتذكيرها:

ـ شو كنت ألبس بأيام الحرب؟ معقول ما سمعتِ القصص لما كنت ألبس فساتين أمي وألبس الكعب العالي؟ أكيد، أكيد بتتذكري الكيلوت الأزرق المشغول بالدانتيل وشريط الساتان اللي كان في جيبة البنطلون.

هو يذكر كيف أصبحت مهووسة.. بذلك السروال النسائي الصغير ، الذي تضعه قرب المجلى، فوق طاولة الطعام، على الكنبة. كلما صاح بها: «عيب يا مرا، عيب» كانت تصرخ به:

ـ أنا حرة عاجبني هالكيلوت، ناطره الأولاد حتى يسألوني عن سره...

ولم تصدق كلمة واحدة من اعتراف سمير لها، بل تزيد مصارحتُه لها شكوكَها فيه.

تَذْكر أميرة تعليقها على ما أخبرها به، وهو أنّ زوجته لن تصدق حبه لبني جنسه ولارتدائه الملابس النسائية لأنها أنجبت منه خمسة أولاد، ثم أخبرته عن عمتها التي تعيش في ريف المغرب والتي منعتها ابنتها من قبول هدية أميرة لأنها من مالٍ حرام، لتجيب العمة المسنّة: «لا أصدق أن أميرة تسرق». وعندما عيل صبر الابنة وصاحت بأمها أن أميرة تنام مع الرجال، ويدفعون لها المال الحرام، هزّت العمة رأسها وقالت: «والله ناس طيبين».

واحدٌ من أولاد سمير يدخل غرفة النوم، ينادي أمه. ترى معطف سمير على السرير. ثم كأنها كلب اشتم رائحة صاحبه في مكان بعيد، هجمتْ على المعطف تشمه وتشم رائحة عشيقته. ثم رمته لتمسك بالقيد وبأقلام ملونة وأوراق عليها رسوم طفل صغير. هل أَنجب، أم تبنى طفل المرأة ذات الروب الزهري؟ لا بد أنهم وضعوا السلة على ظهر الخزانة لإبعادها عن الطفل، وفيها ألعاب وأكياس من الفستق والبسكوت، وهذه الوسادة القديمة التي تقيأ عليها الطفل وتمرغ ولعب. ثم انقضّت على الخزانة تفتحها، لترى القمصان الملونة والقمصان ذات الكشاكش «فرو فرو» البنفسجية والبيضاء، والأحذية الرجالية ذات البكل الذهبية والجلد اللامع.

- يي يي.. مثل ثياب المغني اللي اسمه پرنس (يهتف ابنها البكر).

تتأمل سراويل من الجلد الرمادي والجينز الأحمر. تحمل بيدها كاسكيت مخططة وشال البوا البنفسجي، بينما يلعب الأولاد بالسلة وكيس الفستق والألعاب. تحمل البنت فردة من الحذاء الملون المزخرف وتقول لأخيها الكبير: «شوف شوف مثل صورة المركب بكتابك». لم يهتم أخوها. كان يشتهي بجنون ارتداء هذه القمصان الفخمة، وأمه تصيح وتمسك بكيلوت نايلون مرقط كالنمر ومعه بلوزة من النايلون من غير أكمام، بالترقيط نفسه، حتى أيقن الولد أنهم أخطأوا وأن هذه هي خزانة المرأة لا خزانة والده.

قال هذا لأمه، وبدلاً من أن تهدئ من نفسها صاحت: «حتى ثيابهم لازم تكون مع بعض».

لم تفتح أميرة الباب إلا عندما شوّش صوت سميرعلى صوت أم كلثوم. أخذ يدقّ بابها متوسلاً أن تفتحه لأن إسعاف تريد أن تعتذر منها.

- دخيلك أميرة، احلفي لها على القرآن إنك مثل أختي وأنا مثل خيك؟

- لا أحلفلها ولا تحلفلي. تدخل داري وتبهدلني! مراتك حمقا.. لكن الأهم يا سمير، السكن، وأنتم سبعة!؟

وكأن أميره ذكّرته بالكابوس فصاح بزوجته:

- صحيح وين بدكم تناموا؟ ليش جيتو؟ كيف جيتو؟ صحيح كيف جيتو؟ مين اشترى لك التذاكر، ومني اشترى لك هالكبوت؟...

ـ الشيخات شفقوا عليَّ وعلى الأولاد.. عندك خمسة أولاد.. هل تظن أن الذي أرسلته لنا كان كافياً؟.

ـ الشيخات أو الشيوخ. اسألي أميرة كيف عم أشتغل ليل نهار عشانكم، عشان تضلوا رافعين راسكم، وأنتِ رحتِ مرغت اسمي بالوحل. كيف هلق بدي إرجع على دُبي وصارت مرتي ناتاشا سمراء؟ يا أمي تعي ليّ راح يغمي علي.

ـ أنا خبرتك كيف أخذتني محاسن معها مرة، وبصُرت للشيخات بالفنجان وصادفت كل الأخبار اللي قلتها صحيحة، وصاروا يبعتولي السيارة تأخذني لعندهن كل يوم صبح وبعد الظهر.

مضى سمير بتمثيله الغيرة عليها التي يبدو أنها كانت الطريقة الوحيدة للسيطرة عليها.

ـ أكيد! الشيخات شافوكِ من السماء نازله عليهن.. على كل إذا سمعت كلمة واحدة خنقتك.

تهدأ زوجة سمير. إنه يغار عليها. إنها ملكِه. هددها بالضرب وبالخنق. وهل تريد أكثر من هذا دليلاً على حبّه لها؟ وها هو الآن متهالك. لا بد أنه لم يصدقها، عيناه تزوغان تحاولان معرفة حقيقة المعطف. لكن ما إن تطلعه على التذاكر ذهاباً وإياباً دبي ـ لندن، لندن ـ دبي وإقامة لسنة واحدة مدفوعة على جواز سفرها حتى زاغت عيناه ووجد نفسه يصرخ: «لقد انتهيت، لا عمل، لا مرح، إنما ست سلاسل حديدية التفت حول رقبتي. أنتِ وأولادك».

لكن أميرة تدخلت رغم شعورها بأنها فقدت سمير: «يجب أن تشكر الله، سمير، على أولادك الظرفاء.. فعلاً هم في غاية الأدب، اذهب وعانقهم».

يهرع سمير إليهم.. يحضنهم، يقبلهم واحداً واحداً، مقرباً كلاً إليه، حتى أصبحوا كرة. والقرد يغار. يحاول بكل عزمه أن يبعدهم عن سمير قافزاً على رؤوسهم وصدورهم، وحين يفشل يصيح صيحات يرتعب منها الجميع. عدا زوجته التي كانت تحدِّق في معطفه، تتمنى لو تخطف له شنطة يده التي ما زالت حول زنده والتي لا بد أنها تحمل كل أسراره.

- ٤ -

نهضت لميس في منتصف الليل، تتصل بنيقولاس في عُمان تخبره أنها قررت أن تعيش معه. كالعادة لم تَخُضْ في أية تفاصيل حتى إنها لم تخبره بأنها ترى أنيتا تقريباً كل يوم.. على كلٍ، من يلمّ بنيقولاس أكثر من أنيتا؟ ولميس تود أن تعرفه حقاً.

لن يتفهم حاجتها إلى رؤية أنيتا، خاصة بعد تلك الليلة عندها، قبل سفره إلى عمان، حيث تشابك ثلاثتهم وكأنهم ثلاثة خيوط أمسك بكل منها ولدٌ عند باب محل الطرّاز. كلما بدل الأولاد أماكنهم بقفزة قدمٍ غزلت الخيوط الثلاثة وضفرتْ نفسها.

أنيتا تغازل نيقولاس على الملأ وتضحك كلما أبعدها عنه. تهمس في أذن لميس سائلة إياها أتفه الأسئلة، ولميس تمازحها وتضحك. وهكذا دواليك، إلى أن توضحت العلاقات بين الثلاثة عند انتهاء السهرة. في طريق عودتهما إلى شقته، سأل نيقولاس لميس:

ـ لماذا كنت تحاولين إغاظتي؟ هل تعاقبينني على الماضي أم أنك تبرهنين لي أنك جريئة؟ أرجوك صارحيني.

لكن ليس التي أرادت أن تَفْهم نيقولاس من خلال أنيتا، أخذتْ تستمتع بأوقاتها معها وهي تكتشف لندن أخرى، التي كانت تبدو وكأنَّها قد ضُمَّت في ايشارب واسع وخُبِئَتْ عن السائحين والمعزولين مثلها. دعتها أنيتا لتناول شاي بعد الظهر في صالة شاي أقيمت بين المقابر. أدخلتها في حديقة كبيرة مُسيَّجة، حيث مئات الفراشات تغط وتطير من حولهما.

انصاعت ليس لما تريده منها عدسة كاميرا أنيتا لتكتشف فرحة افتتانها بالجسد وهو في حالة طبيعية، لا يستثار ولا يثير، وإنَّما هو حيٌ، يتحرك ويجلس ولا يخفي نفسه، تماماً كطفلٍ نُزعتْ عنه ملابسه وأخذ يصفق على بطنه سعيداً قبل أن يعانق الماء أو الرمل. لم يتعرَّف زوجها إليه ولا ابنها ولا حتى أهلها، «إنهم لم يعرفوا سوى وجهي. لو عرفتْ أمي جسمي لما طاقت أن تزوجني هكذا».

*

تقرر ليس أن تعيش مع نيقولاس بعد زيارتها للأدجور رود مع أنيتا بعد ظهر اليوم.

كانت تبحث عن دكان معين، قيل لها إنه يبيع أحذية نسائية غريبة الموضة من أجل تصويرها لمجلة نسائية. اختارت أنيتا حذاءً عليه قلبٌ أحمر، يضيء ويطفئ وكأنه ينبض، وآخرَ مشغولاً بالخرز الفيروزي، وآخرَ على شكل شفاه، وحذاءً مخملياً عليه الورود الاصطناعية وأمواجُ بحر زرقاء.

هذه الليلة أغمضت ليس عينيها، رغم رائحة سيكار زوجها وأصدقائه التي دخلت خياشيم أنفها. لكنها أيقظتها وهي تحلم بأنها سيكار كلما مجّ به زوجها اشتعل رأسها.

زيارتها إلى الأدجور رود أكدتْ لها أنها أصبحت في الشق الآخر، بعيداً عن الرجال العرب الذين رأتهم، هذا المساء، وكلهم ثقة أنهم ينتمون إلى هذه الحياة رغم تغافلهم عنها وتغافلها عنهم.

تدوّن في اليوم التالي على ورقة:

١ ـ ابني: تضع إشارة صح إلى جانبها.

٢ ـ القلب: تضع إشارة صح.

٣ ـ اللهجة: تضع إشارة صح ثم علامة استفهام.

٤ ـ العمل: تكتب هذه الجملة: ما زلتُ أفكر بين تنسيق الأزهار وتعلّم حرفة صنع المجوهرات الفضية.

تقرر التخلص من الصناديق والشنط في شقتها. تُقْدم على فتح إحداها ثم تتراجع. تتلهّى بالنظر عبر النافذة. حتى برج الـ بي تي تحوّل على مدى السنين من مركز للبريد إلى برج للبث وأبدلت كل أدواته ومعداته. تَهْجم على الملابس تودعها شنطاً وأكياساً سوداء. كلما أقفلتْ كيساً، أقفلته على حقبة من عمرها، وكلما نسيتْ ما وضعت في الكيس الأول فرحتْ.

تركت الشقة سريعاً قبل أن تبدّل رأيها. قصدت محلاً يعود ريعه للجمعيات الخيرية... كانت البائعة، وهي امرأة عجوز، رفضت استلام الأكياس الكثيرة الآن، تسأل ليس أن تنتظر أو تعود ريثما تأتي المساعدة.

تتركها ليس وتوقف تاكسياً يأخذها والأكياسَ إلى دكان خلف هارودز. كانت حماتها تشتري الملابس المستعملة ذات الماركات المعروفة من هناك، وترسلها هدايا إلى قريباتها في العراق وفي بيروت وحتى في ألمانيا.

تركت ليس الموظفة تفتح إحدى الشنط. يسبقها حفيف بلاستيك، أمتار من الدانتيل، ثم فستان عرس. تجمد المرأة أمام فستان العرس. أعادها من بين القماش والمُوَض إلى الواقع. وبدلاً من أن تؤنِّب ليس على ما جاش في صدرها: «انتن في منتهى الأنانية والطمع! ماذا عن الذكرى، ماذا عن بناتكن قريباتكن؟» قالت بكل رياء:

– أوه! ما أروعه. لا بد أنك بدوتِ كالأميرة فيه. أفهم جيداً.. الخزائن لا تستطيع أن تحوي فستاناً كهذا، أوه.. إنه رائع. صديقة لي استغنت عن الذيل وأصبح فستان سهرة. هذا التطرين، معك حق... تريدين أن تفرح به أيّ عروس. هناك دكان مختص ببيع بَدَل الأعراس. على كلٍ، سأشتريه منك، لن أعذبك بإرسالك إلى ذلك المكان، سأفعل هذا من أجلك.

تسرع ليس خارجة كالسهم، خائفة أن تصادف حماتها. فإذا بصوت يناديها. تجاهلت الصوت الذي لحق بها. لم تكن صاحبته غير أميرة التي هجمت عليها بالقبلات:

– بسم الله الرحمن الرحيم، مش معقول!. بسم الله الرحمن الرحيم، مدام ليس؟ نهار كبير هدا يا للا.. اسمعي. البارحة كنا بسيرتك. لازم ودانك خشخشو لك. اتصلت بنيقولاس وقال لي أنتما صديقان بل حبيبان وانه سيسافر إلى عُمان!.

ـ سيعود الليلة. وأنت كيف الصحة؟! لقد بدلتِ لون شعرك.. وكيف سمير وسعدانه؟

تضرب أميرة كفاً بكف:

ـ السعدان وسمير! قصتهما قصة. كانا يعيشان معي إلى أن جاءت عائلته. اسمعي، تعالي معي لحظة، ومن بعد نروح هارودز أو مقهى «ريشو...». اشتريت مثل الحمارة أربع شنط يد من موديل واحد بألوان مختلفة نفكر نبيع ثلاثاً وأترك واحدة لي. وأنت ماذا بعت؟

ـ ولا شيء، الحقيقة لازم أرجع البيت.

ـ الحقيقة أنك ستأخذين الشاي معي من غير أي عذر. هل أترك الشنطة السوداء لي أو النبيذية؟ ما رأيك؟

ـ النبيذية.

توافق لميس على انتظار أميرة، التي عادت بلمح البصر، والكيس لا يزال في يدها.

ـ سرّاقين.. أعطيها.. أرميها ولا أبيعها بالرخص. تخانقتُ مع السخيفة. تصوّري أخذتْ تفحص الأزرار ، ثم جاءتني بعذر أقبح من ذنب.. قالت إنّ هناك كثيرات يبدلنها بأخرى يقطعنها وهي معلقة في الدكاكين. قلت لها: «أنا عربية، لست أميركية، لا أريد إلاّ الأصلي». على العموم، لا أحب أن أُعطى أو أعطي ما هو مستعمل، لأن حرارة الانسان وما فيها من أمراض وهموم وحظ سيئ لا بد أن تنتقل إلى الأشياء. انظري.. انظري، كيف وقف شعر بدني حتى لمجرد التفكير.

تفكر ليس بالمرأة التي سوف تشتري ملابسها ولا تعرف هل ستكون أسعد حالاً منها، أم أسوأ. تحاول أن تجلس في أقصى مكان في المقهى، خوفاً من حماتها التي كانت تصرُّ على الجلوس عند الباب الزجاجي، كي تراقب العربيات وتشن عليهن حملة تفتيش وكأنها معلمة تمسك بيدها قلماً وورقة. تعترض أميرة على الطاولة:

ـ هل نعاقب أنفسنا!؟ تعالي نشوف خلقة ربنا.

ـ هنا مكان هادئ..

ـ مين عايز الهدوء!

تسحب ليس إلى الطاولة قبالة المدخل، وما إن تجلسا حتى تنهض أميرة قائلة:

ـ لديك كل الحق أن تخافي وأنت معي. بس، وحياة عيونك، أنا في هذه المنطقة ست محترمة مثل باقي الستات.

تشدّها ليس ملحّة عليها أن تجلس:

ـ أعوذ بالله، وحياة ابني لم أفكر في هذا قط، أبداً. بس أنا خايفة تشوفني حماتي.

ـ لكنك مطلقة!! الظاهر حماتك عقرب! بعدك خايفة منها؟ ليس، ألا تجدين أنّ لقاءنا اليوم صدفة غريبة؟

ـ الحقيقة أن ضميري كان يؤنبني لأني لم أتصل بك في اليوم الذي عدنا به من دُبي لأعتذر عن العشاء، وحتى لأشكرك أيضاً لإيصالك لي..

ـ معذورة. هل تعرفين المثل القائل: «أكبر منك بشهر أفهم منك بدهر»؟ وأنا أكبر منك أيضاً بمؤخرتي وبتجاربي. (تضحك).. صدفة اليوم علمتني درساً. قلت لسمير كاذبة إني اتصلت بك، وإنّنا سنلتقي اليوم وحياة ديني وحياة القرآن، (ووضعت يدها على صدرها). لذلك يجب ألاّ نضيع الفرص، أقصد أن لا أضيع الفرصة. هل معك وقت الآن؟ أرجوك! نصف ساعة نذهب إلى الكازينو. وجهك حلو عليّ.. أرجوك.

ـ كازينو في النهار؟

ـ أرجوك! هذه خدمة لن أنساها لك... تقفين إلى جانبي ريثما أضع الأرقام فقط لا غير.

ـ لكن... لا أستطيع.

ـ يالّلا.. خمس دقائق. أرجوك.

تنادي أميرة الغرسون ثم تفتح شنطتها رغم إلحاح لميس أن تدفع، إلا أن أميرة تمد له بعشرة جنيهات. تجد لميس أنها تتبعها كالمسحورة.. «لا بد أني عديمة الشخصية»، وتبتسم لمؤخرة أميرة؛ تراها عالماً بذاته. تسير وتهتز وتسلي نفسها. وإذا بلميس تشعر بالأمان كلما تأملت ضخامة أميرة، وتتذكر ما قالته لها حماتُها مرةً وهي تتأمل نحافتها: ماذا جرى ؟نهضتِ عن الكنبة وتركتِ مؤخرتك فوقها؟

تسحب أميرة من شنطتها قلماً من الحبر، لتكتب حرف الكاف بالعربية على بنصرها اليمين، ثم تتوقف وهي تضحك: «نسيت أنك

معي». كانت أميرة تود أن تكتب حرفاً على كل إصبع من هذه الكلمة ك. هـ. ي. ع. ص وعلى اليد الاخرى ح. م. ع. س ق تضحك ليس هي الأخرى: «سور قرآنية!! هذه التعويذة من أجل الكازينو»! كانت تلم بموضة هذه التعويذة الجديدة لدى الجاليات العربية: يكتبن هذه الأحرف على رؤوس أصابعهن، ويرفعنها عند كل مأزق. امرأة مصرية نشرتْ هذه البدعة حين سقطت ابنتها في امتحان قيادة السيارات مراراً، ولم تنجح إلا حين انصاعت لمعتقدات أمها، فقادت السيارة وهي تفرد أصابعها حتى تواجه الأحرفُ مقودَ السيارة، وتبث فيه السحر.

دهشت ليس، وهي تكشف من التسريحات والوجوه أن معظم النساء الملتفات حول الطاولات كن عربيات وإيرانيات، وتبيّنتْ منهن مطلّقتيْن.

كانت لذة الكسب شرهة، والدخان يسدل غلالة فوق الأعين كي لا تلتقي بالأعين الأخرى، وكي لا تصدق الأرقام الخاسرة. تلاحظ ليس أيادي العجائز المرقطة بالنمش، حيث الشرايين نافرة تحمي الخواتم من الانزلاق. تسحب أميرة ليس وتقف وإياها حول طاولة، وتسألها «اعطيني ستة أرقام. مفرد؟ مجوز؟ كما تشائين».

ـ ١٨، ١٦، ١٤، ١٢.

ـ ضعيها أنت، ضعيها أنت.

تتردُد ليس: هذا ما ينقصها. كادت أن تسجن في دُبي بتهمة تهريب المخدرات، ثم لتصبح بائعة هوى، ثم لاعبة قمار. هذه الخاطرة

جعلتها تمد يدها إلى أقصى حدود الامتداد وكأنها تترك حمولة ظهرها بعيدة ١٨ ـ ١٦ ـ ١٤ ـ ١٢.

ثم أعادت يدها التي تلقفتها يد أميرة وهي تغمض عينيها وتبسمل ثم لتفتح عينيها على: ١٨ ـ ١٦ ـ ١٤ ـ ١٢.

*

في المساء، تغطس في البانيو. يدق التلفون. تخاف أن يكون نيقولاس أرجأ عودته. إنه نيقولاس، وهو على همة ركوب الطائرة عائداً إلى لندن. يعاتبها، لأنها لم ترد على مكالمته. ترتبك، تصاب بالتأتأة، فجأة لم تستطع أن تختصر مشاعرها وتخبره بأنها كانت مشغولة طوال اليوم بالتفكير فيه رغم مصادفتها لأميرة، وفي تحضيرالزهور والخبز والنبيذ والشوكولا والفاكهة. ترددت وهي تشتري الجبنة، اشترتها ووعدت نفسها بألاّ تأكلها. تجد متعة كبيرة وهي تقوم باختيار كل هذا. تسرع عائدة إلى شقة نيقولاس. تضع كل شيء في مكانه، قبل أن تبتدئ بإعداد نفسها له.

تتقلب طيلة الليل في الفراش، حتى إذا ما قُرع الجرس في الصباح الباكر قفزتْ مسرعة تغرغر فمها بالنعناع وتضع القليل من الحمرة على وجنتيها قبل أن تركض وتفتح الباب، لتكتشف أن أرقها الذي يسكنها ينام أحياناً. دخل نيقولاس وهي تغط في النوم. هبت فجأة عندما أحست أنه في الغرفة. تنتظر في الفراش، كأنها شبكة باسكيت بول تستعد لتتلقى الكرة من كل الجوانب.

بعد ساعات من النوم قدم لها ما حمله، وكذلك لعبةً رخيصةً ترتدي فستان عرس وتضع إكليلاً على رأسها.

ـ هذه مهمة في حياتي.

الفصل السابع

- ١ -

لكن اللقاء بعد عودة نيقولاس من سفرته الثانية إلى عُمان لم يسترجع نفسه، ولا القبلةَ ذاتَها التي تحوّل اسمُها إلى الاشتياق. ما الذي يقوله العاشقان في موازاة الافتقاد والحب؟ فجأة توقفتْ معانقتهما. لا بد أنه يريد أن يدخل في الفراش، لا بد أنه تعب، لا بد أنه جائع. تنتظر أكثر من احتضانه الشديد لها، وإذا بأنفاسه تنتظم. يغفو. تشعر بالانهيار، وهي تتأكد أنه نام تماماً كبراميل الويسكي الخشبية التي يستغرق نومها سنوات طويلة في معامل التكرير.

تنهض على أطراف أصابعها وكأنها راقصة باليه، مانعةً نفسَها من الارتماء والتمرّغ في الأرض. تحين منها نظرة إلى الطاولة، إلى حقيبة يده، ثم إلى رسالته أو الكتاب الكولاج الذي أرسله إليها من عُمان ، تفتحه على رسوم أشجار جوز الهند والرجال العرب يقرأون المجلات النسائية، وعلى المستحمّين يتقافزون على الرمال حيث النار تتصاعد منها أشجار اللُبان غير الجذّابة. على صفحة بحر أزرق إعلان عن عطر امرأة تتعطر به، إلى جانب صورة للسلطان قابوس وهو في عباءة زرقاء. بلهفة تحاول أن تقرأ ما بين السطور. تحاول أن

تقنع نفسها بأن مطارحة الحب أحياناً لا علاقة لها بالحب، بل كأن الكلمتين تنتحلان صفة لا دخل لهما فيها. هناك رجال يمارسون الحب مع بائعات الهوى. وفي هواجسها هذه يغمرها مزيد من القهر. إذا كان الرجال يضاجعون أية امرأة، فلماذا لا يطارحني الحب إلا إذا توقف عن اشتهائي، إلا إذا كان صمّم على تركي؟

تستعيد مكالمتَه لها من عُمان عن مدى اشتياقه وحثها على زيارته. «لا أفهم هل تحبينني فعلاً؟ لماذا أنت وحيدة في لندن وأنا وحيد هنا»؟

بدّلت أنذاك الموضوع، لا بد أن عمال التلفونات في البلاد العربية يتنصتون على جميع المكالمات. تسترجع المكالمة التي يقول لها فيها: «هل تريدين علاقة جنسية فقط؟».

«هذا هو السبب» تفكر الآن: الطريقة التي أقفلت بها الموضوع من غير أن تشرح له أو تحاوره أو تسأله ماذا قصد «بعلاقة جنسية فقط»، أو أن السبب هو عدم الاهتمام لسؤاله واستفهامه المتواصل عن موضوع شقة فولوم التي وقع في غرامها، وعمّا إذا اتصلت برجل العقار من أجل أن تتخذ الإجراءات اللازمة لشرائها؟ أو أن السنوات السعيدة قد ولّت، تلك السنوات التي كانت لميس تظن أنها تتكدس في مكان ما تنتظرها، مقابل إرجاء طلاقها؟.

ينهض الآن يقبّلها ويعانقها ويجعل فمه فرناً للولب أذنها. يعد الثآليل الثلاث الصغيرة عند رقبتها، زادت واحدةً في غيابه. يقبل كلاً منها، ومع ذلك لم يبادلها الحب، بل سألها ماذا تقترح أن يفعلا

اليـوم. قـررتْ ألاّ تصـمت، لن تبلع، تريد أن تفـهم. تسـأله: «مـاذا جرى؟».

ـ أحب أحـيانـاً أن أحـبك هكذا وأن أدخـرك كـمـا يدّخـر الطفل الشـوكولا لما بعد، وكما يدّخر الرومانسيون زيارة مدينة البندقية لما بعد.

ـ لم أعرف أني قرش أبيض يُخبّأ ليومك الأسود.

ضحك وأخذ وجهها بين يديه، وكأنه أمٌّ سئمتْ من تكرار تسديد النصائح إلى ابنتها وقررت أن تجعلها تسمع وتفهم هذه المرة.

ـ أريد أن نعيش معاً، من فضلك، من فضلك، هل تذكري وعدك لي؟، فكّري جيداً في الموضوع قبل إجابتي.

ـ وأنا كذلك، أريد أن أعيش معك.

تبادلا فعل الحب، لكن لم يكن ذلك كما في الماضي.

تتأمله يدخل الحمام. خافت أن يتوقف عن حبها. شعرت فجأة كأن يداً أو رجلاً بُترتْ منها.

وإذا بها تقول له كاذبةً إنها ما زالت تبحث لهما عن شقة، وإنه يجب ألا يندم على ضياع شقة فولوم، لأنها ليست من حظهما وإلا لما بيعت بسرعة كما حصل. في اليوم التالي أتت بحقيبة واحدة إلى شقته. لن يعرف أحد بانتقالها إلى شقته. التلفون النقال هو حلاّل المشاكل، يستطيع خالد أن يتصل بها عندما يشاء. لكن ما إن أطلّ الصباح حتى وجدت نفسها تعود إلى شقتها، كالعادة تمضي فيها معظم ساعات النهار.

لم تسأله ما به في المرة الثالثة بعد عودته من عُمان، حتى عندما تركها في الفراش في صباح عودته مكتفياً بضمها إليه قبل أن يهرع إلى المطبخ ويدير السخان.

تتجاهله وتنهض عارية وتأتي بعصير البرتقال، عندما رأته يرتدي ملابسه سألته:

ـ هل أنت بردان؟

جلست على ركبته وهو على حافة السرير يضع جواربه، قبّلها على كتفها قبلة صغيرة كمن يطردها. نهضتْ عنه وأخذت ترتدي ملابسها.

في المساء عندما نهض متحاشياً لمساتها وتحرشها به، تذكرت بعض حججها لزوجها: «لديَّ صداع أو بلعومي يؤلمني، العادة فاجأتني»، ليقترح عليها زوجها ببراءة أن عليها زيارة الطبيب النسائي بعد أن لازمتها العادة الشهرية حوالى الشهرين.

ـ هل أنت في العادة الشهرية، نيقولاس؟

يحضنها نيقولاس ويقبلها، تتنهد فرحة وهي تستجيب له وتغدق عليه كل ما لديها، وتعلو عن الكنبة كأنها يوغي يطير عن الأرض، وإيقاعُ حركة جسمها يكاد يوصلها إلى النشوة. لحظةً أخذتْ تفكر كم هي سعيدة وأن كل شيء على ما يرام بينها وبينه. قرأ أفكارها وتوقف فجأة. تركته قليلاً، قبل أن تسأله ما به؟

ـ لا شيء، بلوغ اللذة يجب ألاَّ يكون قاعدة.

ـ قرّرت ألا أخبِّئ شيئاً. لا أريد أن أعود ميس الماضية، لا يهمني عزة نفسي، عليك أن تخبرني لماذا تتركني وتنهض؟

ـ أخبرتك، ليس المهم أن نأتي بلذتنا كل مرة.

ـ ربما أنت لا تريد، لكن أنا أريد.

ـ آسف.

شعورها بالإهانة كان في حجم حزنها. هل تنتقم منها الطبيعة، لأنها عاندتْ سير أمورها وقالت لا للأمومة وللزوج والعائلة وللجذور؟ كيف تخلق لها الطبيعة حاسة الذوق بعد كل هذه السنين، ثم تعود فتشل لسانها وتسد لها أنفها؟ فقط عندما سمعته يصفر وهو في المطبخ وجدتْ أنها تمد يدها إلى رطوبتها تغمض عينيها. لم تلمس نفسها قبل الآن.اختلط عليها الأمر بين الرغبة في أن تأتي بلذتها لأنها لن تحتاجه منذ الآن، وبين تحدّيها إياه.

هذا الضياع يؤخّرها، أو إن جسمها اعتاده، وأخذ يرفض أن يلامسه حتى في جزء من نفسه. ومع ذلك حاولت أن تمضي رغم دخوله الغرفة وصيحته:

ـ يا مسيح!

مضت وهي تعرف أنها لن تصل. تفتح عينيها. ابتسامتها الخفيفة هي التي طيرتْ عقله، صاح بها:

ـ أنت حيوانة جنسية، توقفي توقفي.

توقفتْ وارتدت ملابسها وغادرتْ كأنها أخرى.. قدماها ترتجفان، وكأنها تسير في هذا الشارع لأول مرة ولا تلتفت، بل تعرف أنه في أعلى هذا البيت في الدور الثاني الذي لا تراه ولا تشير بعينيها إليه كانت تنام وتستيقظ. ترى صندوق أشرطة التلفونات وتتساءل هل ترى سيجري بها صوتي بعد الآن؟

يمد نيقولاس يده إلى ليس التي أوقفتْ تاكسياً. ينحني يعتذر إلى السائق. سارت ليس معه بصمت. على السرير أخذ ينزع عنها ملابسها بكل هدوء، ينحني ليسحب جاربيها، وهي تنصاع له من غير أن تساعده. بل هي لم تستلقِ على ظهرها، وإنّما وجدت نفسها تماماً كلعبة من قماش تتخذ الوضع الذي يتركها فيه بكل رفق. وفي جنون لا يصدَّق، أخذ يخلع ملابسه عنه ويرميها أرضاً وهو يهمس:

«ماذا تريدين دارلنغ، اطلبي وتمني؟».

- ٢ -

تلقى جامع ريجنت پارك ليلة عيد الأضحى ما يفوق عشرين خروفاً مذبوحاً ومبلغَ ألفيْ جنيه من أجل توزيعها زكاةً على الفقراء والمحتاجين الذين يترددون على الجامع. وعندما طلب المسؤول في الجامع اسم المتبرع من أجل أن يوقع له إيصالين، أجابه السائق: «اكتبْ: فاعلة خير».

تستمع أميرة إلى سمير وهو يخبرها بتبرّع بهية. لا بدّ أنه يكنُّ لها أشد الإعجاب، ولذلك علّقتْ بسخرية: «خافت بهية أن يعرف الجامع مهنتها فيرفض خرفانها وجنيهاتها... وبالطبع كانت ناهد معها».

تجاهل سمير تعليق أميرة وسؤالها، ربما عن غير قصد، إذ كان منهمكاً في إيجاد مكان في ثلاجة أميرة للحمل الذي قام الجزّار بتقطيعه له. وكان سمير قد انتقل مع عائلته إلى شقة صغيرة بالمجان، بعد أن توسّطت له أميرة لدى رجل مغربي يعمل في شركة عربية للإيجار والاستئجار، مقابل أن تجد له عملاً لأخيه في المملكة السعودية. إلا أن سمير ـ ولسعادة أميرة ـ كان يمضي معظم أوقاته

في شقتها، ولا يغادرها إلا عقب عودتها في الليل، لا إلى بيته بل إلى النوادي والأصدقاء حتى مطلع الفجر.

تقصد أميرة ناهد هذا الصباح بعد أن يئستْ من اللقاء بها رغم أنها تركت لها الرسالة تلو الأخرى في تلفونها النقال وغنّت لها: «زوروني كل سنة مرة، حرام تنسوني بالمرّة»، و«تجافيني مرة وتصالحني مرة». لا بدّ أن ناهد ما تزال غاضبة، تفكر أميرة، منذ خناقتهما في فندق الكلاريدجز. ولّت الأيام التي كانتا تتصادمان فيها ثم تتصالحان بعد لحظات تماماً كما تفعل الشقيقات، لا لأن ناهد أصبحت عصبية بل أيضاً لأن صبر أميرة نفد ولم يعد «على حد قولها».

الزبون الذي أوقعتْ به أميرة في الكلاريدجز رحّب بفكرة الأميرة العنود، وهي أن تنتقل معه إلى الفندق بعد أن تتذرع لدى أمها بأنها ستقضي يومين أو ثلاثة في الريف الإنكليزي للاستجمام مع مرافقتها الخاصة ناهد، والتي هي مقصورة على ملازمتها والاعتناء بها في البيت. كانت الخطة أن تغافلها ناهد أثناء أوقات غيابها من الفندق وتتحرش به.

وما إن دخلتْ ناهد إلى الغرفة الفخمة المخصصة لها في الفندق، الذي فُرض عليها احترامُه وكأنه بني آدم، حتى خلعتْ ملابسها وغاصت في دفء السرير الوثير، غير مصدّقة أنها تنام في قلب لندن الأرستقراطية، وهي ترى مِنْ حولها الشوارع النظيفة والدكاكين التي طالما طمعتْ في شراء كل ما فيها في الماضي.

اشتهت كل ما كان على لائحة الرُوم سرڤيس، خاصةً أنواع الويسكي المولت. تأكل، وتشرب الكأس تلو الأخرى، ثم تتصل بالقاهرة وتتحدث الساعات وهي مخمورة، حتى أصبح السرير مأوى لها، لم تغادره إلا في مساء اليوم التالي بعد أن شدتها أميرة منه وأجبرتها على الوقوف، وهي تساعدها في ارتداء ملابسها . وكانت اتصلت بسمير طالبةً منه الإسراع والإتيان بتاكسي سوداء إلى الفندق لاصطحاب ناهد، ولم تنسَ أن تعيد عليه كيف يتصرف وماذا يقول لرجل الاستعلامات في الفندق.

منذ ذلك الحين وأميرة تنتظر أن تعتذر لها ناهد على تصرفها غير اللائق الذي كاد يثير فضيحة. لكن بهية والجامع، وكذلك اشتياقها إلى ناهد جعلتها تأخذ الخطوة الأولى وتخبط باب ناهد، وتكبس زر الجرس، وكلها يقين أن ناهد لن تفتح لها الباب إذا كانت في الداخل «لا بد أنها ما زالت غاضبة علي». تفكر فجأة أن تدعوها للسفر الى القاهرة لقضاء بضعة أيام معاً، فتسعد ناهد لرؤية أهلها، بينما تقيم أميرة في فندق مينا هاوس حيث العصافير تنقد الحب من كف اليد.

ما إن فقدت أميرة الأمل في رؤية باب شقة ناهد مفتوحاً وهمت بالمغادرة حتى فُتح الباب، وامرأة ملثمة الرأس ترتدي جلابية تقف وسطه: ظنت أميرة لأول وهلة أنها ترى شقيقة ناهد أو أمها. ولكن تلك المرأة كانت ناهد بنفسها، وأميرة ما زالت تحت وقع الدهشة تبادرها بطبيعتها المرحة:

ـ إيه مالك شفتي ثعبان؟ خشّي خشّي.

ـ إيه نازلّك برد على ودانك؟ مريضة وما تقوليش من شهر وأنا أحاول بالتلفون؟

ـ لا، أنا اتحجبّت والحمد لله، شاي أو قهوة! إيه حد أكل لسانك؟ اصحي من النوم.

ـ حصل إيه يا ناهد؟

ـ ولا حاجة، جه رسول الله وصحّاني، وأنا كنت نايمة. الحقيقة كنت سكرانة موت، كنت عايزة أسكر أكثر. أصل الراجل الوحش اللي بقيت معه ثلاثة أيام مارضيش يدفع. قال أنا مستعجلة خالص. على العموم، رجعت الشقة وخشّيت الحمام على أنها أودة النوم.

ـ والراجل دفع، ابن الكلب دفع؟

ـ ده اللي همك في الحكاية. أنت ما تتغيريش يا أميرة! شفت نفسي بضرب القزازة بالحيط، ووعيت على يد رسول الله(ص) تصحّيني وتدخلني أوده النوم وتفتح لي البطانية، وتبقى معاي للصبح كدة حارساني. (تأخذ ناهد بالبكاء).

لا بدّ أن ناهد كانت تستجديها بإدمانها وعصبيتها المتزايدة. ومع ذلك لم تمد أميرة يدها إلى صديقتها.

بعكس ذلك فقد أنّبتها في الكلاريدجز، صاحت بها، أوشكت أن تصفعها، أجبرتها أن تحبس غثيانها الشديد لحين وصولها إلى فتحة التواليت، خائفة أن تتقيأ صديقتها على السجادة الجميلة أو على بلاط الحمام. وعندما جاء سمير ليصحبها، تشبّثت ناهد بها

وكأنها تغرق في مياه خطرة مستنجدةً بأميرة: «ما تسيبينيش يا أميرة، والنبي ما ليش غيرك بالدنيا كلها».

ـ والتحجب هو ضد الكلام في التلفون؟ أو خلاص ما يصحّش تتكلمي مع الضالين؟

ـ بقت أجوائي مختلفة. على كل أنت اللي حتضجري مني. أروح الجامع وتجيني واحدة تهديني على القرآن والأحاديث. تجي يا حبيبة تجربي حصة!

ـ أنا اسمي أميرة، متصالحة مع ربي. بس قوليلي يا ناهد، فروتك حتعملي فيها إيه؟

ـ ألبسها طبعاً، شوفي ده السخافة، إيه اللي دخل الفروة بالايمان والتوبة!

ـ ولا حاجة، بس أسأل؟

تندم أميرة على ما قالته. تشعر بحنان جارف تجاه ناهد، ومع ذلك لم تستطع أن تمد يدها إليها، أو أن تتحدث إليها فعلاً من القلب إلى القلب، أو أن تتفهمها. تتململ ولا تعرف هل عليها البقاء أو المغادرة. وإذا بالجرس يرن. تنظر ناهد إلى ساعة يدها وتفتح الباب لمحجّبات. تحتار لوهلة كيف تعرّفت أميرة بالمحجبات، لتقول أخيراً بكل جدية وهي تشير إلى أميرة:

ـ أختي في الجاهلية. (ثم تشير إلى المحجبات): أخواتي في الإسلام!

تغادرها أميرة وكلها ثقة بأنّ ناهد سوف تتصل بها في المساء، لتخبرها عن مغامراتها مع أخواتها في الإسلام.

أسبوع مرّ ولا خبر من ناهد، ولا حتى مخابرة هاتفية واحدة لسمير. ولم تصدّق أميرة أنّها فقدت صديقتها، بل قررّت أن ناهد قد عثرت على زبون ثري شَغَلَها هذه الأيام.

ومرّ أسبوع آخر وناهد ما تزال مفقودة. تروح أميرة تبحث عنها من جديد، لدى بهية في الكازينو، مع زملائها السابقين في الكاباريه إلى أن نهضت ذات صباح باكراً وأسرعت إلى شقة ناهد وفي يدها باقة من الورد، وعلبةٌ من الكافيار، وتذكرتان إلى القاهرة ذهاباً وإياباً وشيكاتٌ سياحية، وقد قررت ألاّ تحيد عن باب الشقة إلى أن تراها.

بعد دقات عديدة فتحت ناهد الباب وارتمت باكية على أميرة ما إن رأت باقة الورد: «قلبك دليلك، ده أنا بودّع الدنيا، أنا عيّانة خالص». ثم استجمعتْ نفسها ومازحت أميرة «اللي كنا خايفين منه جه أخيراً لعتبة الباب، وقال لي ما دامك دايماً خايفة خايفة آهو أنا حضرت بلحمي وشحمي حتى ما تخافيش».

ضربت أميرة وجهها، شدت شعرها وخبطت صدرها وهي ترى نفسها تمسك برأس ناهد تدنيه فوق التواليت حتى تفرغ كل أمعائها خوفاً على رخام الفندق.

تحضنان بعضهما بعضاً طويلاً قبل أن تودعها أميرة ظهر اليوم التالي بعد أن رقدتْ إلى جانبها في الفراش طيلة الليل، قريبةً من

السرطان، لربما شعر بصداقتهما وحنّ قلبه وغادر ناهد؛ فلربما أشفق عليها النبي (ص) وقرر أن يتوسط لها لدى ربه. التصقتْ بها أميرة، تريها كم تحبها، وأنها ليست خائفةً من أن ينتقل السرطان إليها، وهي توجه إلى نفسها كل اللوم لأنها لم تنتبه إلى ما كان يعوق ناهد، رغم الإشارات والدلائل الكثيرة.

ـ لماذا، لماذا لم تخبريني يا حبيبتي؟..

ـ خفت.. ينشغل بالك على روحك.

تودّع أميرة ناهد، مؤكدةً أنها سوف تمر عليها هذا المساء.

ـ إذا كنت مشغولة معليش ما أنتِ دايماً معايا... بس، أوعي تكوني راجعة عشان تاكلي الكافيار..

تضحك أميرة. وما إن تنزل الدرج حتى يدهمها البكاء، تبكي، وتبكي وتبكي...

- ٣ -

دخلت ليس شقة نيقولاس، تستعد للقائه. لم تر الزهور في الآنية، فقفز قلبها متخبطاً، ثم هدأت قليلاً وهي تفكر: لا بد أن جوليا رمتها. فهي لم تكن تحب الزهور، وتتأفف من الرذاذ الأصفر الذي تتركه أغصان الميموزا، وتخاف أن يهرّ قلب السوسنة ويصبغ الصوفا وقمصان نيقولاس، وترمي عيدان الشجر المعقوفة التي كانت ليس تضيفها إلى الزهور. في المطبخ تعرف أن جوليا لم تدخل الشقة. نيقولاس هو الذي رمى الزهور الحية لتتنازع في كيس من بلاستيك. ركضتْ تستطلع إنْ كان هناك عقرب أو ثعبان التف عليها كما في النجف. صُعقتْ وهي ترى مرطبان العسل وعلبة الشاي اللذين يخصانها في الكيس. عرفتْ أنه شنّ الحربَ عليها.

لكن رؤيتها لبقايا البرتقال الذي عصره، ولعلبة الطون الفارغة، ولقطع بندورة مقصوصة، جعلتها تفكر أن من يشن حرباً لا يتناول طعام الغداء. أسرعتْ إلى غرفة النوم، وإذا على السرير حقيبتها الصغيرة وأكياسٌ وقفتْ كالأهرامات الثلاثة. تفتحها وإذا بها تفاجأ بكل أغراضها: «ها هو قميص نومي ومشايتي وفرشاة أسناني،

زجاجة عطري، حتى مبرد أظافري، والقميص الذي كنت قد أهديته إليه».

تنهار لميس، تهجس أنها سوف تخوض شوطاً لا بأس به قبل أن تجد نفسها من جديد ترتدي هذا القميص، تدور غير مصدقة أنه ينبذها من حياته. هكذا من غير سبب. تفكر في حماتها وهل لها ضلع في ما يحدث.. ربما هددته. تطرد الفكرة ونيقولاس يلومها لأنها ما تزال مهووسة بهذه المرأة. يلومها؟ كأنه ما زال بينهما حوار وهو لا يطيق أن يرى حتى أشياءها، تماماً مثلها عندما ما عادت تطيق رؤية أي شيء يتعلق بزوجها؛ بل إنَّ مجرد مشاركتهما لمعجون الأسنان ورؤية فرشاة أسنانها إلى جانب فرشاة أسنانه كانتا تغيظانها. لا تعرف كم من الوقت مضى قبل أن تسرع إلى التلفون تبحث عنه وكأن كوابيسها تحققت. تحاول الاتصال به وتنسى رقم هاتفه.

تتصل به، يأتيها الجواب من عاملة التلفون، «آسفة هذا الخط مقفل، من فضلك حاولي مرة أخرى». تنظر في تلفونها النقال الخاص بها، لربما ترك لها رسالة. تعود لتجرّب رقمه بلا فائدة، مرة ثالثة ورابعة وخامسة وسادسة عشرة. تترك صوت عاملة التلفون ولا تقفل الخط، إلى أن تسمع تلفونها يزعق متحولاً إلى سيارة إطفاء.

تحاول أن تهدّئ نفسها. ما يحدث الآن هو ما يُدعى «خناقة»، غيمة سوداء وتنقشع تماماً، كأمها ووالدها اللذين يتشاجران ألف مرة في اليوم!

«لا بد أن يهدأ بعد قليل، كما أريد أن أهدأ الآن». تنهض وتأتي بعلبة الشاي ومرطبان العسل من بين النفايات. تعد لنفسها كوباً من الشاي، مجبرةً نفسَها على رشفه، ثم تأخذ حبة فيتامين من علبة نيقولاس، وكأنها كبسولة من دماء تضخ في شرايينها. تعيد أشياءها إلى مكانها. وإذا بلوحة رسمها نيقولاس على ورقة: وجه جانبيّ لامرأة تنبت من خط عنقها زهرةُ كاكتوس مخروطية، تنتهي بزهرة غريبة تكاد تكون مخيفة، فمها المفتوح بشراهة يذكر بزهرة آكلة الحشرات، بل إنها زهرة آكلة الحشرات نفسها. تمسك باللوحة بيدها تتعرف جزءاً آخر من فصيلتها، تكتشف العينين، الوجه وجهها، تتسمّر في مكانها. عينا المرأة تنظران بقسوة، هل تدري ماذا يحصل لرأسها. هل هذه خلايا سرطانية؟ إنه عضوُ رجلٍ يمتد في دماغها، إلى فمها الذي ابتلع معظمه.

ترمي الصورة، وتركض إلى المطبخ، فتلحق الصورة بها. تراها حتى فوق السوسن المحتضر، تغطي عينيها بكفيها.

تلم أشياءها وتعيدها إلى الكيس. لا تمزّق الصورة، بل تضعها فوق السرير. وشعورُ الغضب الذي اعتصرها سرعان ما تبخر وهي تفكر في أنّه قد يكون ترك لها رسالة في شقتها. تهرع عائدة ما إن ترى فلاشاً يلمع في مسجل التلفون. يقفز قلبها ويدير المسجل:

ـ لميس حبي، اتصلي بي. فدوة لأمر مهم. طبعاً أنا أميرة.

ـ مسز لاميس، هنا مكتب العقارات. أعتقد أني وجدت لك ما تريدينه. من فضلك اتصلي بي.

ـ مامي، هاي. مامي، عندما عرف الأستاذ أن جدّي من الأهوار طلب مني أن أكتب موضوعاً عن طفولته. هل تظنين أن جدّو يكتب لي الموضوع بالعربي طبعاً وأنت تترجمينه لي؟

صوت ابنها ما زال عالقاً في أرجاء الغرفة. تدير رقم أميرة، تكلمها باللهجة العراقية مازحة:

ـ عيني، فدوة، تعالي وياي كامبريدج.

ـ نيقولاس، نيقولاس اختفى، تركني.

ـ ربما هو سكران أومريض،، لا يقدر أن يتركك. قال لي إنه أسعد إنسان على وجه الكرة الأرضية.

ـ متأكدة، أميرة؟

ـ فيش احلفلك. معقول يتركك هكذا من غير سبب؟ لماذا تظنين أنه تركك؟

ـ في خصوص عيشنا معاً..

ـ لأنه يحبك. والانكليزي عندما يحب يريد الزواج، والعربي عندما يحب يتزوّج أخرى!

ـ لماذا تعذبني يا ربي، لماذا تعذبني؟

ـ ليس سآتي إليك الآن. أين أنت؟

تستجمع ليس نفسها:

ـ لا، شكراً أميرة، سأتصل بك في المساء.

تعيد الاتصال بتلفونه النقال، برقم شقته، بأنيتا تاركة لها رسالة تلفونية، بكريستي، بسوذبيز، بسبينكس، حتى في إنديا هاوس، تتصل بعُمان، تفكر في الاتصال بأمه، تُحضر دفتر التلفونات من شنطة يدها، تكبس الأرقام لتعيد السماعة قبل أن تكبس الرقم الأخير. كان عليها أن تبحث عن حقيبة سفره. ستجد شقة لهما في الغد، ستخبر ابنها في نهاية الأسبوع عن نيقولاس، هذا كل ما في الأمر.

تصعد سلالم شقة نيقولاس على مهل. تريد أن يراها فجأة وسط الغرفة.

هكذا.. خمسة أيام تنتظر والشقة تنتظره معها.

في اليوم السابع، فقط شعرتْ وكأن البلاطة التي كانت تجثم على حلقها منذ اختفاء نيقولاس انزاحت قليلاً، تركتها كقلم دخل فتحة مبراة ليصبح قصيراً وأكثر حدّة. ذهبتْ تزور أميرة، التي قررت أن تعود إلى عامة الشعب وترتدي ملابسها الضيقة، والتي ردّدت على مسامع ليس: «مصيره يبان يا ليس. نيقولاس طويل ما شاء الله، لن يستطيع أن يذوب كفص ملح».

وجدت نفسها تتلهّى بين سمير والمكالمات الهاتفية وصوت أم كلثوم والقرد المربوط من قائمته، الجالس في ركنه وفي يده مقشرة البندق والجوز يشد بها ويكسرها، ينقبها ثم يأكلها بعد أن يرمي قشرتها على الأرض. كان شكل أميرة يوحي بالاطمئنان، خاصة ابتسامتها الواسعة وهي ترى المواقف بشكل واضح وواقعي، كلما

لامت لميس نفسها، لأنه لم يخطر ببالها هذا التفسير، وذلك المنطق رغم بساطته. بادرتها أميرة «عيش كثير تشوف كثير، أنا حملت الدنيا كلها على كتفي من سن مبكرة».

ـ لماذا، لماذا، لماذا؟ هل خنته؟ هل كذبت عليه؟ ماذا فعلت له غير أني أحببته؟ أنا مهووسة به. لم أفعل شيئاً سوى أني أحبه.

ـ لم ترضي العيش معه.

ـ لكننا كنا كل ليلة معاً.

ـ هل تظنين أخذك شنطة صغيرة إلى شقته يعني أنك تعيشين معه فعلاً؟ المفروض أن تذيعا الخبر وتنتقلي إلى شقته، وتسافري معه بين حين وآخر ثم تتزوجا وتخلّفا صبياناً وبنات.

ـ لكن لماذا اختفى هكذا؟ كنا قريبيْن جداً كالظفر وطلائه. كيف يختفي هكذا؟ لماذا لم يحاورني أو يحاجني؟

تسرع في تسلق الدرجات متأكدة من أن اشتياقها له نبش الأرض وأوجده لها، وشقته كانت كما هي تنتظر معها. تعود إلى شقتها، وإذا بها كما هي تنتظر عودتها. رسالة أخرى هاتفية من خالد، تدير رقمه في المدرسة، تعده أن تأتي به بعد غد، وهذه المرة لينام عندها. وحين كانت تعيد السماعة تفكر كم هو محظوظ لأنه لا يعيش معها. تتصل بعُمان، بشقة نيقولاس في لندن، بعُمان من جديد، بشقته مرة أخرى، بأنيتا تاركة لها رسالة تلفونية أخرى تخبرها ما حدث. تنظر إلى برج الـ BT قبل أن تسدل الستائر وتسدل أجفانها وتفكر أن سبب هجره لها لم يكن سببُه عدمَ

انتقالها إلى شقته أو إلى شقةٍ خاصة بهما، أو عدمَ إخبار ابنها عنهما. فهي تركت له المراسيل. لقد قامت بحل كل شيء، ومع ذلك لم يتصل بها.

ما أن ترجّلا من القطار حتى شغلت لندن خالد، فقد طلب من أمه أن تأخذه إلى نامكو أركيد...

«في بيكادللي سركيس هذه المرة... من فضلك ماما».

لكن لميس أصرّت على أن تأخذه إلى هايد بارك بعد أن يتناولا طعام الغداء في هارد روك كافي. ثم اتجهت إلى المقهى حيث شجرة الصفصاف. هل تسأله أن يتذكر ما كان يقوله عن هذه الشجرة؟ يجب ألاّ تكون عاطفية، عليها أن تسعده لا أن تمدّه بالحزن. دخل يوماً بقامته الصغيرة بين أغصان الشجرة المتدلية ولمسها حتى وصل معها إلى الأرض، وقال: «لا بد أنها جففت دموعها». وفي مناسبة أخرى لمّ أغصاناً يابسة من تحتها وسألها: إنْ كانت هذه دموعها.

هذا الصبي الذي يجر نفسه جراً، لأنها لم تشأ أن تشتري له حذاء التزحلق على الأسفلت حتى يتزحلق مع الكثيرين في الهايد پارك، أهو من أطلق تلك الجملة اللطيفة عن الشجرة؟

ـ اسمعْ، لن نذهب للتبضع، أريد أن أتحدث إليك.

ـ نتحدث عن ماذا؟

تمنت لو أنها تستطيع أن تشركه بمرارتها على اختفاء نيقولاس.

ـ عن مدرستك، عن أصحابك، كيف حال وليم؟

ـ هل تعرفين ماذا فعلتْ جدتي به؟ أجبرته أن يأكل الكبة العراقية، آلمه بطنه، وأمه اتصلت بجدتي تسألها ماذا في الكبة العراقية، وجدتي غضبت كثيراً.

ـ لا بأس، ندعوه ونأخذه معنا إلى نامكو أركيد إذا أردتَ في الأسبوع المقبل.

ـ لن تقبل أمه. اتصلت بجدتي وقالت إننا نصرف عليه الكثير من النقود كلما أخذنا والدي للتفسح. وهي لا تستطيع أن تصرف عليه بالمثل. فتضايقت جدتي وقالت لها إن المبلغ تافه والعرب كرماء.

يخيّم الحزن على لميس وهي تستمع إلى ابنها، كم ما زال صغيراً، وكم هو في حاجة إليها من أجل أن تنشله من هذه الأجواء التي هربت منها.

ـ لو يرضى والدك أن تعيش معي! هل أحاول؟

ـ لا أريد أن أبدّل غرفتي، والدي لن يدعني.. أنا أعرف.

ترفع نظرها إليه. كان يراقب القوارب العائمة على سطح البحيرة، بين البط وطائر النورس. جذّف القارب مع والده مرة.

ـ أريد أن أجذّف، دعينا نأخذ مركباً.

ـ لا أعرف التجذيف.

ـ أنا، أنا أعرف.

عليّ أن أسعد لأنه يأخذ الأمر بهذه الصورة. منذ الليلة سأنام مغمضة العينين لا كالغولة، سأنام نوماً عميقاً.

ـ هل تعرف حقاً؟.

ـ طبعاً طبعاً، أعرف ماما، لا تسألي.

ـ اسألك لأني لا أعرف.

ثقته بنفسه جعلتها تنصاع له وتجلس في القارب تفكر خائفة: «لماذا التجذيف دائماً إلى الخلف، كيف يرى المرء خلفه؟».

ـ خالد! دعنا نعود.

ـ أنت خائفة، أقسمي، أقسمي.

كانت خائفة ألاّ يستطيع العودة بهما. أصبحا بعيدين عن اليابسة، وأصبحت حركته ثقيلة.

ـ دعنا نرتحْ قليلاً.

ـ أنتِ خائفة كأنك لست أماً. أعرف أنك تخافين من الماء، تخافين من الثلج، تخافين من الحصان، تخافين من ركوب الدراجة، من الحشرات، تخافين من الظلام ومن الكلاب.. لا. لا تذكرت... اعتدتِ الكلاب.

ـ أتيتك بمعلمة للسباحة غصباً عنك وعن والدك وعن جدتك.

ـ أذكر أني بلت على قدم المعلمة.

ـ دعني أجذّف معك.

ـ لا تعرفين... أنت خائفة. أقسمي.

ـ علّمْني. أريدك أن تعلمني.

وإذا بدفة المجذاف تُفلت منها وهو يعلمها، وقلبها سقط خلفها وانتشلها. شعرتْ بثقة عظيمة وهي تصغي إلى تعليماته، تركّز وتستمع إليه على غير عادتها، إلى أن اقتربا من اليابسة.

اخترقا الهايد پارك إلى پارك لين، ليوقفا تاكسياً. فرحته لأنه علمها التجذيف كانت عظيمة. دخلا شقتها، ويبدو أن خيبة أمله كانت كبيرة.

ـ ماما، لا أصدّق أنك تعيشين كالفقراء. كل شيء قديم، والتلفيزيون...

ـ سأبدّل كل شيء، بعد مدة قصيرة. فأنا أريد أن أحضر لك غرفة، مثل غرفتك في البيت، لأنك ستأتي أسبوعاً بعد آخر وتبيت معي. هل قضيت وقتاً سعيداً اليوم؟

ـ أحبك ماما (وضمّها إليه)، لماذا لا نذهب إلى السينما وإلى پلنت هوليوود؟

- ٤ -

كما تتدخل الشمس في حياة الانكليز، تدخّلت في حياة أميرة وحاشيتها. فما إنْ أطلت تباشير الصيف الحقيقي بتفتح الورود، على مساكب البيوت والساحات والپاركات، ورود كأنها النساء في قبعات جميلة ينحنين ليرين مَن الآتي والغادي مِن المارة، حتى ازدحمت الشوارع والمخازن الانكليزية بالعباءات السوداء والبراقع، تاركةً خلفها الروائح العطرية التي لا تطير ولا تختلط مع هواء لندن الفاسد.

تدخل أميرة ووصيفاتها الهايد پارك، واحةَ العائلات العربية، حيث الماء والأشجار والعشب، البط والأوز، والأحصنة والمتزحلقون على الأسفلت. كان المتنزهون العرب، على خلاف روّاد هايد پارك المسنين من الانكليز، يتسلّون بمراقبة الشباب من الجنسين وهم يتزحلقون على الإسمنت، ولكل متزحلق طريقته في الدوران والرقص والقفز والسرعة.

الكلاب هي التي كانت تسبب لهم الإزعاج، خاصة تلك التي تعدو أحياناً طليقة، بعيدة عن أصحابها، فيدب بالبعض الخوف والقرف

من أن تلامسهم. لذلك تسرع الخادمات الفيليبنيات ليأتين بكراسي الشيزلونغ المنتشرة على العشب، ينقّبن وينظّفن بقايا تركها كلب في البقعة التي اختارتها العائلة لتجلس. تستأذن الصبايا من الكبار ليتمشين عند البركة، يسدلن العباءات السوداء عن رؤوسهن ويتركنها على أكتافهن، ليبدون كفراشات ملونة ذات أعين سوداء، تتلصص بخفة ومكر على شبان بلادهن، الذين جاؤوا إلى هايد پارك من أجل أن يلتقوا زوجات المستقبل، ولو من بُعد. هذا العصر هو عصر التعارف وتبادل بعض الكلمات قبل الإقدام على الزواج ـ ولندن هي المكان المناسب ـ بعيدةً عن الأعين وهمسات الجيران والمجتمع. هايد پارك هو بالذات الذي تتوافر فيه الصدف في أجواء شاعرية، بينما أصبح أدجور رود ووايت ليز وكأنهما من معالم بلادهم.

يتمشى عرسان المستقبل وهم يتحدثون بكل تعابير وجوههم عبر التلفونات النقالة التي كان بعضها يحمل صور حكام بلادهم أوأعلامها، وتخصّص ببيعها دكانٌ ملاصق لفندق هيلتون في پارك لين. يختالون بالبذلات الايطالية المسرفة في الزخرفة بعد أن دلقوا عليهم عطوراً نفّاذة الرائحة جعلتْ رفوف البط والبجع تفرّ هرباً إلى الماء.

في زحمة هذا المكان، كانت أميرة تعرف ما يدور في رؤوس رجال تلك العائلات، ولسانهم يقول: «ها نحن أخيراً مع الماء والخضرة، لكن أين الوجه الحسن»؟

تقترب وحاشيتها من «سبيكرز كورنر» وتتوقف تستمع إلى الضحكات والصخب حول رجل عربي وقف يخطب بالإنكليزية.

شعرتْ أميرة بحبلٍ من الكلمات يمتد من قلبها إلى بلعومها، ولكنّه ما إن يصل إلى شفتيها حتى تقطعه. أرادت أن تدفع الخطيب وتقف بدلاً منه على صندوقي البيبسي كولا وتنادي:

ـ المسألة بسيطة. تحمل الدنيا الكثير، الثري والفقير، الفقير من أجل أن يحتال ويسحب ما تيسّر من ثروة هذا الغني التائه الذي لا يعرف كيف وعلامَ يبذّر أمواله.

ثم اتجهت والحاشية، عندما لم تجد الرحيق في هايد پارك، إلى فندق اللاندسبورو القريب.

جلست تحتسي الشاي مع مرافقتين في الفندق، بعد أن سمعت أن قاعة الشاي فيه كانت تشبه الرويال پڤيليون في برايتون. ولخيبة أملها لم يكن هناك عربي واحد.

هل يعقل أن الفندق ما عاد يرحّب بالنزلاء العرب نتيجة تقاعس أحد الأثرياء عن دفع فاتورة بآلاف الپاوندات؟

كانت قد أرسلت المرافقة الثالثة للتقصي، وكأنها نحلة تبحث عن الأريج بحمرة شفاهها البرتقالية.

شاهدتها أميرة عائدة تلتمع وكأنها شعلة، تزف إليها الخبر: لقد وجدت رجلاً عربياً.

تنهض أميرة إلى حيث التلفونات. ولأنها كانت قد ملأت بطنها بإبريقين من الشاي وقطع الكاتو، فقد وجدتْ ألاّ تبتكر قصصاً

وأحاجي على مسمع الرجل العربي، بل تعيد قصة الطحين الذي أرسله عمّها في طائرته الخاصة، لأن الطحين في لندن يجعل الرقاقات تلصق بالمقلى. ثم تضيف:

ـ لندن حلوة والحياة فيها معقدة مرة. الواحد يتعب... من التلفون في الفندق والتلفون النقال يقولوا يعمل جلطة في الدماغ، وعمي نصحني ألاّ أستعمله.

اسم عمها كان مسك الختام الذي جعل منديل جيب الرجل العربي يهتز دهشة، وأزرار جاكيتته والساعة الذهبية تبدأ كلها بالخشخشة. تعود أميرة إلى الطاولة. تنتظر الرجل حتى يلحق بها، ثم تنتظره ريثما يأكل قطعة الكاتو التي طلبها.

عندها نادت وصاحت «يا ربي»، ليلتفت إلى ندائها معظم الجالسين وهي تقلب الشنطة. تُفرغ كل ما بها على الطاولة وفي حضنها، تنفضها، تقلبها، أمام الجميع، شهود العيان، «سُرقتُ، نُهبتُ، شيكات وبطاقات وسبعة أو عشرة آلاف جنيه ما أدري في المغلف، ربما في هارڤي نيكيل لمّا حطيت شنطتي. لحظة وأنا أقيس قميص النوم». ترسل في طلب السائق، تؤكد عليه أن يذهب إلى هارڤي نيكيل والشرطة. منذ تلك الصيحة هي مع الرجل العربي، ذي الشهامة العربية، لم يفارقها، حتى إنها بقيت معه إلى اليوم التالي في الفندق بعدما أرسلتْ مرافقتها إلى البيت لتبقى مع العيال محذِّرة:

ـ لا تدخّني أمام البنات. اطلبي من «مروش» الأكل اللبناني، مكسوفة. لكن معليش خلّيه يسجلهم على الحساب.

مدّ الرجل بألف جنيه يعطيها للمرافقة. وكانت أميرة غاية في السعادة معه. فهي الأميرة المتمردة، المغامرة، التي وجدتْ أخيراً الرجل بعدما أحبها عمر الشريف وعزت العلايلي و...، «ماتوا عليَّ». لم تتركه إلا في اليوم التالي عند الظهر، ومعها المال من أجل تبضعها ومن أجل مصروف الشقة، ليتفقا على اللقاء في الغرفة حوالى الساعة الرابعة.

تسرع أميرة إلى بيتها، خائفة من أن تجد المرافقة اختفت من الوجود وفي حوزتها الألف پاوند، ولكنها تسرع إلى الاتصال بناهد بعد أن ترك لها سمير خبراً أن ناهد تريد أن تراها. وبدل أن يأتيها صوت ناهد على التلفون تسمع صوتاً: «الحقي. الحقي. ناهد عيانة خالص».

تُمْسك أميرة بقلبها. آخرة ناهد باتت قريبة. شعرتْ بهذا منذ أيام عندما لم تتحمل ناهد عطر أميرة أو شنطة بهية.

شقة ناهد تغص بالناس وبرائحة السمك. تدفع أميرة الجميع وتدخل حيث كانت ناهد ممدّدة على السرير، فتبادرها أميرة ضاحكة تغالب دموعها:

ـ مالك؟ يللا بينا يللا بينا نتفسَّح.

ـ خبريني حاجة تفرّحني! وحاسبي ما تكليش السمك. ده لازم فسيخ مش سمك!

لو لم تكن ناهد في أيامها الأخيرة، لكانت المرأتان ضحكتا من غير توقف:

من قـارع الطبلة الذي تكبّد مـشـقـة إتيـانها بـالسـمك المقلي من مصر، وكله ثقة بأنها إذا أكلته هو بالذات، استعادت عافيتها... ومن النزاع الذي شب فجأة بين زوج ناهد الانكليزي سـتانلي من جـهة وبين المتـحـجـبـات اللواتي تـعـرفت بهن ناهد في الجامع من جـهـة أخرى... ومن صوت المرأة الذي كان يحرس باب الغرفة و يردد أمام زوج ناهد السابق ستانلي:

ـ نو، نو، نو حرام. (ثم يعلو صوتها): والنبي حد يفسر للخواجه إيه اللي بيحصل، أرجوكم اسعفوني.

ليـعلو صـوت امـرأة أخـرى وفـمـهـا مليء بالحـسك: «اسـمع يا ستـانلي. حرام، حرام أنك تدخل عليها. هي بقت مش حـلالك، ما دام تطلقتوا.

لكن ستانلي يصيح:

ـ أريد أن أراهـا، أريد أن أكلمـهـا، أريد أن أودعـهـا، أن أعطيـهـا باقة الزهور هذه.

ـ أديها لي وأنا أدخلها لغاية عندها.

ـ لا. أريد أن أراها بنفـسي. هل قلت لهـا إن سـتـانلي يريد أن يراك؟ لا أعتقد.

تنهض أميرة ما إن تسـمـع ستانلي يشـهق باكياً كالأطفال، لتهمس في أذن ناهد ثم تخرج هاجمة على التي كانت تمنعه من دخول الباب وتصيح بها بعدما أوقفت نفسـها عن صفعها على وجهها:

ـ يعني المنجم الدجال اللي أخذ قداحة «الديپون» عشان يخليها تمشي بعد يومين حلال عليها، وزوجها اللي عاشت معه حرام؟ إيه الكلام ده!

النساء اللواتي كن يأكلن السمك ازددن تشبثاً وقوة، بينما تكتَّلَ أفرادُ الفرقة الموسيقية وبنات الكاباريه وأخذوا يبعدون المرأة المحجبة عن الباب، ليدخل أخيراً ستانلي غرفة ناهد.

تجلس أميرة تحاول إغاظة المحجبات وهي تسأل أحد الموسيقين إذا كان يذكر قصة هيام ستانلي بناهد حين رآها ترقص، وكيف أراد تغطيتها بمعطفه عندما أنهت وصلتها خائفاً عليها من مجرى الهواء البارد وكانت الصالة مكيّفة. وكيف بعد تلك الليلة تزوجا.

«قصة حب من أول نظرة.. ولا روميو ولا جوليت...» تنهي حديثها بهذه الجملة، بينما تستعيد كيف انتهى الحب والزواج بالطلاق بعد أشهر، فور عودتهما من القاهرة، وكانا قد ذهبا إليها في زيارة: ناهد لتفخر أمام أهلها بأنها تزوجت مع أنها راقصة، وهو من أجل أن يرى الأهرامات وأبو الهول ويركب الجمل، ويدخن الحشيشة. لكنه أخذ يوجه إليها وإلى مصر وأهل مصر كل الإهانات، كلما رأى حماراً أو بغلاً ناحلاً يعاني التعب والجوع:

ـ انظري انظري.. أضلاعه ظاهرة، أنتم وحوش.

رمت ناهد ملابسه من شرفة أهلها في القاهرة ذات صباح، ولحق به أهالي الحي يعيدونه، وصوتُ أمها التي أحبّت زوج ابنتها يصيح به وبابنتها:

ـ «كده بتتخانقوا على بغال ما تعرفوهاش؟»

ما إن يغادر ستانلي غرفة ناهد، وتدخلها أميرة، حتى تبادرها ناهد:

ـ ادعي لي يا أميرة عشان أموت، مش قادرة اتنفس، البلغم عالق بحلقي.

تحاول أميرة أن تبحث عن طبيب ناهد، ثم تتصل بالمستشفى الذي وعدها بسيارة الإسعاف حالاً رغم اعتراض المحجّبات.

تلاحظ أميرة وجود بهية، فتتعانقان وتأخذان بالبكاء معاً، ثم وبرباطة جأش تقول لها بهية:

ـ عايزين نلم تكاليف الجنازة، والتابوت، والقبر بالمدافن الاسلامية، واللي حيقروا عليها من جامع ريجنت.

لم يخطرلأميرة كل هذا من قبل، وإذا بها تستدرك وتقول:

ـ لازم نتصل بأهلها. أتصل أنا بيهم، لازم ناخذها مصر.

ـ بس أهلها مخاصميها، والتكاليف حتصير غالية علينا.

ـ مش مهم، أنا أكفل بكل شيء ولو مليون باوند.

ـ يا بختك يا ناهد، عايزة أموت ويكون حواليَّ واحدة زي القمر ده. قمة الإخلاص والتفاني.

ترافق أميرة وبهية ناهد في سيارة الإسعاف إلى المستشفى ثم يتركانها للطبيب وللممرضات.

تخرج أميرة من المستشفى تتحسَّس صدرها. تسألها بهية أن يذهبا معاً إلى ويتليز، وأميرة تعتذر. وإذا ببهية تعود إلى المستشفى،

وهي تفكر «أروح فين»، وكانت بهية تزور ناهد يومياً. منذ أن لازمت الفراش وهي تشعر لأول مرة أن لديها روتيناً يبعدها عن الفراغ، بينما اطمأن قلب الشيخ الذي فتح لها بيتاً إلى الروتين هذا.

تعود أميرة إلى الشقة. وحين لم تجد سمير، لامته في قلبها، وخبّأت الخمسة آلاف جنيه تحت رفاص سريرها. عليها أن ترسله إلى النجار المغربي في ايلنغ، حيث ثمن التوابيت لديه في نصف قيمة التوابيت الانكليزية. ولما حاول صانع التوابيت عبر التلفون أن يُدخل الحلال والحرام في أمر التوابيت المشغولة بيد مسلم طلبتْ منه أميرة السكوت. فهي كانت تخاف من أن تقرب من الدين أو أن تدخله في حياتها. تترك ورقة لسمير تسأله أن يتصل بها حالاً على رقم تلفونها النقال . تأخذ حماماً. ورغم انهماكها في تجميل نفسها، فإنّ وجه ناهد لم يفارقها. تأخذ تاكسي إلى الفندق، وتصعد إلى الرجل وهي تقول في نفسها: «خمسة آلاف أخرى وأعود إلى ناهد». كان الرجل في انتظارها، انحنى يقبل يدها، ويناديها: «طال عمرك». تمنت أن تخبره بالحقيقة، وتبكي على ناهد أمامه. سألها أين المشتريات؟ أجابته في السيارة. ثم أخذ يسألها عن أسماء العيال، وعن عمها، وهل اتصل بها البوليس. ما إن لمح التبدُّل الذي طرأ على وجهها فجأة حتى طمأنها إلى أنه يذكرها بضياع نقودها. رنّ هاتفها النقال في الوقت المناسب. أسرعت تبحث عنه في شنطة يدها. كان سمير، فبادرته بسرعة: «تعالوا الساعة السادسة في الفندق مع البنات والسيارة، عواطف تعرفه، جانب البيتزا پارك». وإذا بالرجل يتدخل قائلاً:

ـ خبّريه إذا أمكن، طال عمرك، بأني مستني البنات، عشان أصفّهم على السرير وأنزل بقحبة وأترك قحبة.

جملته البذيئة هذه، التي لم تسمعها حتى من الزبائن الفاجرين والمهووسين، صبت عليها ماء حاراً، أو عرقاً بارداً، عصف بقلبها. تجاهلته وهي تُعد نفسها للفرار، رغم أنها بقيت تتصنّع الإنصات إلى المكالمة، والرجل قال لها:

ـ خبّريه من فضلك بأني سأفعل بك أيضاً كذا وكذا، مع أنك أميرة.

وإذا بها تلتفت إليه وتصيح به:

ـ أنت نمت معي أم لا؟ ما الفرق إذا كنت أميرة من الخليج أو من بلاد السعادين؟ أنت تنام مع امرأة أو لقب، تنام مع امرأة أو مع جنسية؟

صياحها المفاجئ أرعبه. لذلك وجدتْ نفسها تمسك بكوب ماء وترميه به، ثم تركض خارجة بكل ما عندها من حقد وعزم. وتدخل مطعم «البيتزا پارك» وتجلس وقلبها ما زال ينتفض. تتصل بسمير، تخبره أن يوافيها حيث هي من غير القرد.

تأخذ أميرة رأسها بين يديها لتنتبه أنها أصبحت كناية عن أذنين تستجلبان أية حركة وتنتفضان. حتى عندما سألتها الساقية ماذا تريد أن تشرب صدرتْ عنها صيحة. حاولت أن تهدّئ نفسها. تفكر في ناهد. عليها أن تترك كل شيء وتعود إليها. كم ضحكتا معاً وعاشتا معاً. لربما حصل ما حصل مع الرجل في الفندق من أجل

أن تعـود إليـهـا. لا تزال ترتعش. لماذا لم يقل لهـا ضـاحكاً: «أنت منافقة، ردي النقود من فضلك»؟ لكنت أعطيته المال بعد أن حسمتُ أجري. «على كلٍ، لماذا أنا في هذا الحنق كله؟ أنا لست أميـرة، أنا عاهرة». تذكّر نفسها.

تندّ عنها صيحة ذعر ما إن لامس كتفها سمير.

تخبره بأنه كُشِفَ أمرها.

ـ لحقك لهون؟

ـ لا، رميت كباية ماء عليه وبهدلته وهربت.

ـ ومن شـو خـايفـة؟ لو نكش الأرض مـا راح يلاقـيك؟ وحتى إذا لقاك شو بدو يعمل فيك؟ كذاب ابن كذاب، وأنا أكبر شاهد؟ كنا مع بعض كل النهار.

تتـأكد أميرة، وهمـا يلتهمـان البيتزا بكل شـهية، أنهـا عـادت إلى طبيـعتهـا. وكـأن البـيتزا منـحتهـا قوة، فطلبت أخـرى. يأتي سمـير بالتـاكسـي، تسـرع دخولاً وتلتفت إلى الفندق وتراه تمامـاً كمـا تركتـه. البواب على إحدى الدرجات. لم يكن الرجل العربي ومعه عشرات الزبائن يدلّون الشرطة عليها كما تصورت.

الفصل الثامن

- ١ -

ـ فدوة عيني ليس، اكتبي: «إنهم يجففون الأهوار، يعطشونها».
اكتبي: «يا مياه الأهوار، يا مَنْ كنتَ حليبي، ويا تراب الأهوار، يا مَنْ كنتَ طعامي، التمر فوق النخيل شامخ، شامخ. ويا نهر الفرات يجففون قلبك، ويا نهر دجلة هل يجففون صدرك، وخياشيم أسماكك تهمد وتموت.. ويا عصافير ويا طيور...».

ـ بابا، جميل جميل. لكنْ خالد يطلب معلومات عن الأهوار.
أعرف. التجفيف هو معلومات، لكن ما يريده هو معلومات عن الحياة هناك. عندما كنتَ صبياً، هل كنتَ تذهب إلى المدرسة؟ بماذا كنتم تلعبون؟ هل كان هناك طبيب.. دكان؟ ماذا كنتم تأكلون؟ كيف هي الفصول؟ باختصار كيف يعيش الانسان المحوط بالماء؟

ـ فهمت، فهمت. اكتبي يا باباتي، أقصد اكتب يا خالد. كان والد جدي وجدّ جدّي...

ـ أنت تحدَّث عن نفسك وأنا أصوغها فيما بعد.

ـ والدي، رحمه الله وأسكنه جناته الفسيحة، منعني من الموسيقى. كل ما رأيته حولي كان من جراء سماعي له. كيف يمنعني

وكل ما حولي موسيقى يسبغها الله عز وجل على الأهوار؟ أسمع موج النهر، وأعرف أن الطين حوّله إلى لون أحمر، وأنه بين نهار وآخر سيفيض. أسمع أصوات البط، ونقيق آلاف من الضفادع، وصوت الحدأة وطير البرهان وبكاء الاطفال ونباح الكلاب. أسمع صوت سعف النخيل التي انحنت بقاماتها الطويلة كي تشرب الماء إلى جانب الجواميس. كان يروقني نغمة بول إخوتي الصغار وهو يرتطم بالماء.

تسمع ليس صوت أمها يعلو في الأرجاء:

ـ لماذا لا تخبرها عن الربيع؟

ـ فدوة عيوني، في الربيع كانت مئات من طيور البجع...

ـ لا، لا، قصدت براغيث الربيع..(تقاطعه أمها).

ـ ليس... وبابا؟ أمك تشوش كالعادة، إنها هدامة العزائم وحارقة للخيال، أليس اسمها نيران؟ على كلٍ أين كنت! آه... مئات من طيور البرهان تهب هاربة وهي تصفق بأجنحتها، فيحل الظلام فجأة ليعود فينقشع باختفائها. عندما كان سوسن الماء يتفتح، كان البعوض يمصه ويُحدث أزيزاً يشبه طعم السكر في الفم. كانت الموسيقى، صفراء، بنفسجية، بيضاء صامتة، والجواميس تتراكض كأنها فارة من الذبح، لتقترب وتنصت إلى الموسيقى.

ـ بابا، ما بك، أرجوك لا تبكِ.. ما تقوله غاية في الحساسية والجمال.

ـ ماذا تخبرها أيها الأناني؟ لماذا تبكي أمام ابنتك فتخيفها؟ دعني أشم أنفاسك، لا بد أنك شربت.

ـ أقول للميس كم أنا محظوظ بالقدوم إلى النجف للتعرف بك؟

ـ لا.. قل لها الحقيقة، قل لها إنها كانت ساعة شؤم.

ـ نيران.. يا حياتي، أنا أخبرها أنه لولا ممانعة والدي لممارستي عزف العود والنقر على الدف، لكنت بقيت في الأهوار ولم أتعرف بك، ولم أنجب بنتنا الحليوة لموسة. إني أخبرها عن لقائنا، كيف أحببت عودي حتى قبل أن تلتقي بي، وكيف الآن تكرهينه، بل كيف حطمت لي ثلاثة حتى الآن.

ـ ألو، بابا.

صوت أمها يشوّش الصوت من جديد، ويجعل السماعة في يد لميس ترتجف.

ـ اكتب لها.. أو سجِّلْ لها كاسيت، أو الست لميس تظن أنها ما زالت تذبح بظفرها وتصرف يميناً وشمالاً؟ يجب عليها أن تتبرع بدفع فاتورة التلفون والكهرباء.. أو أنها لا تبالي بأن يقال إنها طُفيلية تعيش من تصدق زوجها السابق عليها؟.. ذكِّرْها أيضاً أنها كانت تستطيع أن تملك الشقة التي تعيش بها موقتاً. عليها أن تحفر في ذهنها هذا المثل: «البعيد عن العين.. بعيد عن القلب»، وابنها سوف ينسى مع السنين أنها حية ترزق.

تطيح لميس بسماعة التلفون غاضبة، رغم أنها كانت استعدت بالقلم والورقة لتخط كل كلمة قالها. فيما بقي جمال صوت والدها وما قاله صافياً متناغماً في أعماقها، لم يتأثر بزعيق أمها الذي كان يصعد من حنجرتها مقلوباً.

ونيقولاس كيف كان سيخبرها عن الأهوار؟ دائماً تعود إلى نيقولاس من غير إرادتها: إذا آلمتها العادة الشهرية استنجدتْ به وهمست باسمه، تفكر به كلما نهضت من النوم وقبل أن تنام، في صف اللهجة الانكليزية أيضاً، وكلما رأت هاتفاً. توقفت عن الذهاب إلى شقته أخيراً، وأخذت تتحاشى الذهاب إلى أيِّ مكان له علاقة به، حتى السوبر ماركت ذاتها. كانت قد جمعتْ كل ما كان يذكرها به: منمنة مجنون ليلى، والعروسة الصغيرة، وأساور الفضة، حتى عود الثقاب الذي أشعل به سيكارة، وغطاء علبة التمر الخشبية. وتركت النور يلازمها، إذ إنّ إطفاءها إياه ودخولها في السرير كانا يجذبان نيقولاس ليدخل معها ثم يصبح في الفراش كالزئبق. تتساءل: كيف أخبئ برج B.T كما خبأت التلفون منعاً من الاتصال به؟

يسرق الحبيب الهارب وجهه معه حتى لا يعود الآخر يطالب به، أو يغافله ويلتصق به.

تبتسم له ليس ثم تخطف ابتسامتها. الألم الذي تعانيه يسترجع نفسه هذه اللحظة أيضاً. ما تزال تحبه رغم أن شعورها بأنانيته يتأكد كل يوم. شعرتْ أيضاً بنفاد صبره. شن نيقولاس عليها معركة واختفى، رغم أنها فهمت أو أن أميرة أفهمتها أن لكل منا طريقة للتعبير عن الحزن والغضب والمرح وإنهاء العلاقات. هي لم تشأ أن تأخذ وتعطي مع زوجها، أرادت الفرار من غير إعطاء أية أسباب، أليس كذلك؟

ـ لكني لم أحب زوجي، ونيقولاس أُحبه.

ـ إذن، لماذا لا تسافرين إلى عُمان؟ (توقعها أميرة في الفخ).

ـ أسافر قبل أن أتأكد أنه هناك؟

ـ سيعرف أنك حاولت. على كلٍ، لماذا لستِ في شقته، بدلاً من الكلام والنقاش؟

تتصل بوالدها من جديد وتتفق معه على أن يكتب لها رسالة أو يرسل إليها ذكرياته بشريط مسجل.

ـ فدوة لعيونك بنتي، اكتبي جملة واحدة قبل أن تغيب عن بالي. فأنا أحياناً أدوّن بعجلة إلى درجة أني لا أعود أفهم خطي ولا أفهم ما أرمز إليه. ابن الاهوار يسمع قبل أن يرى، حتى يصبح سمعنا كالكلاب. لا، لا، اكتبي كالقلب، لدرجة أن الأرق كان يصيبني كلما حاولت النوم وسمعت أنفاسي لا تتناسب مع نفسي... الذي يسري فوق وسادة التبن... يّللا مع السلامة... هالو عيني هالو!

بعد أسبوع تلقت لميس بالبريد المستعجل أشرطة مسجلة مرفقة برسالة طويلة تحمل العواطف والوفاء والحب: فدوة لم أستطع إلا أن أتلو عليك كل ما جاش في صدري، احذفي ما تريدينه وتأكدي أن والدك سيفهم وسيعذرك. أشدد عليك بأن تشجعي خالد ليكون انكليزياً، هناك انكليز بأسماء عربية.

أبدأ رحلتي بهذه الكلمات: «خيِّل إليَّ أن الأبجدية طفلة مشردة لا مكان لها، مع أنها تقيم في المتحف داخل قفص، وأنني أخذت أَشْرد وراءها لكي أطْبق عليها حنان ذراعي».

وليس تقـرأ هذا وتفكر: والدها شـاعـر... حـتى قـرأتْ: «هذه السطور عن الأبجدية استعرتها من الشاعر ادونيس».

تدير التسجيل:

ـ ألو، ألو (يصدح صوت والدها في الشقة).

«إسمع يا خالد.. اسمع يا جدو.. إن العود هو الذي أتى بأمك إلى لندن. لولاه لما كنت أنت ولدتَ في لندن، والعـود هو الذي أخـذ جدك من الأهوار إلى النجف. العود هو الذي جعلني أتزوج جدتك، والعـود هو الذي أبعدني عن دنيـاي وعـائلتي ورفـاقي، وأنتِ فـدوة لعيونك ليس، سامحي هذا العود، الذي طالما حاولتِ أن تري ما في داخله، هو الذي جعلك من غير جذور، ومن غير علم وحتى من غير سرير خاص بك».

١ ـ ٢ ـ ٣، ابتدأنا.

كان العود الخشبي هوس والدها الشاب الذي جاء إلى النجف قـادماً من الأهوار حيث وُلِدَ. رأت نيران العود على منضدة، وهي تسترق النظر من خلف الغسيل المنشور إلى غرفة الشاب الطالب الذي انتقل إليها منذ أيام. غاص قلبها وهي ترى عوده، ذكّرها بفيلم شادية وعبد الحليم حافظ، وكانت شاهدته في البصرة أثناء زيارتها لخالتها.

منظر العود قرّب منها الحب البعيد عن هذه المدينة الخالية من دُور السـينمـا، والموسيقى التي تكاد تكون مـحـرمـة، وحيث إدارة المذياع كانت غير مستحبة إذا لم يصدح منها ترتيل القرآن الكريم

والأحاديث النبوية الشريفة. وحفظت الحب من الأغاني المسموعة وكأنها الوشوشة، ومن قصص الحب التي كانت تدور بين شعراء النجف ومحبوبات سريات لا تعرفهن سوى أوراق الرسائل، وأيضاً من قصص الأفلام المصرية التي يشاهدها البعض، والأفواه الكثيرة التي كانت تتناقل حكاياتها.

تسترق نيران النظر إلى الشاب الذي قدم من الأهوار، وهو يعزف العود، مُغمضاً عينيه. لم تكن تسمع أيّ نقر. كان يعزف في قلبه، وأصابعه تتحرك صعوداً ونزولاً على الأوتار. ومع ذلك جذبها إليه كما يَجذب ذكرُ الطير الأنثى. كان يراعي أجواء هذه المدينة التي نظم الأذان نومها ويقظتها. فقط الديكة والعصافير المهاجرة كان لها الحق في الصداح غير مبالية بامرأة عجوز حاولت إسكات زقزقة عصفور سعيد، فأنّبته قائلة: «وكيف تسمح لك روحك بالغناء هنا؟».

لكن الموسيقى هي التي أتت بي إلى النجف. خوف والدي من أن أصبح مغنياً، مرفّهاً في أيام الأعراس والختان، أو عدادة في المآتم، جعله يأخذ بنصيحة الأستاذ الموعز من الأمم المتحدة إلى الأهوار، وهي حث الأهالي على تعليم أولادهم في المدارس، ثم إرسالهم إلى المدن العراقية. والدي لم يرسلني إلى بغداد أو البصرة، ولا حتى إلى الموصل، بل إلى النجف الاشرف لتلقي العلوم الدينية.

صوت والدها في الشقة يصيح بعصبية، فترتعد لميس. ماذا يحصل؟ ولوهلة لم تفهم ماذا يجري. إنه يكلمها في الشريط. تعيد الشريط ثواني فيصيح أيضاً هذه المرة بعصبية:

ـ ماذا جرى؟ لماذا تقاطعينني (ثم صمت) لماذا تجلسين أمامي الآن، ألم أقل لك إني لا أريدك هنا؟

ـ إني لا أتدخّل، بل أجلس أقلِّم أظافري (تسمع صوت أمها).

ـ هل تظنين أن هذا التعبير على وجهك لا يتدخل بي؟ هذه الابتسامة المتشفية المستهزئة الكريهة؟

ـ أوقف التسجيل إذا أردتَ أن تستفسر عن ابتسامتي هذه.

ـ أوقفته.

ـ إني لا أستطيع إلا أن استهزئ وأنت تأخذ نَفْسَك جدياً، وكأنك شريف محي الدين حيدر تصف نفسك بالموسيقار.

ـ آه، لو حققتِ آمالي، لكنتِ الآن تتحدثين بلهجة مختلفة، ولكنتِ الآن تحملين هذا العود وكأنه مولودك.

ـ ومن منعك من تحقيق آمالك؟

ـ منعني بلدتك. أهلك.

ـ لماذا بقيتَ إذن؟

ـ الحب خدّرني ، عشقي لك أوهمني بأن أرجئ النبض الحائر وأكتفي بك.

ـ الحب، المفروض أنه غذاء الفن... إذا كنت سعيداً به أو تقاسيه.

ـ ليس عندما تستيقظ الحبيبة عابسة الوجه وتقول: «ثلاجة شقيقتي أكبر، سوار ابنة خالتي أجمل»، وإذا أدارت لي ظهرها في الفراش وحاولتُ إرضاءها واستمالتها ورضيتْ، سألتني: «هل تشتري لي كل ما أريده؟».

ـ ضغطت عليك من أجل أن تهز نفسك وتبدأ بالعمل.

ـ كل من لا يذهب إلى الخليج لا يعمل؟ معك حق. وماذا عن عملي في البريد؟

ـ أنت بنفسك قلت إنّ هذه الوظيفة للمعاقين. أوه.. المعذرة لقد نسيت أنك ترأس أكاديمية للموسيقى (تضيف بسخرية).

ـ اسخري ما شئتِ من تعليمي العصافير الشدوَ، لكنْ لا تنسي أنه لولا العود هل كنا عبرنا الحدود الايرانية؟ لولا العود لما كان رجل الجمارك الانكليزي قدّم إلينا كل الاحترام.

وانقطع الشريط..

تتأكد ليس من ذلك، ثم تأتي بالشريط الآخر. وقبل أن تجلس وتستمع إليه، تذهب إلى المطبخ، تغلي الماء لتحضِّر لها فنجان شاي.

واذا بها تنتقل إلى بيتهم في النجف، إلى الأقفاص العديدة التي أصبحتْ من معالمه، وفيها العصافير النكرة ذات الريش الذي لا يُذكر من تواضع الوانه، والذي عكف والدها على غسل دماغها من أغنيتها المحدودة التي ولدتْ معها وتعبئة تلافيف هذا الدماغ بأنشودة ذات إيقاع ورخامة، وهو يدير لها تسجيلاً لشدو البلابل ليل نهار إلى أن تتقن دروسها.

تقليدها كان غاية في الاتقان إلى درجة أن والدي ضبطها وهي تحاول تقليد التكة الذي كان يحدثها الشريط. ثم تنتقل إلى مطار هيثرو، ووالدها يتحدث إلى رجل الجمارك الذي راح يتفحص العود بين يديه. ووالدها يؤكد له أنه ليس من النجف بل من الأهوار، وأن

«ليدي دراور» الانكليزية وزعتْ عليهم الألعاب والقبعات وهوصغير، وأن ويلفرد التقط صوراً له، وهذا برهان على أن عائلته لم تكن ضد الانكليز.

لم تستمع ليس إلى الشريط الآخر. لا تستطيع أن تأخذ جرعة أخرى من الحزن على فشل والدها ونقمة أمها. حاول ذلك والدُها، الدلفين الجميل الذي فقد حسه بالزمان والمكان، ومع ذلك قاد عائلته خوفاً عليها من الأيام الكالحة التي سوف تأتي مع الاضطهاد والبطش ليجد نفسه في مستنقع. يلوم أمها والحب لأنهما سدّا طريقه أمام تحقيق أمله الكبير.

لأول مرة ترى والدها كرجل، كفرد لا آلة تفبرك الحلول، والآمالَ، والسعادةَ، والحكمة. شعرتْ كأن أحدهم يسلخ عن جلدها ذلك الغشاء الرقيق الذي طالما منع عنها الأوكسجين والابتسامة... غشاءٌ كالذي رأته في الطفولة، تسلخه امرأةٌ مسنّة من أجل أن تزيل النمش عن وجه الجارة الصبية... غشاءٌ مسخ معه النحيب والتنهد والوشوشة. جعل قلبها يخفق ويخفق من أجل أن يفارق رئتيها ويجد مكاناً له أكثر أماناً، بعيداً عن بيت الطفولة، ووالدِها المخمور، ورائحةِ الخمر، والقبورِ والمزارات الدينية في النجف.. بعيداً عن الرعب الذي اجتاح المدينة من أنّ صدّام حسين سيبيدها بنفسه.. بعيداً عن الجبال والأودية حيث كانت تنتظر المهربين لينقلوها وعائلتَها إلى بلادٍ آمنة، بين بكاء الكبار المتعالي، بينما كانت أمها خائفة عليها وعلى أختها من أن تأكلهما الضباع، ولذلك دهنتْ جسميهما بالرمل، وهي تبلله في الماء من أجل أن تميت رائحة اللحم الطرية.

ثم جاء الأمان في أمكنة مرّت عليها الدهور وتركتها بلا روح، سواء في دمشق أو بيروت.. ولميس تراقب ولا تقول شيئاً. ثم أتى الزواج واحةً من جليد، وهي ما تزال تراقب ولا تقول شيئاً.

عليها أن تجد نيقولاس. لا تود أن يجلس خالد ذات يوم كما تجلس هي. يسمع حشرجة صوتها وهي تلوم نفسها وتلوم والديها وتلومه لأنها وقعت في الحب. ومن أجله خافت أن تعيش مع من تحبه. صوت والدها أعادها إلى بيتهم في النجف. ترى ماذا سيرى خالد وهو يسمع الأشرطة أو يقرأ رسالتها الطويلة إليه؟ صفصافة هايد پارك أو رنين ألعاب الفيديو؟ أو تمددها في سريرها تقرأ وتبكي؟ أم تكتب له رسالة تخبره فيها كيف هرب بهم والدهم عندما زارته أمه الميتة وهو في السرداب يشرب الخمر، وينقر العود،وكيف احتضنها وأختّها قائلاً:

ـ عيني اليمنى وعيني اليسرى. والله والله آخذكم على جناح الطير إلى بلاد حلوة فيها لعّابة كبيرة، جكليت وحلاوة.. كل الناس مشغولة تأكل جيلاتي وحلاوة، وترقص وتغني.

أدارت لميس رقم والدها في دُبي، لتخبره أنه ليس موسيقاراً فقط، بل هو أيضاً كاتب وشاعر وطبيب نفسي. صمتت للحظة قبل أن تستجمع شجاعتها، مانعةً نفسَها عن البكاء. تقول له إنها اشتاقت إليه وإلى أمها.

ـ أخبرتني أختك عن الانكليزي!

ـ آه.. نيقولاس، انكليزي. يعجبك، لكن.

ـ ما يخالف باباتي. انكليزي عظيم. بيني وبينك أفضل. يقدِّرك، ويُسْعدك. ماذا يشتغل؟

ـ لم أعد أراه..

ـ لا يريد الزواج، بل يحب الأخذ والعطاء. معك حق. أنت دايماً فاهمة!

ـ هو يريد يتزوج، وأنا للي قلت لا.

ـ إذا كان عقلك من عقله، وعجبك وعجبتيه، لا خاطبة ولا حرباء بينكما، خلي النصيب يجمعكما.

تضحك لميس على الحرباء، (لقب حماتها):

ـ بعد بابا، بعد شويّة، خليني أنتظر وأشوف، مو هسّه، مو هسّه.

ـ يقولون إن الحرباء تبحث لزوجك السابق عن عروس.

ـ أتمنى له السعادة.

ـ والولد؟

ـ ما به؟

ـ تصير عنده امرأة أب قاسية لئيمة؟

ـ خالد يأخذك البحر ويعيدك عطشان. على كل، هذا موضوع بعيد.

ـ معك حق. لكن لا أفهم قصدك. تقولين: «مو هسّه مو هسّه»، شنو يعني تريدين تنتظري؟ الانكليزي يعجبك؟ ترغبيه ويفهم عليك، وتفهمي عليه، أم لا؟ هذا هو المهم.

ـ لا أعرف، أخاف.

ـ تخافين منه؟

ـ لا، ... ما أعرف، من حماتي، من الناس، من أمي، من خالد، من أبو خالد.

ـ لا تخافي.. الآن الجميع انتقدك من أجل تركك للولد. وخالد بألف خير.

ـ هل أفهم أنك لا تلومني؟

ـ ألوم نفسي ليلاً نهاراً وألوم أمك. اسمعي باباتي.!

تبدّل ميس الموضوع وتقول له:

ـ لديّ مفاجأة لك. أعرف أحداً على صلة بصاحب برنامج موسيقى في إذاعة الإمارات.

ـ دعينا نَعِشْ هناك مع شقيقتك، من غير مشاكل. لازم الحرباء هي التي اتصلت بالسلطات عشان شحنتك. الله يحرمها من جناته، إلى الآن أنا وأمك نتداوى.

ـ بابا.. لم تعرف هي أني اشتريت الزهور.

ـ لا تكوني بريئة، بابا، هي تتجسّس حتى على نفسها.

ـ أحبك يا بابا.

غص بالبكاء وقال: «أحبك ميس. أسف عذبتك وعذبت أمك. لو نحن في بيتنا الآن لكنا بقينا في الجنة. أشتاق للعصافير ولرائحة التراب مع رائحة المنقلة، حتى صوت المؤذنين أفضّلها على صوت المطربات الروسيات اللواتي يغنين لأم كلثوم...

ـ أنت تعاني نوستالجيا لا أكثر ولا أقل. لو كنت هناك الآن، لكنتَ تحاول الهرب كل لحظة. كنتَ في غاية السعادة عندما هربتَ بنا تعدنا ببلاد فيها الناسُ فَرِحونَ يُمْضون أيامهم يأكلون جيلاتي ويرقصون ويغنون.

ـ الهرب في الخيال لذيذ.. (وعاد يبكي).

ـ لكنكَ أنقذتنا من غير أن تدري... انظر ما حدث بعد أن غادرنا!

ـ سامحيني جنيت عليك، بخوفي من أمك. كان يجب أن أقف في وجهها وأمنعها من تزويجك!

ـ لا بأس بابا. طلَّقت. هذا هو المهم.

ـ أخاف أنك أُصبتِ بعقد نفسانية.

ـ لا تخف، لا تخف.

أخذتْ تبكي وتجهش. زوَّجوها رجلاً لم يدندن بأيِّ لحن أو يناديها بـ «حبيبتي» أو يسمع أغنية أو يمسك بقلبه من غير أن تشتد عليه الغازات. كانت تطوف ببالها خططُ الانتقام من والدها ومن أمها في السنوات الأولى من زواجها، خاصة عندما سمعت تفاصيل قصة حبهما للمرة الأولى: كيف ضرب والدها رأسه بالسيف ورمى بالسلاسل الثقيلة على صدره في ذكرى عاشوراء من أجل أن ترى نيران صدره عارياً، وتمتد يدها إليه تمسح الدماء لتمرِّغ بها وجوه أطفال عائلتها كما هي العادة.. وكيف هدد بخطفها من بيتها وهي نائمة إذا لم يرض والدها تزويجها له لأنه كان يملك عوداً.

- ٢ -

تساءل سمير، وهو يعثر أخيراً على محل صانع التوابيت في ايلينغ، هل يعقل أنه ما زال في لندن؟ فقد شعر بالغربة وهو يتأمل الشوارع الطويلة، والمارّة الذين بعدد الأصابع، والدكاكين الشاحبة، والسماء التي تبدو متلبّدة، والضباب الذي يلفح الزجاج، والمصابيح الكهربائية، والأبنية السوداء: بناء «بنغو» وبناء آخر للعبة البولينغ..

يتمنى لو لم يفارق مطعم «تبولة» وشباب الكونتوار وهم يضجون ترحيباً به.

ينتظر سمير سائق الشاحنة في دكان النجار المغربي صانع التوابيت. يعيده الدكان إلى بيروت، برائحة النجارة والصمغ وصوت دق المسامير وكلمة «شاكوش». يستأنس في جلسته أمام الراديو الذي كان يبث أغنية «اسمر يا اسمراني» في قلب ايلنغ.

يعود السائق محمّلاً بأكياس التبضع، معلِّقاً أن إيلنغ هي فعلاً أقل غلاءً من لندن. يضع التابوت في الشاحنة، يساعده النجار والشاب الصغير الذي كان يعمل لديه، والذي ما انفك يسأل سمير، إنْ كان يعرف الأمير نسيم، بطل الملاكمة؛ فهو يريد أن يصبح مثله.

لبىّ سائق الشاحنة، وكان مصرياً، دعوة النجار إلى شرب الشاي معه، بينما دخل سمير إلى دورة المياه يرش سپراي على شعره ويرتّب هندامه قبل أن يصافح النجار الذي ودّعه قائلاً:

ـ تونسنا عسانا نراكم قريب.

أجابه سمير:

ـ لا. الله يخليك، لا أراك ولا تراني. عندي خمسة أولاد.

يضحك النجار والسائق المصري. يفتح سمير الباب ليجلس قرب السائق. يكتشف أن مقعده احتلته أكياس وأكياس، فيها ورق تواليت وخضار وبطانيات وزجاجات من العصير وعلب برسيل ضخمة.

ـ أين أجلس؟

ـ على ظهر الشاحنة، تحرس التابوت.

ـ يا ماما لا تخوّفني. مين بدو يسرق توابيت أكلها السوس؟! أم أنها توابيت فرعون؟

ـ لا لا ما تخافش. كنت بهزّر. ما حدش يسرق قشة واحدة هنا. لكنْ مش ممكن حط الأغراض قرب التابوت عشان مش حقدر أكل واشرب منها.

ـ يعني أنا معليش.

تسلّق سمير ظهر الشاحنة مرغماً وجلس معطياً ظهره للتابوت، وسرعان ما نسي وجوده رغم طرطقته، وملأ الفرح قلبه. ظَهْرُ الشاحنة المفتوح الذي لم ير مثله في كل لندن جعله سعيداً يشعر

بالحنين إلى لبنان. فكّر في الحمّالين الذين كانوا يجلسون على ظهر الشاحنات وحبالُهم خلف أكتافهم. تمر بباله شاحنة الجيش التي رمى أحدهم منها لوح صابون جعل سمير يتساءل وقتها ليلاً ونهاراً ما إذا كان ذلك الجندي غاية في الكرم أم أنه لا يحب الاستحمام.

يكوِّم نفسه ويضع يديه تحت رأسه مستأنساً بخضخضة الشاحنة. أخذ يفكر في الشاب الناحل الحالم الذي يعمل خلف الكونتوار في مطعم تبولة، الذي لم يتوقف عن تقطيع الخيار المخلل. هذه هي المرة الأولى التي يدع فيها نفسه تقع في الحب بعد أستاذه صلاح. وكان قد رشق نوافذ بيت صلاح بالحجارة فأصاب أم العروس في صدرها، ولم يتوقف عن الصياح: «أستاذ صلاح، أستاذ صلاح».. وهو يتمرغ على الأرض ويضرب رأسه عليها وكأنه يضرب كرة، إلا عندما أُدخل المستشفى.

في ذلك المستشفى البعيد عن بيروت، بين أشجار الصنوبر وأصوات الحساسين، أحبته الراهبة وطلبتْ منه سقي الحديقة كل يوم بعد الظهر. وعندما قررت هي والأطباء أنه معافى وعليه المغادرة فرح فرحاً شديداً وانحنى يقبل يدها، فطلبت منه أن ينسى صلاح لأن صلاح شاب مثله.

ـ لا، ماسور، هو أكبر مني بكثير. أنا عمري بس ١٥ سنة.

ـ بعرف. قصدت أنه مثلك أي الجنس مذكر؛ وأمك مثلاً، وأختك وأنا، من الجنس المؤنث.

ـ بس، أنت عندك شوارب ماسور.

ـ صحيح أنك مهضوم. قصدت: صلاح وأنت من جنس واحد، لا يحق لكما الحب والزواج، لن تستطيعا إنجاب الأطفال.

ثم جاءت بصورة جسم الإنسان، وشرحتْ له تفصيلاً ما يميِّز المرأة عن الرجل. سألها هل في استطاعته قطف ضمة من ورود الحديقة حتى يأخذها معه في الغد موعدِ مغادرته؟

ـ لمن الباقة يا سمير؟ إلى أمك أو إلى أختك؟

ـ إلى الأستاذ صلاح.

ـ صلاح كما اتفقنا رجل، ولا يحق لك أن تحب رجلاً. وأنت تعرف السبب.

ـ أنا صغير حتى أفكر في الإنجاب. لن أنجب. والدي يشد شعره ويلطم على وجهه، ويقول: «أنا أكبر حمار لأني انجبت أولاداً». على كل، الأستاذ صلاح اكتشف أن لي ثقباً كالبنات، وأنا أشعر أني بنت. منذ أن ارتديت فستان شقيقتي الأحمر ووقفت على السطح أرقص وأغني. شوفي ماسور كنت أغني: كتكوتة، كتكوته، كتكوتة مكتكتة..

ـ كفى، كفى. لا أريد أن أسمع غناءك أو أشاهد رقصك.

عادت صورة الشاب الخجول في مطعم تبولة تدخل قلبه، وهو يقطع البندورة على شكل وردةٍ تفتحتْ لتوّها. كان لونها يشبه لون خديّه. هذا هو الحب الحقيقي، لا شعر أشقر، ولا عين زرقاء.

ويبدو أنه وصل سريعاً إلى لندن، إذ توقفت الشاحنة، لينهض هاماً بالنزول بعدما اعتلى بابها، وليكتشف أن الشاحنة لم تتوقف

تماماً. يسمع حشرجة تجعله ينظر خلفه ليرى غطاء التابوت يرتفع ويخرج منه جسم ويسأل:

ـ لندن؟

يرتمي سمير خارج الشاحنة، فيما عادت تسرع في طريقها إلى لندن. يصيح من الألم، والسياراتُ المسرعة تحيد عنه، وهو يبكي ويبتهل إلى الله ويصيح: «دخيلكم» بالعربيَّة و «من فضلكم» بالانكليزية. تتوقف سيارة، سيارة أخرى، سيارات كثيرة، سائق يتصل بالإسعاف من تلفونه النقال. يُغمى على سمير، ليعود فيرى نفسه ملفوفاً بالبطانية، ومرفوعاً إلى داخل سيارة الاسعاف، وسائق السيارة المصري يسير إلى جانبه ويردّد: «الحمد لله جت سليمة. ولد النجار الصغير ده استخبّى بالتابوت، أصله كان عايز يهرب من النجار».

ينام قليلاً إلى أن يسمع الممرض يتحدّث في التوكي ووكي ويقول: «مستشفى ميدل سكس» ليصيح سمير: «لا لا، أنا تبت. التوبة يا إلهي، خذوني إلى مستشفى طبيعي».

- ٣ -

وقفتْ أميرة بين النساء المصطفات في بهو الجامع، المتشحات بالسواد المزخرف: مناديل الرأس شفافة وبعضُها مخرَّم بالدانتيلا، والخرز الأسود والحليّ والمصاغ حول أعناقهن ومعاصمهن. اعتذرت إحداهن لجارتها وهي تحاول أن تخفي خواتمها الكثيرة، («خايفة من اللصوص يدهموشقتي») لتهمس لها الجارة وهي تفتح شنطة يدها: «شوفي»، وأرتها كل مصاغها ملفوفة بكيس من القماش. ناهد في التابوت وإمامان بدأا صلاة الجنازة. كانت أميرة في أشد الحنق، فقد تشاجرتْ مع الحاجب وهي تدخل الجامع لأنه أبدى ملاحظة على قصر تايورها الذي كان تحت الركبة، رغم أن الغطاء الأسود يلف وجهها الذي تركته من غير مكياج.

تأهب الموكب للتوجه إلى المدافن الاسلامية، ولم يكن موكباً اعتيادياً: من صاحب الكباريه التي كانت ترقص فيها ناهد عقب وصولها إلى لندن منذ عشرين سنة، إلى الذي كان يكنس أرض الكباريه. وصديقاتها الحميمات، وصديقاتهن الحميمات. فالموت في الغربة هو من أصعب ما يواجهه أهل الميت وأصدقاؤه. كانت أم ناهد

قد أوصت ابنتها يوماً في فترة رضاها عنها بأن تَحْضر جميع جنازات المصريين حتى الأموات التي لا تعرفهم.

الطبالون، فاتح الشمبانيا، ومقدِّم السهرات والوصلات، كل مَنْ كان لا ينهض قبل الثالثة بعد الظهر، نهضوا في العاشرة هذا الصباح. وكانت السماء تمطر، كما يقول الانكليز، «قططاً وكلاباً»، وكما يقول العرب «انشقت السماء شقين». اضطر حفار القبور للنزول إلى داخل القبر، وهو يمسك بدلو يغرف منه ماء المطر والوحل. كلما أَطْلع الماءَ خارج القبر أعادته السماء. عيل صبرُ مَنْ كانوا يحملون ناهد في الكفن؛ فالمطر يتدخل وينفذ إليها. وكلما حاولوا لفّ الكفن وتأخروا في وضعها في القبر، أفرز القبرُ الوحلَ والماء. شهق الجميع عندما ظهر جزء من جسم ناهد، وهجمتْ أميرة وإحدى المحجّبات تطلبان من حفّار القبور أن يأتي بأكياس من النايلون، وهما تحاولان رد المطر عن جثمان ناهد بمظلتيهما. هرع حفار القبور بأكياس زبالة سوداء. فشهق الجميع مرة أخرى، والمرأتان لا تباليان، تحاولان تغطية ناهد بهذه الأكياس. تغطيان جسدها الذي خدمها كل حياتها. الشيخ ينحني، ويحذرها بكلماته الأخيرة: «أوعي من الشيطان يا ناهد، اطرديه، قولي له يللا روّح من هنا.. أنا مسلمة، الإسلام ديني والنبي محمد نبيّي والقرآن كتابي».

المطر يضرب ورق السيلوفان الذي يغلِّف باقات الزهور، كأنه يعنّفها. والبطاقة التي كتبها ستانلي لناهد أصبحتْ مياهاً كحلية.

تسخر أميرة من هذه العادة الانكليزية: البطاقات المرافقة باقات الزهور، وكأنّ روح الكلمات تصل إليهم بعد موتهم. كذلك تنتقد وضع باقات الزهور الملفوفة بورق السلوفان بدلاً من أن تُنثر وتلامس التراب.

بهية ربطت لعبة قطة مع باقة الزهور الكبيرة التي جعلتها تلهث وهي تحملها. أغاظت القطة أميرة، ولامت بهية في نفسها على هذا التقليد الأعمى للإنكليز. كانت ناهد تحب القطط فعلاً، وبهية تحب تقليد الانكليز دائماً.

كان موت ناهد ودفنها محطةَ تأملٍ دخلتها أميرة. أولئك الذين جاؤوا لتلبية نداء موتها، هم الذين تنصلت منهم ناهد في المدة الأخيرة من حياتها، وبقيت منهم ولهم في الحياة وفي الممات. حتى أهلها في مصر قالوا لأميرة عندما اقترحت المجيء بجثمان ناهد إلى القاهرة: «بلاش تغلّبوا روحكم يا حناين، ادفنوها قريبكم أنتم أهلها وحبايبها».

هل تصدق أميرة ما قيل، والماءُ يُغْرق القَبر، والترابُ يتحوّل إلى وحل وطمي: «كأن الله لم يرض استقبال ناهد ولم يشأ إعادتها إليه؟».

تُرى من سيسير في جنازتي؟

الجنازة كالأعراس، واجهةٌ للنفس، أو صورةٌ أُخذتْ من الطائرة لمكان ما. هكذا الميت، مَنْ هو بكلمة أو كلمتين، كمسابقات سريعة تجريها الصحفُ والمجلات مشيرةً إلى عيني شخصية. وأنا أميرة: «عاهرة»، وربما يزيدون عليّ صفة: «خفيفة الدم» أيضاً.

منذ يوم الجنازة وأوجاع لا تتوقف تغمر أميرة. تجعلها تلازم الفراش. لقد طمأنها الكثيرون إلى أنّ ما تعانيه هو صدمة حزن على ناهد. أو ربما استعملتْ عضلاتٍ في جسمها لم تستعملها من قبل، حين كانت تنتشل قدميها من وحول المقبرة. أرادت أن تزيد على هذه الأسباب أنها ما عادت تضاجع كما كانت من قبل.

وسمير كان يحضّر لها كل شيء حتى ما لا ترغب فيه من الطعام. لم يتوقف عن ترديد دعواته لها بالشفاء بصوت عال، حتى تسمعها. درّب قرده على الجلوس إلى جانبها، يقلّب لها صفحات المجلة صفحةً صفحةً، بعد أن تضع هي في فمه الفول السوداني حبةً حبةً. ولكنّها لم تتوقف عن سؤال سمير:

«لماذا لم أتحدّث مع ناهد أكثر؟ لماذا لم أوقف كلّ شيء وألازمها ليلاً نهاراً»؟

- ٤ -

تتأكد ليس من أنّ القلب يفكر أيضاً. فقد أخذ يصوّر لها منطِقه وهو يزيل لها الأغصان الشائبة التي تشابكت حول نيقولاس، ويشجِّعها على الدخول في حياته من جديد وكأنها كانت هي البادئة في الخروج منها، ويحمّسها للذهاب إلى شقته في بيملكو. تدخل مكاناً متخصصاً في صنع الشوكولاتة.. يدعى «جمعية الشوكولاتة..». تود أن تكون في المكان حيث وقفتْ مع نيقولاس، وسمعته يطلب بانكليزيته الشهيّة «الترافيل» المحشوّةَ بالبراندي. كلماته تهبط في جوفها، كما الشوكولا التي تأكلها وتبعث الحرارة في فمها وتُسرع نبضات قلبها. لقد صَدَقَ مَنْ قال إنّ الشوكولا والحب مرتبطان.

تسرع إلى البناية التي يسكنها بينما التهامها للشوكولا أصبح متواصلاً. تدق جرس شقته أكثر من مرة، تنصت إلى الانترفون، لا مجيب. تعاود الدق على الشقق الأخرى، وعندما لا يفتح لها أحد، تُخرج رزمةَ مفاتيح وتفتح الباب. أحدث باب شقة نيقولاس في ليس اضطراباً، أيقنتْ من طرف الرسالة التي ظهرتْ عبر الباب أنه ليس هنا. تدير المفتاح في ثقب الباب.

الأشياء دائماً في الانتظار، ولذلك يعتليها الغبار لكي تبرهن لمن كانت تنتظره أنها عانت كثيراً حتى فَرّزَ قلبُها هذه الطبقة. لا بد أنه لم يعد إلى لندن طوال هذه الأشهر الأربعة. بطاقتها له ما تزال على الطاولة.

تقرأ ما كتبته: «إذا اشتقتَ إليّ اتصلْ، فأنا مشتاقة».

حتى جوليا لم تشأ أن تتعاون معها، بل اكتفت بالقول كلما سألتها عنه إنه غير موجود. لم تر امرأة أخرى في الشقة، ولا كيسَ الزبالة الأسود فوق السرير ولا رَسْمَ آكلة الحشرات، ولا الكيس الذي ضم علبة الشاي ومرطبان العسل والأزهار.

تستمع لميس إلى آلة التسجيل، تسمع صوتها المرتجف بلكنته العربية، وتسمع صوت امرأة انكليزية وصوت والده، وصوت أخيه. تعيد سماع صوت المرأة، تلصق اذنها بالآلة للتأكد هل للصوت لهفة أم أنه صوت سكرتيرة. تفتح علبة الشوكولا التي اشترتها لتقدمها هدية وتبتدئ بالتهام القطع من جديد.

على الطاولة، ترى الانجيل بالعربية. ما زالت دبابيس شعر ملونة خاصةٌ بها في الطبق اليابانيّ. تقرأ ظروف الرسائل والدعايات والدعوات !.. فلربما كتبت له تلك المرأة، لربما يحب الآن امرأةً غيرها، وإذا بها تقرأ اسمها على إحدى الرسائل. أوشكت أن تطفئ توترها وتفاؤلها وهي تفكر أنه مواصفات شقق وبيوت أرسلها رجل العقار والايجار، لكن الطابع العماني جعلها تصيح صيحة كأنها أجفلت الحيوانات المطرزة من على القماش المعلق. رسم لزهرة توليب

متعرّجة تعاين بوجهها المتطاير الرقيق وجهَها، وعلى ورقة من وريقاتها الدراقية انتشرتْ بذورُ قلبها.

لم تستطع لميس أن تحزر ما قصده نيقولاس في هذه المائية، رغم أنها حاولت أن تجمع الدلائل دون جدوى. أخذت تبحث تحت الكتب، تحت بريده، إلى أن وجدت عدة طرحات من الورق تستوي عند آخر الطاولة. لم تتبين في البدء أنها اسكتشات نساء الدفاداسيس في المعبد الهندي. كن آلهات، واقفات، يتحركن، ينحنين، يبتسمن، يعبسن، يحضرن ويختفين بحسب ظلال قلم الرسم، ثم تبينتْ أن وجهها كان وجوههنّ جميعاً.

هل قام برسمها في عُمان وأتى بها إلى لندن؟ أم أنه جلس خلف هذه الطاولة؟ كانت الرسوم صغيرة وكبيرة مكتملة وغير مكتملة. يخفق قلبها حباً ثم ضيقاً ثم ألماً، ثم غضباً.

لقد عاد إلى لندن ولم يتصل بها. جلس خلف هذه الطاولة، ولا بدّ أنه استعمل عيدان الفحم هذه في رسم الاسكتشات.

تفكّر لميس: استحضرني في شقته من خلال الرسم والذكرى، بينما أنا على بعد أقل من ميل منه. وإذا بجملة تأتي لمساعدتها: «أليست معجزة أن نلتقي بين ملايين البشر»؟ قال لها هذا يوماً.

هذه الجملة أشعلت المزيد من الألم ثم الحنق عليه. أخذت رأسها بين يديها تبكي. تزيد من بكائها ولم تتوقف إلاّ عندما تمتمت لنفسها: «هو رجل معقّد، لميس!»

نهضت عند سماعها هذه الجملة ووجدتْ نفسها تضع مفاتيح شقته فوق الرسوم وتغلق الباب خلفها إلى الأبد.

الفصل التاسع

- ١ -

في جيوب محفظته عثرتْ على قلم أحمر شفاه.

«هيدا، هيدا من عدة النصب. بحط حمرة على شفافي مشان ضَحِّكْ العالم عليّ وعيِّشكُم. يا حرام... هيدي آخرتي». وهي أجابته في قلبها:

«يا عكروت مفكرني هبلة، حتى صدِّق إنّو قلم الحمرة عدة الشغل؟ والكيلوتات والسوتيانات؟»

تعرف كل الأمور وتسكت، تخاف أن تسمع هذه الجملة: «إذا ما عجبك.. يللا مع السلامة، روحي على بيروت». فلو عادت إلى لبنان، أين تعيش، وكيف، مع الأولاد الأربعة ومع الولد الخامس الذي ولد معاقاً جراء القذيفة التي دوّت وسمير فوقها. وكان يرتعب ويقفز محاولاً أن يسحب نفسه منها ولا يستطيع إلا بعد أن قامت بصفعه على وجهه أكثر من مرة وهي تصيح به: «قُولْ بسم الله الرحمن الرحيم، قُولْ بسم الله الرحمن الرحيم».

لم تعد تتحمل غيابه عن البيت. لم تصدّق أنه باتَ ينام عند أميرة منذ موت ناهد. ذهبت لتتحقق من ذلك ولم يفتح لها الباب. ازدادت

تأكـداً من أنه قـد تزوج بزوجـة أخـرى. طلبتْ من أمـيرة القَسَمَ على القرآن الكريم بأنه لـم يتزوج بها أو بأية امرأة. فعلتْ أميرة ما طلبته منها، لكنّ زوجة سمير لم تصدق هذا القسم، وأخذت بزيارة الكنائس.

ابنها الكبير أفشى لوالده كيف اصطحبته معها إلى كنيسة الحي الذي يسكنون به ـ وكانوا قد انتقلوا موقتاً للسكن في شقة ناهد ـ وكيف أتى الخوري مـاداً يده لمصافحتها، فرفضتْ بأن وضعتْ يدها على صدرها، وهمهمتْ. يبادرها الخوري أن الكنيسة هي لكل الأديان، لكل اللاجئين، وأن هناك عشاء تقدمه إلى الجميع مرة في الأسبوع، ثم يسألها هل أنت من العراق أم ألبانيا؟.

ـ لا.. لا أنا لبنانية..

توليه ظهرها، ريثما تُخرج من عبّها ورقةً كانت طوتها حتى أصبحتْ مربعا ًصغيراً، تماما ً كلعبة الأولاد الورقية لمعرفة المستقبل والحظ. تقرأ «جين جين» كأنها بترديدها للاسم فكت للخوري طلاسمَ ما كانت تفكر فيه، وهي تشيرله على الاسم المكتوب إلى جانب رقم تلفون اتصلت به ما يفوق العشرين مرة تسأل: «جين جين» ليجيبها صوتُ رجل: «ليس هناك جين»، ثم ليأخذ في الصياح بها كلما سمع صوتها.

تسأل الخوري:

ـ زوجي سمير وجين تزوجا في هذه الكنيسة؟!

تعود إلى الشقة وهي تفكر في حيلة تُوقع بها سمير، فاختارت الوقت الذي يخذله فيه الدهاءُ، وهو لحظة نهوضه من النوم. تسأله هل

هذه الجاكيت في حاجة إلى كيٍّ. تنفضها أمامه ثم تتناول ورقة سقطتْ من أحد الجيوب. تفتحها وتقرأ: «جين، جين». لم يسارع إلى أخذ الورقة منها، أو يحمرّ وجهه أو يصاب بالتأتأة كعادته، بل بادرها:

ـ شو عم تتعلمي الانكيزي، والله مش بطّالة..».

ـ لازم أتعلم حتى أحكي مع مرتك وأتفاهم معها. أكيد أنت متزوج غيري!

ـ يا حرام يا أميرة، كل اللي عم تعمله معنا.

تُطْلعه على الورقة:

ـ يا ريت أميرة.. الست جين، «يا ملوفك».

ـ هدا جيسون. اسم رجل. الله يعدمني إياك.

ـ من وين اخترعت لي هالاسم؟

ـ بدك تحكي مع جايسون؟ يللا جيبي التلفون بردّي قلبك!

ـ خلّيني أنا أضرب النمرة.

اضطر سمير أن يصحب معه ابنه الكبير والقرد إلى الفندق بعد ظهر ذلك اليوم. لم يعد يأتمن زوجته. أخبره ابنه أنه رأى أمه ترش مسحوق الغسيل في طعام كابوشينو. قال لزوجته إنّه سيصطحب ابنه إلى طبيب الأسنان، إذ كلما فتح ابنه فمه صاح من جراء التماع أسنانه. «نزلة برد» تصيح زوجته، «حرام المصاري تروح عالفاضي! تعي يا صبي تغرغر بمية وملح». وأميرة أقسمتْ أنها لن تتحدث معه كلمة واحدة، إذا هو لم يأخذ ابنه إلى الدكتور.

«وقّفْ أكل الحلو والسكر يا صبي حتى أسنانك يصيرو أسنان آدمين. أعطني خمس دقايق. عندي موعد بالأوتيل، وبعدين آخذك عند الحكيم. انتظرني هون، قرب كشك الجرايد».

أعطى كابوشينو قطعة كراميل. وابنَه ثلاثَ قطع، موصياً أن هذه من أجل كابوشينو أيضاً إذا أراد إشغاله. ودّعه ومشى خطوة ليعود ويؤكد عليه:

ـ اسمعني. ممنوع السعادين، ممنوع يا بابا. حتى الكلاب هون عندهم هويات وورقة صحية وأسماؤهم كلها مدونة على الكومبيوتر. أوعى يا بابا. حتى لو عضك أكبر عضة، استحمل ولا تفلته.

يهزّ ابنه رأسه موافقاً:

ـ أوكي بابا، ما تخاف.. لكن لا تتأخر.

التفت سمير إلى ابنه وهو ينتظر المصعد بكل اطمئنان. لم يكن يبدو على ابنه أنه يحتمل قرداً . التفّ كابوشينو حوله كما يلتف عادة حول أبيه، لا يَظْهر منه سوى طرف ذنبه المعقوف، فيخفيه في جيب معطفه، ليعود الذنب إلى الإفلات لكونه معقوفاً، فيخفيه سميرمن جديد تحت المشلح الكبير الطويل.

لا بدّ أن قطعة الكراميل ستلهي القرد وهو يحاول أن يمتصّ بقاياها التي تعلق في سقف حلقه وبين أسنانه.

دخل المصعد، يسرّح شعره، يتأمل في وجهه، يواجه نفسه: لقد أصبح مدمناً، لا يهنأ إلا إذا اختلى برجل آخر. بل لم تكن مسألة أن يهنأ، وإنّما أن يعيش، أن يهدأ.

كان في أشد الحاجة إلى هذه الخلوة مع الرجال لدرجة أنه اصطحبهم إلى حمام مسز كانيغهام، وهو مكانٌ أمين بعيدٌ عن بواب أميرة، وعن رائحة الحمامات العمومية. وهذا الحمام كان غاية في النظافة، حيث الورُود في مزهرية على طاولة، والصابونُ الملون في صحن جميل. كان حمامها يفي الرجال الإنكليز، ما عدا تلميذ الفنون الذي فضّل أن يسرِّح شعر مسز كنيغهام على أن يتصدق بنظرة واحدة على سمير. لذلك استأجر سمير هذه الغرفة إذ حدس أنه لن يحصل عليه إلا في أجواء جميلة.

اعترف له سمير بأنه ينتمي إلى عائلة من أغنى الأغنياء، وأنها لم تستطع أن تروِّض عشقه للجنس الآخر، ولا ذوقه في الملابس، ولا أن تردعه، فأجبرته على ترك لبنان، ليأتي إلى لندن ويواجه مشكلة أخرى: فثراؤه جعله يفقد إيمانه بالصداقات وبنوايا الناس، ولذلك أخذ يفضّل صداقة القرد على البشر. صدّق كذبته، وقال للشاب الجميل: «أنا صاحبة أملاك، أنا امرأة غنية غنية جداً، سأشتري لك سحلية، قصدي جاكيت غوتشي من جلد السحلية الأصلي، سأجعلك تتنعم».

ـ هل أنا الصبي في فيلم «موت في البندقية» وانت المُسنّ المنحرف ديرك بوغرد؟ أم أنّك كيث ريتشارد، أو شيخ من أرابيا سوف يسند موهبتي ويطلقني في عملي ما إن أتخرّج؟

ـ ماذا تقول؟ لا أفهم شيئاً.

ـ أنت تشبه كيث ريتشارد.

ـ أهو جميل؟

ـ طبعاً...

ـ أوكي لا يوجد لديّ الوقت.. من فضلك، أنت أنت... تدخنني أولاً، هل فهمت؟

بدلاً من أن يفعل ما أراده سمير، ارتمى الشاب على ظهره من الضحك، وهو يردِّد: «كان لدّي إحساس أنّ هذه الساعة لن تذهب سدى». تعلّق بجملة :Please smoke me ولم ينتظر أن يغادر الفندق حتى يتلوها على أصدقائه وعلى شقيقته، بل أخذ يتصل بهم واحداً واحداً ويردد الجملة تاركاً سمير على أحرّ من الجمر.

(الله ينتقم مني من جديد. حتى الذي دفعته ثمناً لغرفة الفندق هذه لم تكن في موازاة لذتي. كل ما فعلته هو أني ابتهلت إلى التلميذ بكلمة «أرجوك أرجوك»، ولم أعثر على الكلمة، وطلبتُ منه أن يدخِّنني كالسيكارة. طار صواب الصبي من الضحك،ما إن يهدأ حتى يعود فينقلب على ظهره ويأخذ في الضحك. يعيد الجملة ويضحك، وأنا أسايره قليلاً بالضحك، وهكذا.. كأنّ خمسة يزكزكون خاصرته فيتمرغ فوق السرير ويتدحرج، وكأنّ لدينا المزيد من الوقت، ولم يبق مهتماً بما كنا نفعله، بل كأنه فقد الشهية تماماً).

يطلُّ سمير من الممر ذي الدرجات. يشير بيده إلى ابنه الذي صاح على مدى صوته: «بابا، القرد هرب، راح عالعرس» وهو يركض نحوه ويبكي.

ـ أيّ عرس؟ الله يعدّمني إياك. كيف تركته يهرب؟ وين راح؟

لكنه لم ينتظر جواب ابنه بل أسرع إلى الصخب والموسيقى وباقات الورود الكبيرة، وهو يحضّر ما سوف يقوله: «أنا أعمل في حديقة الحيوانات، أعرف كيف أقبض عليه. افسحوا لي الطريق».

الضجيج يبتلع كلماته كما ابتلع القرد معه داخل قاعة العرس. يزداد الضجيج كلما قفز كابوشينو من طاولة إلى أخرى، ومن زينة الزهور إلى الأغصان التي التفت حول أعمدة القاعة. الصراخ يعلو، والضحكات تعلو، والعروس تبكي، والرجال يلحقون بالقرد الذي اعتلى نحاس الستائر.

يراقب سمير وابنه ما يجري وكأنّ دوراناً أصابهما.

«دعني أصعد.. أنا أفهم لغة القرود». لا يسمعه أحد، العيون والآذان تتعلّق بالقرد وبالرجل الذي وصل إلى الدرجة الأخيرة من السلم وأصبح على مقربة من كابوشينو الذي كان متمسكاً بالستارة. وإذ مد يده قفز القرد من الستارة وهبط على الطاولة حيث كعكة العرس المؤلفة من طبقات عديدة، يمسك بالكعكة وكأنها حصى يأكل منها، يرمي بها الناس ثم يلحس أصابعه.

يجمد سمير ولا يستطيع إلا أن يمسك بيد ابنه ويقول له: «شو يا بابا. يللا الماما ناطرة بره. نحنا ما بنعرف هالقرد، فاهم؟ ما منعرفه ولا بيعرفنا».

ينسحب جاراً ابنه خارج القاعة، خارج الفندق. ثم أخذا في الركض، ولم يتوقفا إلا عند محطة الأوتوبيس. يجلس سمير ويأخذ رأسه بين يديه ويبكي. يشهق ويبكي. كأنه أودع كابوشينو أحد

الألعاب في مدينة الملاهي وهرب. سيبحث عنه كابوشينو بين الجموع ليريه خفّةَ ظلّه. يريد أن يسمعه ضحكاته وهو يقفز على الكعكة التي كانت تشبه البيوت البيضاء، ويأكل بشراهة ويراشق الناس بها. لا بد أنهم سيقبضون عليه. يتوقّف سمير ويستنجد بابنه: «بابا ما فيني عيش من دونه، هلق راح ياخذوه ويحبسوه ويمكن يقتلوه. يمكن يفكروه مجنون. شو منروح منخلصه؟ أصحاب العرس يمكن بياخذوني على المحكمة. راحت عليه، وإذا حاولت أخذه راحت عليّ وعليه، وعليك وعلى أمك وأخوانك وأميرة. يا حرام يا كابوشينو. يللي شخاختك بتملّي الحارة، يا حبيبي، شكّل آسي على قبري وهلق عم تبكي، ولو بتعرف تنطق كنت سألت عني. الحمد لله ما بتعرف تنطق، ولا بتعرف تقرأ وتكتب». ولم يتوقف سمير عن البكاء، رغم أن ابنه التصق به وقال له:

ـ بابا بابا قوم، يللا، الناس عم تتفرج. بركي جابوا البوليس.

ـ هو ابني بس. نعم هو ابني، لا أنتَ ولا خيّك ولا خيّك ولا أختك ولا خيّك. ما بعرف ليش جيتو وكيف جيتو ومن وين جيتو، خايف العالم تحكي عليّ إني بحب الرجال، كلما حبلت مرتي «أم أربعة وأربعين»، انزاح الهم وتأنيب الضمير عن ظهري سنة.

ـ بابا قوم، الناس عم تطلع فينا.

ـ القرد هو كان عليه أن يتحدث وينادي «بابا». لم يكن يمل ولا يكل. ندخل كل ليلة إلى ثلاثة كباريهات ومطاعم، وهو يركّب القطار الصغير فيتحوّل أيضاً إلى ممرِّض ويتسوّل المال. وأنتو شو بتعملوا

غير بتاكلو، وبتشخّو وبتقولو هات بابا هات هات؟. اتنعشر إيد ممدودة، كل ما برمتْ شفت اتنعشر إيد. وإذا ما حطيت بإيدها شي خنقتني. قبل ما كلكم تلحقوني على لندن، ذقت السعادة لأول مرة في حياتي.

ولم يصعدا إلى الباص قبل أن يؤكد سمير لنفسه أنّ كابوشينو لا بدّ أن يكون قد نُقِلَ إلى حديقة الحيوانات. غداً سيذهب إلى المكان الذي أخبرته عنه المرأة الانكليزية، خارج لندن، المكان الخاص بالسعادين والقردة.

ـ ابني، اسمعني. أكيد اللي في جنينة الحيوانات عندهم قلب، إذا رحت وخبّرتهم لن يشكوني، سيتفهّمون ليش أنا متعلق بالقرد. يمكن يخلوني ألعب معه؟ ومين بيعرف؟ يمكن فيني ارجع أشتريه منهم.

وإذا بالولد يضع يده على كتف والده ويضمه إليه ثم يسأله:

ـ كيف سنعيش بدونه، بابا؟

ـ الله يبعث الرزقة. كان والدي الله يرحمه يقول: «معك قرش بتسوى قرش». وأنا صرت قول: «معك قرد بتسوى قرش». الله يبعث الرزقة.

ثم سأل سمير نفسه:

ـ الكل يضحك عليّ. ولكنْ من الذي سوف يضحكني منذ الآن؟

- ٢ -

لم يلعب الروتين في حياة أميرة طيلة عشرين عاماً. تجد نفسها كالعادة أمام الخزانة، تختار الملابس، وتعيد اختيار غيرها، تستحم، تدلك نفسها بالكريم المعطّر، ترسم عينيها بالكحل الأسود. والآن مذ أصبحت أميرة لا بالاسم فقط، أخذتْ تحرق العود والبخور في مبخرة تضعها على الأرض، ثم ترفع فستانها كما رفع الهواء فستان مارلين مونرو، لكيْ يخرق البخور ملابسَها الداخلية ومساماتها. صوت ردها باب الشقة كان يوقظ فيها مادة الأدرينالين، فيبدأ بتنبيه كل جزء منها وكأنها شربتْ خمسين فنجان قهوة دفعة واحدة، والخوف ألاّ تجد زبوناً يجعلها ترى فلاشاً يلتمع ويغادر، يلتمع ويغادر إلى أن تتلو تعويذتها: «الرجال دائماً يطلبون الجنس».

ليتها اكتفت بالوقوف على الشاطئ تصيد الأسماك الصغيرة بصنارتها، فتأكل هذه الأسماكَ البريئةَ بكل شراهة. لكنه طَمَعُ أميرة هو الذي جعلها صياداً في عرض البحر، حيث الأسماك والحيتان والكلاب الكبيرة المحنكة، التي كبرت لأنها أكلت الطعم وبالت على الصنارة. انتصارها في الفندق قبل مدة جعلها تتأكد من أنها باهرة الذكاء والحيلة. فقد قهرتِ اسكتلنديارد وضحكتْ على الأمير.

اختفى الملاك الذي كان يحرسها هذه الليلة، لشدة البرد ربما. ووجدتْ أنها تبلع الطعم الذي كانت رمته للأسماك الكبيرة. فالأمير الجديد الذي تقصده الآن لم يكن كالأمراء الصغار، لا يلمّون بأسماء الأقرباء والقريبات لكونهم عائلة كبيرة. بل كان يدقق في أصغر الأمور، خاصة ما يتصل به وبإخوانه وأخواته وأفراد عائلته المقربين. يؤمن بالشرف، والسمعة الطيبة. لم يكن يتأخر عن تأديب أقاربه الصغار عندما يسمع قصصاً فاضحة عنهم.

سمع بقصص العاهرة العربية التي تنتحل صفة أميرة وتنسب نفسها إلى عائلته، ولم يضحك كالآخرين، أو يَنْتَبْهُ الغضبُ ثم ينساه. نوى أن يعثر عليها، وفعلاً عثرتْ عليه كما أراد، واتصلت به كما أراد.

دقة، دقتان، على الباب. لم يسمع أميرة تقول لله إنها تحبه؛ فهو دائماً يرعاها، تماماً كما قالت بهية يوماً:

«الحمد لله أنا صليت قبل ما أسكر».

وقفتْ مُطرقةً إلى الأرض. ترد الغطاء الأسود الرقيق على وجهها، مغطيةً نصفَه لتُظهر منه فمَها وبشرتَها السمراء، ثم لتحكي بعينيها نصف حكاية. رائحتها كانت عوداً وبخوراً، وخفرها الانثوي يثير الرجل لأنه يبتهل إليه قائلاً: «أنا طوع يديك، تسقيني حتى نقطة الماء التي أحتاجها». وفي الوقت نفسه كانت تريه أيُّ قلعةٍ محصّنة هي بما حولها من عائلة ونساء وأولاد.

«لندن تَخوّفْ مرة»، تهمس بهذه الجملة، وتحيِّد عينيها عنه خَجِلةً من غير أن تشرح له لماذا، إذ كان تبادُلُ الحديث بكلمة أو كلمتين هو

غاية في الاحترام بين القريب والقريبة. كانت تقول له أنا في منتهى الرهافة والضعف لقلة تجاربي خارج أمان عائلتي وبلدي. تمنت لو يهتاج هذه اللحظة فلا يعود يدور عقله. هي تعرف.. عندما ينتصب عضوُ الرجل يطمر الدماغ نفسه في التراب.

تحين منها نظرة خاطفة إليه، فإذا هو جامد. كل ما فيها كان يزيد من التباس الأمر عليه: ملابسها، حركاتها، صوتها، كلامها، رائحتها، رغم أن سجلها بين يديه يقول إنّ اسمها «حبيبة المستنيمي». تلخمه، لكي تؤكد له، ولكي تستمد الشجاعة للمضي بما تفعله، إذ هو يربض قبالتها كالصقر. سألته إنْ كان يسعها استعمال التلفون؟

ـ تفضلي.

فرضتْ عليه هو الأمير احترامها كأميرة. تدير رقماً: «عواطف، ويش كلتو، خللي السوّاق يروح حق مطعم مروش. أيوه، وبعد ساعة يجيني الفندق، والتليفزيون تصكيه».

ـ تفضلي، تفضلي.

أجلسها الأمير على الكنبة وسألها ماذا تريد أن تشرب. هي المرة الأولى تلتقي فيها بمن في لقبه ومركزه. تمنت لو أنها لا تمثل دور أميرة بل لو أنها أميرة فعلاً. كان دمث الاخلاق، جميل الصوت، غاية في الأناقة. وبعد أن سألها ما بها، بدلت السيناريو. لن تقول له إنها تحتاج إلى معالجة فورية، إنها لا تزال تنتظر الحوالة. هناك من لا يحب أن يقرب امرأة مريضة. ولذلك رددتْ أنّ شقتها نُهبتْ. وزادت

أن أخاها سيفيه بكل شيء، وهي متأكدة أن الموضوع سوف يُغلق في رأسه ما إن تغادر.

ـ من محمد؟

هزت رأسها بكل خجل.

ـ ما يخالف. (ثم اتصل بغرفة أخرى) من فضلك دقيقة عندي.

سرعة أفكارها شلّت تركيزها على المبلغ الذي عليها أن تطلبه. فيبدو كبيراً، أو قليلاً، وهي ضائعة بين أن تشكره بكل عزة نفس أو أن تكتفي بالتمتمة فقط، إذ من واجبه أن يساعد فرداً من أفراد عائلته وخاصة امرأة. أم تراه عليها أن تبكي؟ أتخبره قصتها، قصة ترك زوجها لها؟ تتراجع؛ فالكل يتزوج أكثر من مرة. أتخبره أنها لم ترزق؟ أو أنها تحب نظم الشعر؟

لا، ليس الليلة، مرة أخرى. يبدو أنه لا يطيق القصص. إنه غاية في الجدية، كذلك الرجل الذي دق الباب قبل أن يضع مفتاح البطاقة ويدخل. كلمة واحدة أوقعتها؛ الطريقة التي لفظتْ بها التلفزيون. تنظر إلى يده الفارغة إلا من لكمات أخذ يسددها إلى وجهها، ورأسها وصدرها ويديها. كلما ولولتْ زاد من لكماته. قدماها، فخذاها، لا تعرف أين تضع يدها. ازدادت اللكمات وكأنها أكثر من يد أو يدين تشتركان في ضربها.

أخذت يداها تردان الضربات عن وجهها، ثم كمصارع في حلبةٍ فَقَدَ كلُّ قوته للدفاع عن نفسه وأُجبر الآخر على أن يسدِّد له اللكمات في مكان معين، فتحتْ عينيها لتلاحظ إنْ كان حول إصبعه

خاتم، وعندما لم تر واحداً تنفست. لن يتشوه وجهها.. إنها بين أيدي والدها وإخوتها وأولاد عمها، ورجال الجيران ورجال المخفر ورجال بلدتها، يضربونها ضرباً مبرحاً. هذا ما كانت تخشاه كلما زارت بلدتها. لو يضربها الأمير بنفسه لما شعرتْ بهذا المقدار من الإهانة. لم تطق فكرة أن يشعر هذا المرافق بالقوة والاستعلاء عليها.

«لا بد أن الأمير يذلّه، وها هو ينتقم بإذلالي. يزيد من ضربي، ليتعافى من سلطة الأمير عليه». لم تنطق بهذا. أولولت في عبها أم عالياً؟ لا تعرف. أنطقتْ ولم تسمع صوتها، ولم يسمعها الأمير، رغم أنها ترى نعله الفخمة؟ ولم يتوقف الرجل عن ضربها إلاّ عندما تنحنح الأمير وابتدأ بالكلام:

ـ عيب! امرأة عربية تتحايل. عيب، تحايلي في المرات المقبلة بأنك أميرة من بلدك. لا تدخلي بلادنا في أكاذيبك، وحقارتك. عيب، عيب.

أيقنت أنها لن تقوى على الوقوف، حين كان الأمير يأخذ الأوراق من على الطاولة فيقرأ لها: «حبيبة مستنيمي»، وكأنها تلميذة سمعت اسمها فوقفت بصعوبة. «اسمعي. كل شيء عنك مكتوب هنا، ما حدث الليلة هو تحذير، إياك ثم إياك إذا عرفت أن هناك مرة مقبلة. الأفضل ألاّ أهدّدك. إنك تعرفين ما سوف يحدث».

تقول كلاماً لا معنى له، ربما لأن فمها أصبح قريباً من جهة أذنها. خافت أن تُجبَر على مغادرة لندن. أنفها ما عاد يقوى على التنفس. ترى نفسها في المصعد وهي تسير في محاذاة أي شيء

حتى تتمسك به، خاصة لأن الغلالة السوداء غطت كل وجهها. تسير في بهو الفندق الأنيق، الذي أصبحتْ أميرةً من أجل أن تخطو فيه وفي الفنادق التي على شاكلته بكل فخر وهي ترتدي ملابس ثمينة. تخترق عينيها الآن الأنوارُ الخافتةُ وكأنها أسياخ تشكها فترفع كفها تخبئهما . قدمها تؤلمها؛ لا بد أنها ارتطمت بالطاولة أو أن الرجل ظن أنه يصارع «روكي مارسيانو». تبكي، ذاقت لأول مرة عنف القوادين ونقمة الرجال الأشرار على أمثالها.

كل الرجال الذين عقدتْ صفقة معهم مقابلِ جسمها كانوا يتركون سُلطتهم على الباب، ليدمنوا حنانها وأذنها الصاغية. ولذلك لم تكن تفهم لِمَ تتعرض بائعات الهوى الأجنبيات للعنف، ولِمَ يَتَّكِئن على قواد إنكليزي بدلاً من اقتناء الزبائن العرب.

ألمها، لأنها لم تدافع عن نفسها، هو الذي يكبر في صدرها. يطغى على آلام وجهها وفكيها وأذنيها وقدمها. لماذا تركته يضربها إذا لم تكن تشعر بأنها تستأهل الضرب؟ بل إنّه لم يضربها بهذه الشراسة لأنها انتحلت شخصية أميرة تبتذل المال وتضاجع ضحاياها، وإنّما ضربها لأنها عاهرة!

الطالب الجامعيّ العربيّ الذي كان يحضِّر أطروحة عن انتقال المجتمع العربي بكل ما فيه إلى لندن حتى الدعارة، رضيت أن تقابله وتجيبه عن كل أسئلته بناءً على توسُّط أحد الزبائن. سألته ماذا يفعل لو عرف أن شقيقته امتهنت مهنتها؟

ـ أغمد السكين في قلبها فقط! «لا يمكن. لا يمكن».

أصبحت الآن في مصاف الأخريات الأجنبيات والإنكليزيات. لم تستطع حماية كبريائها، ويبدو أن غلاء ملابسها وساعتها الماسية لم يشفعا. ولم تشفع لها مواقفها؛ فهي أبت أن تضاجع العراقيين بعد احتلالهم الكويت، ثم توقفتْ عن مضاجعة الكويتيين لأنهم طردوا من بلادهم جنسيات عربية أخرى. توقفتْ عن التدخل في السياسة. فالعاهرات لسن من المجتمع، خُلقن من غير رحم أم، خلقن من شجرة، من غير آباء وإخوة، وأخوات وأقارب. صُعق الزبون، الذي قالت له إنها طباخة ماهرة، إذ لا يحق لها أيّ وظيفة أخرى في المجتمع.

اعتادت أن تنسلّ من مواقف خطيرة إلا هذه الليلة، لأن ثقتها بنفسها تعدّت الحدود، وأيقنتْ أنّ جميع الرجال نسخة واحدة، كالشاحنات التي تعبئ الحمولة ثم تفرغها دفعة واحدة. ألم يَصِحْ بها زبون وهو يشد لها شعرها صائحاً: «أريد أن.. أريد أن... رضيتِ أم رفضتِ» وهي تجيبه: «راضية. دفعتَ لي، وهذه هي مهنتي. إنك تؤلمني. أرجوك».

تُحْكم المنديل فوق وجهها وتلملم نفسها، خائفةً أن تراها أمها في حالتها هذه، ولو كانت على بعد آلاف الأميال.. تتذكر فجأة كيف هجمت عليها أمها في إحدى الزيارات إلى المغرب تهزّها من نومها:

ـ قومي، قومي لا تنامي هنا. حرام، لا تنامي مع أخواتك الطاهرات، افرشي فراشاً بعيداً عنهن.

فتنهض أميرة ولا تزال تتدفأ بأنفاس شقيقاتها الصغيرات، وكل واحدة منهن علقتْ حول رقبتها السلسلة الذهبية، التي كانت أتتهن بها، تتدلى منها المصاحفُ الذهبية الصغيرة وعبارة «ما شاء الله» ولؤلؤةٌ وخرزةٌ زرقاء. نقلت فراشها بعيداً عنهن وهي تتمنى لو أنها صغيرة مثلهن لا تعرف سوى سقف هذه الغرفة. أنفاس شقيقاتها هدهدتها حتى نامت. لكن ما إن نهضتْ في الصباح على صياح أمها وهي تشتم الحليب لأنه غلى واندلق على الأرض، وعلى دقات أختها أمام باب المرحاض تستعجلها وهي مقرفصة، حتى فرحت لأنها ستسافر بعد الظهر عائدة إلى لندن، ولأنها تعيش في رفاهية وتتمتّع بماءٍ ساخن وتاكسيات وعطور ومطاعم وتسلية وعناية طبية في متناول اليد.

كانت أميرة تحب أمها، وتتفهم لماذا لم تكن تمسك بالنقود التي كانت تأتيها بها، ولم تكن تدع واحدة من شقيقاتها تلمسها، بل تتركها على الطاولة منتظرةً خروج أميرة حتى تنادي جارتها العجوز التقيّة، فتصعد الدرجات وتجلس ومسبحتُها بين أصابعها، تشرب الشاي وتطلب ملعقة أخرى من العسل، قبل أن تبتدئ بتطهير المال الملوّث، بغسله لا بالماء بل بالأدعية والصلوات، ثم تباركه بتركه فوق القرآن المقفل لحظات، قبل أن تأخذ أم أميرة برسم عين زرقاء على كل ورقة مالية.

ماذا تفعل إذا تركت مهنتها؟ حتى أمها لا تطلب منها العودة إلى المغرب، تريدها أن تتزوج. من هي من دون مهنتها هذه؟ وكيف تتراجع عنها وهي أعطتها كل شبابها ونشاطها وذكائها؟ من أجلها

لم تصبح زوجة، أو أماً أو حتى حبيبة. كانت تعرف أن الذي يريدها في سريره دون هذه الصفة إنما من أجل أن يملك سيارة ويضع فوق كتفيه معطفاً ثميناً. ما عادت النساء هن اللواتي يصلن إلى المُخْرج ورئيسِ الشركة والملحِّن الأول فقط، بل الرجال أيضاً. تحاو ل أميرة أن تُدخل الطمأنينة إلى قلبها من جديد. تذكّر نفسها أنها كانت تسير في برد لندن القارس من غير جوارب، من غير صديقات، من غير مأوى، خادمةً، تنتقل من منزل إلى آخر. ساعات وتعود إليها قوتها وتفارقها آلامها المبرحة. على كل حال، هي محظوظة، حرة، ليست انكليزية في طريقها إلى المخفر مذ عُثر عليها تحت أضواء سيارة البوليس الكاشفة وهي تحاول التقاط زبون، ولا هي من مناطق بعيدة جيء بها كالغنم في الباص الكبير لقضاء أيام في لندن، في فنادق تعشعش بها الصراصير من أجل أن تكشف عن فخذيها. هي محظوظة. فلا حصل اعتداء عليها وهي صغيرة، وما احتال عليها زبون.

توقف تاكسياً وتطلب من السائق أخذها إلى جامع ريجنت پارك. وتسأله الانتظار، فهي تود السؤال إنْ كان جثمان أمها وصل. تصدق كذبتها وتبكي، والسائق اللطيف يطمئنها إلى أنّه سوف يقفل العدّاد، «تأخري ما تشائين، أنا هنا». تخطو خطوات لتلمع فكرة في رأسها. تعود إلى السائق فتصرفه بعد أن تعطيه جنيهاً بقشيشاً. تدخل إلى الجامع. مسكينة ناهد: «أنا كنت فاكرة نفسي قرش صاغ، عشان كده عملت اللي عملته» قالت لأميرة مرة.

هل تبكي على ناهد أم تبكي على نفسها؟ كانت تظن أنها في قمة الذكاء، آلة حاسبة بالفطرة، تضرب الوقت والمال ثمن تمددها خمس دقائق تحت أيّ رجل، وتجده مربحاً.

يسألها الرجل الجالس خلف طاولة الاستقبال في بهو الجامع كيف يستطيع مساعدتها، فتسأله بدورها هل وصل جثمان أمها. وبعد سؤاله عن اسم أمها وعن الوقت المفترض، يغيب ليعود فيسألها إنْ كانت متأكدة.

ـ يعني أمي لم تمت! (وأخذت تبكي).

ـ لم أقصد هذا، أرجوك. على كلٍ، انتظري، تفضلي اجلسي. انتظري، هل أسوي لك الشاي؟

يغيب توترها، تشعر بأمان، وترشف الشاي وكأنها تذوق حلاوته للمرة الأولى. كانت ترفع المنديل عن وجهها لتأخذ رشفة ثم تعيده.

تشكر الرجل، تنهض وهي تقول له: «لربما هي فعلاً أخطأت في التاريخ». وكعادتها أخرجت من شنطتها عشرة جنيهات وضعتها في كفه وهو يشكرها متمتماً أنه لم يفعل لها شيئاً.

تخرج في البرد القارس تلتفت حولها، لا بدّ أن الذي لحق بها قرّر أنها قصدت الجامع من أجل التوبة. لم تر أحداً، لكن عليها الاحتراس.

تقف مدة لا بأس بها قبل أن تصعد في تاكسي أسود. لم تشأ التاكسيات الأخرى أن تتوقف لها لأنها تغطي وجهها، حتى إن أحدهم بصق في وجهها، وآخر سألها قبل أن يعرف أين وجهتها كم

ستدفع له من البقشيش، فقالت له بالانكليزية Fuck you. فصُعق لوهلة ثم مدّ لها إصبعه. تتمنى لو أنها الآن في الرولس رويس والوصيفات معها، مترقبةً بدء مسرحيتها وانتهاءها، والنجاحُ يترك قلبها كأنه كرة تقفز هياجاً وسعادة. هذه الذكرى تجعلها تحرك قدمها بسهولة. لا، لا تريد نمط هذه الحياة أن يختفي، لا تريد أن تستبدل بها حياة ما قبل الإمارة، حياة الشعب العادية.

فهي قد أصبحت في كامل الوقار والرصانة والطمأنينة. تستدرّ احترام الجميع، ومن بينهم وسيم وسمير.

وما عاد أحد يناديها بغير «الأميرة»؛ حتى قريبها الذي جاء من المغرب ومكث عندها مدة ريثما يجد عملاً ورآها تتصرف مع الجميع كأميرةٍ تجلس في صحن شقتها، تستمع إلى القصص، تتسلى بالأشخاص الذين أصبحوا يحومون حولها للانتفاع بصلاتها برجال الخليج الكرماء. أحد السائقين الانكليز سألها يوماً:

ـ سمو الأميرة، هل لك أن تساعديني في شراء الوقود من المحطات بثمن مرخص لأنك من بلاد البترول؟

نظرت إليه أميرة بجدية ووعدته قائلة: «سأحاول. أنت رجل طيب».

لم تعد تود اصطياد رجال الكازينوات والملاهي والفنادق، والذين كلما كبروا أرادوا من هنّ أصغر سناً، ولندن تزدحم بالبنات الصغيرات. ولم تعد كما كانت في السابق ممثلة تحفظ أدوارها وتتكيف مع الممثلين الآخرين الذين نسوا أدوارهم، لربما أصبحت «مامي» مثل المامي المتحجبة التي تراها في ادجور رود...

لا تستطيع، بل لا تود تحريض الغير. لا تود السؤال إلاّ عن نفسها، لا دخل لها إلاّ في نفسها. تترك سمير يولول إذ يراها. تخبره بأن قدمها زلّت ووقعتْ على وجهها، وما إن يأتيها بكمادات باردة وثلج يكسره في فوطة ويضعه على وجهها حتى تبكي. وكطفلة لا تعرف النطق تدل على وجهها: «ويلي ويلي ويلي». وعندما يستحلفها أن تخبره بما حصل لها، قالت له إنها خبطت بعمود كهربائي، ثم ضحكتْ، وقالت له إنها التقت أخيراً بأمير غيور أمر بضربها وهي تزيد قائلة إنه شديد الجاذبية خاصة رائحة ثوبه... كلامه.

ـ عم تهلوسي يا أميرة، يي عليّ عم تهلوسي. اسم الله عليك، حسّادك كتار.

يأخذها إلى سريرها يمددها فوقه:

ـ ما تخافي أميرة. أنت إذا مسكت الرمل صار ذهباً.

وهي أغمضت عينيها وهمست لنفسها: ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

- ٣ -

الضباب يحيل برج BT إلى صاروخ، والأضواءَ الخافتة إلى نار تشتعل. تجده ليس يستدرجها إليه بين الأحياء والشوارع كأنه منارة يقود السفن نحوه. تصل إليه أخيراً فرحة، لأنها لم تستعن بتاكسي ولم تخف من التيهان. تقف قبالته، بل تقف عند قدميه، من حيث يبدأ، نظرها يصعد معه حتى يصل إلى قمته. كل الأمور تبدأ من نقطة، والمهندسون وقفوا كما يقف هو الآن وقالوا هنا. كأنها برؤيتها لمنبعه في وضح النهار أزالت عنه الصفة الخيالية التي كانت قد ربطتها به. وإذا تأملته في الليل سيظهر لها كعب قدميه أيضاً والموظفون يغدون ويخرجون منه، كأيِّ بناء عاديّ.

تخطو داخله وتسأل «هل في إمكاني الصعود إلى قمته؟»

ـ ممنوع للجمهور.

ـ الأمر غاية في الضرورة!

ـ اتصلي بمكتب الإعلام. إليكِ الرقم..

انتبهت ليس إلى أنها استخدمت لهجتها غير الانكليزية. ورغم أنها تحدثت باللهجة الانكليزية الصرفة منذ قليل إلى سائحة أميركية

كانت تسأل عن أوكسفورد ستريت، فقد بلعتْ حرف الراء وحرف الـ E من كلمة Here وقالت Idare say وأضافت كلمة: actually. مارست عليها لميس قوتها بأنها تعيش هنا وبأنها من هناك، تعرف ما خلف هذا الشارع وما داخل هذا الدكان. تماماً كما تشعر حين تتوقف الباصات في أوائل شهر ديسمبر لتُفْرغ من جوفها الانكليز القادمين من خارج لندن للتبضع تحت زينة ريجنت وأوكسفورد ستريت، فتسير أمامهم مختالة وهي تراهم يمسكون بالخرائط، فتقول لنفسها: «مساكين، إنهم دخلاء على لندن».

ترى الانكليز فقط في هذا الشهر، لا أفراداً كالعادة، بل عائلات مع أصدقائهم وجيرانهم، يمسكون بالأكياس. تراهم في الصيف. ترى النساء في فساتين لورا آشلي، في صنادل رومانية، يصعدن الباص، وكأنهنّ يصعدن درجات المعابد.

ترى وجه معلمة اللهجة، أليسون. ترى قطتها. تضحك المعلمة، تقهقه، وهي تخبر تلميذة لها جديدة: «المرأة العراقية كادت تختنق من جراء الخشبة التي وضعتها في فمها من أجل أن تدفش لسانها وهي تلفظ حرف الراء».

تصل لميس إلى حضانة مونتسوري مقابل سلفردج مكان الاقتراع. تنظر في تمثال المرأة التي تحمل الساعة عند مدخل سلفردج. كلما دقت الساعة، توقفتْ لميس وابنها عن هرولتهما إلى مدرسة الحضانة ليرفعا كفيهما المشبوكتيْن معاً ويطيحا عند كل خبطة من خبطات الساعة. تدخل وحيدة الآن، تنظر إلى جدران

المدخل من على يمينها، حيث كانت علاّقات المعاطف وأسماء الصغار، ومن بينها اسم ابنها خالد إلى جانب صورة كلبه.. تنظر إلى قاعة المدرسة: غرفة صغيرة بيضاء الجدران، عليها ألوان كثيرة رسمها الأطفال. وعلى طاولاتها المنخفضة أشكال لفاكهة وحيوانات ملونة من البلاستسين. لم تر تمثال القديس ماركوس البرونزي ولا البيانو ولا الطاولات أو الكراسي البنية الغامقة، بل رأت كراسيَّ وطاولات جديدة ملوّنة كُوِّمتْ على جهة، فاسحةً لصناديق الاقتراع.

عندما ألحقته بهذه الحضانة اضطرت إلى المداومة معه عشرة أيام. لم تشأ أن تراه يبكي كلما أوشكتْ أن تغادر. وعندما اقترحت عليها مسز «لاباك» أن تواظب معه ريثما يعتاد المدرسة رحبتْ بالفكرة. أيّ مكان بعيد عن منزلها هو جنة، ولو بين عشرين طفلاً يسعلون ويَشْرقون بلغمهم ويبولون في ملابسهم.

كانت تجلس كأنها تشاركهم كل شيء: قصص الأطفال، والأغاني، كيف يمسكون بالمقص، كيف يلمّعون الأواني الفضية. لو إنها لم تكن تسرح بعيداً وتفكر لماذا لم تتعلم كل هذا في طفولتها لكانت أتقنت كيفية لفظ الأحرف الانكليزية، وعمرها حينذاك ١٨ سنة. عندما أثنت مسز لاباك على بالها الطويل وتضحيتها بالجلوس سجينةً ثلاث ساعات، أوشكتْ ليس أن تجيبها بأنها سعيدة هنا. إنها تتعلم، وتشعر بالأمان.

كم تتبدّل الأمور. كانت تشعر أن هذا المكان أبديّ.. سيبقى ابنها من العمر نفسه، تماماً كأقدام الفتيات الصينيات المحشورة بأحذيتهن الضيقة..

وجدت نفسها تقول للشابة في غرفة الاقتراع:

ـ كان ابني في هذه المدرسة.

والشابة نظرت إليها بعينين ناعستين وابتسمتْ غصباً عنها. عندما خرجت ليس أعطتها سيدة كانت تقف عند المدخل نشرة تصدرها جمعيةُ سكان تلك المنطقة. تذكرت أن هذه السيدة هي أم طفلة كانت في هذه الحضانة واسمها برقوقة، إذ كانت منتفخة كالبرقوق. تحادثها ليس، والمرأة تتصنّع بأنها تذكّرتْ خالد وتسألها في أي مدرسة هو الآن، ثم تحاول معرفة مَنْ انتخبت. ما كان يهم ليس هو الشعور بالانتماء إلى انكلترا، وبعده سياسة من تنتخبه.

تسير وهي تقرأ النشرة تحث السلطات على أن توافق على إعطاء الأوليّة لأهالي المنطقة في ركْن سياراتهم حتى أيام الآحاد مذ فَتَحَ أوكسفورد ستريت أبوابه لهذا اليوم. كنيسة سانت ماركس تحتاج إلى معجزة مالية. المعركة ما زالت محتدمة حول البار الذي يقلق نوم السكان. تتأسف النشرة على إقفال مكتب البريد الذي حل محله دكانٌ يبيع القمصان القطنية خوفاً من أن يفقد الشارع جماله.

وأخيراً تقرأ ليس عن المرأة روز دان ابنة السنوات المئة والثلاث، والتي تعيش في الشقة التي تعلو الغرفة حيث رأت النور للمرة الأولى. ولدت يوم فتح الستار عن مسرحية لتشايكوفسكي، واكبت الحقبة التي طار فيها ويلبير رايتس ومات أوسكار وايلد، واكبت الحربين العالميتين: ست ملكات وملوك. إنها الآن في عصر ما عادت ترى فيه باعة «المافن» ولا الدببة الراقصة في الشوارع، بل إنها تعايش التلوث والمحركات بدلاً من سماعها وقع حوافر الأحصنة.

«أين أنا من كل هذا؟». تدور ليس وهي تتوقف عند البنايات حيث تشغل روز دان إحدى الشقق. «أين أنا من كل هذا؟ ماذا أضيف يا تري على هذه الأمكنة غير حيرتي ووقع أقدامي، وغير صوت في صندوق الاقتراع، لا يقدّم ولا يؤخّر؟ كيف أصل إلى لب المكان؟ كيف أجعله يراني؟».

تجد أن كل ما تقرأه لا أهمية له. ومع ذلك جثم فوق صدرها عبءٌ ثقيل. حمامة تدخل تنكة الزبالة. تخاف ليس أن تصبح سجينتها، لكنها تطير منها. هنا تقبع روز دان، حيث تقف ليس الآن وهي تتأمل البناء: « المكان غير محظور عليّ، بل لأني لست من هنا أستطيع أن أختال في كل الأمكنة، أستطيع كالنسر المحلق أن أحط على أية بقعة أختارها وأقول هنا سوف أستقر وأعيش، لا كروز دان، التي تعيش على بلاط السقف الذي ولدت فيه».

تعود إلى الشقة وتطلب برج الـ B.T.

ـ لماذا؟ (يسألها الصوت الانكليزي المسرع).

ـ لأني أريد أن أرى لندن من فوق.

ـ إذن، السبب شاعري؟ معذرة، آسف، معذرة، غير ممكن.

ـ لن يستغرق ذلك أكثر من دقائق... الكاتب الانكليزي جوناثان رابان في كتابه...

ـ دقيقة أم ساعة، معناه أن رجل الأمن سيأخذك وآخر سوف... آسف غير ممكن. المعذرة، باي.

يصعد الكاتب جوناثان رابان في كتابه ارابيا إلى أعلى مبنى في صنعاء اليمن. لا بد أن الرجل اليماني الذي قاده شعَر بالفخر لأن هذا انكليزي ومع ذلك يريد أن يرى جمال صنعاء من فوق. كيف صممت أن تكون انكليزية وهي تفكر بمنطق عربي؟ إذ لا يمكن لانكليزي مسؤول أن يفكر في التالي:

«سأسمح لهذه المرأة غير الانكليزية، التي اتصلت عشرات المرات، بأن تصعد إلى برج بي تي. فهناك الكثير من الغرباء يصيبهم الهوس بمعالم المدن الجديدة، كتلك الآسيوية التي تسللت إلى مكتب من مكاتب أسكوتلنديارد في لندن وخرجتْ منه وعلى رأسها خوذة حربية وعصا ودرع من بلاستيك من غير أن يراها أحد. وسمير الذي ظن أن قرده يستطيع أن يتسلق ساعة الفورتنم أند مايسون ويأتيه إمّا بمستر مايسون أو بمستر فورتنم أسوة بالقرد الذي ضبط وهو يسرق أريل تلفزيون في نيجيريا».

«البرج يهديني وكأنه منارة، كأني مركب تائه»، أعجب هذا التشبيه مكتب ال بي تي، لذلك عاود أحدهم الاتصال بلميس: «أعددنا كل شيء، أرجو اصطحاب بطاقتك الشخصية». إذن الانكليز كالعرب، يجدون ثقوباً في قوانينهم عند الحاجة.

رواق الانتظار في برج بي تي يشبه باراً في وضح النهار. نقطة صفراء مغزولة في السجادة تزاحم الألوان الأخرى الرمادية الزرقاء، لا تريد أن تكون يتيمة.

ثم يأخذ رجل المصعد ليس إلى دور ٣٤. قال لها إنه لا يشعر بالدوار من جراء السرعة، ولا تنسد أذناه ولا تُفتحان: تبقيان على حالهما. وإذ فتحت المرافقة لها الباب، تركتها تقف أمام السماء. عرفت ليس سر زهو رجل المصعد. وقفت أمام السماء وخطوط الأشعة التي كانت تُفرّقها الشمسُ بالعدل والقسطاس على كل لندن، لو قاس العلماء ذلك لوجدوا أن كل شعاع لا يختلف عن الآخر.

اكتشفت ليس الآن كيف تنير الشمس لندن، واكتشفت أن السماء ذات جلد يحميها. تهيأ لها أنها سوف ترى الله على شكل إنسان تماماً، كما تُظهره اللوحات الدينية، يهبط من أصابعه النور، وكأنها أعواد ماء قامت بتجميده مئات السنين.

أبنية أينما كان، تمتد وتعلو وكأنها أشجار كاكتوس في هاتيك الصحراء والسهول في أفلام الكاوبوي. تطل ليس على أبنية لولا نوافذها لمرت عليها الأعين ولم تتوقف. نوافذها كأنها أعين مكحلة، على رموشها مرت فرشاة الماسكارا وتركتها واسعة. بودرة الأجفان الملونة أضفت عليها سحراً وانتشلتها من غرفة النوم إلى الكرنفالات. خصلات شعر من أضواء النيون الزرقاء والبرتقالية. ناطحات سحاب في منطقة كناري وورف يضيء أكثرها طولاً بسعادة لأنه ليس وحيداً. القبب وقبعاتها الفيروزية المخضرة بلون الصدأ. برج لندن يمسك بيد أخيه خوفاً عليه من الوقوع. والحشيش يدفع عنه البنايات ويطل باخضراره ثم تدفعه البحيرات لكي يوسع لها مكاناً تنام فيه. لكن ليس لا ترى البط والأوز.

عين مخيلتها تريها ابنها خالد، غرسة يانعة في بيت والده الذي يعج بالرجال، كل رجل يجلس فوق «بروستاته» المتضخمة وكأنها حبات المسابح التي تطقطق بين أياديهم. تريها خالد أيضاً بين أشرطة الكومبيوتر والألعاب الإلكترونية والمال، كيفما يضرب كفه يهزّ المال ويعبئ جيوبه. وجدتّه تدافع عنه.

يتحوّل العراق في تلك الشقة إلى كلمة تتعالى وتموت عند جدرانها بلداً بعيداً، في المسافة والذكرى.

يعود نظرها إلى الأبنية التي كانت تتنفس من أعلى رؤوسها، بينما بنايات نيويورك تتنفس من أقدامها.

تعود بعينها إلى منطقة فكتوريا، ترى نيقولاس يمتحن الأعين في رسومه، يسألها لماذا تركت ليس المفاتيح فوق أجسامها.

أين هي يا ترى منطقة أنيتا؟ أنيتا التي عجزت عن إجابة رسائل ليس الهاتفية وحين أجابت صدفةً قاطعتْ ليس وهي بصدد إخبارها بترك نيقولاس لها: كم هي أخبار العشاق مملّة، مضجرة، سواء أَوقعوا في الحب أم افترقوا...

تحاول ليس أن تتبين أين تعيش حالياً، تقرأ عند الخارطة المعالم، ثم تلحق بها مسرعة بعينيها اللتين تجريان الآن فوق السطوح. فوق كلمة الـ Round House، فوق كلمة الـ Zoo، فوق كلمة Baker street ثم تقارن الرقم وتتعرف إلى الساحة والبنايات، إلى.. عَلَمَ إحدى السفارات، تعدو بمواجهته وترى ظهر البناية، وتتبين اللون القرميدي، وتتبين الفم الصغير الذي ينفرج عن شفتين، هنا.. هنا

نافذة غرفة نومها.. من يحزر أن غرفة نومها فارغة إلا من سريرها وعلاَّقات وملابس. هنا حمامها الفارغ إلا من كريمات الوجه وألواح الصابون والمناشف. ترى نفسها في غرفة نومها تتأمل البرج، ومن البرج تتأمل غرفة نومها. تطل من نفسها على نفسها، وتكتشف حصوة علقتْ في جدول ولم تعد تنساب مع الماء. لا يتأمل من النافذة هكذا ويتفرس إلا الوحيدُ والغريب، إلى حيث يطير ويحط في تلك الأماكن التي يتأملها، فتبعث فيه الشعور بأنها ترحِّب بالزائرين على كنباتها وتودعهم. رأت نفسها بلا مأوى، بلا دخل. رأت نفسها تجمع كل شجاعتها وتدخل دكان بيع الأزهار تسأل عن وظيفة.

تغادر ليس البرج بعد أن تستلم من على طاولة الاستقبال علبة فيها شوكولا وكتيِّباً عليه اسمها. تفتح علبة الشوكولا حين تخطو خارجةً، حتى تقضم تلفوناً بنياً وآخر بنياً غامقاً، بما فيه من حشوة لذيذة وأرقام وأسلاك، وتفتح الكتيِّب فإذا بشهادة تنص على أنَّ ليس (...) صعدتْ ١٥٨ متراً فوق لندن في تاريخ (...) تصطدم برجل، تخض له كوب القهوة الورقي الذي كان يحمله، القهوة تسيل على الأرض وتلطخ حذاءه فقط. تعتذر منه قائلة:

ـ ما زلت في دنيا أخرى، كنت في البرج.

ـ لا بأس، لا بد أن المنظر خلاَّب.

ـ جداً، جداً.

ـ لم أعرف أن المطعم فُتح للجمهور من جديد.

ـ لا ، لا، إنما أردت أن أرى لندن من فوق.

تسير وتكمل تنفسها: «أردت أن أرى لندن ككف اليد، كشيء يجثم، لا ماض ولا حاضر، أي ماض يمسك بالحاضر، برج لندن والأسوار العالية والنهر ومبنى الضفة الجنوبية. كل هذه تراءت بلا غرباء، بلا لهجة، بلا لغة، بلا ملكة، بلا مشردين، وبلا شرطة السير، وإذا بلندن تختفي كلها ما إن وضعتُ كفي على عيني. وما إن رفعتها حتى رأيت نقطة ملونة، أطفالاً يلعبون في ملعب مدرسة الباسكيت بول، تختلط ألوانهم وملابسهم، وكأنهم يعيشون جميعاً فوق الدائرة المقسمة إلى أقسام ملونة».

تسرع إلى الشقة، تريد أن تزحزح تلك الحصوة، وجدت الكثير من العراقيل. عليها أن تفتح بقية الصناديق التي كانت ما تزال في الردهة. فتحت الصندوق الأول، غطستْ في حياتها الماضية قليلاً واذا بها تتلاشى. فتحت صندوقاً آخر وآخر، حتى مات الماضي الذي كان يعشعش بها. أخذت دفتر تمارين اللهجة الإنكليزية ثم قرأتها. لم تستطع تبديل لسانها. كيف تستطيع أن تستبدل الكلمتين الانجليزيتين dish washer ومعناهما: جلاية الصحون، بالكلمة العربية «وشوشة»، لأن الأصل والترجمة متشابهان إلاّ من حرف الراء، كما طلبت منها المعلمة. وكلمة الوشوشة، كاتمة الأسرار، كيف ترددها من غير أن ترى نفسها تهبط إلى السرداب بخطوة هادئة كخطوة القطة لتوشوش والدها أن يتوقف عن عزف عوده فيعلم أن الجد قد أتى للزيارة؟

جواز سفرها الإنكليزي في حقيبة يدها، ومع ذلك تصيح أنها بعيدة. هي على الهامش هنا. لا بدّ أن دلال وسميرة وبلقيس وفاطمة

وزينب وسعاد ولميس أخرى، رفيقات المدرسة اللواتي كن مثلها يطلقن على اسم طاولة الدرس كلمة «الرحلة»، رفيقاتها اللواتي كانت تشرب معهن الحليب وتأكل الكعك وتبتلع ڤيتامين كبد الحوت في النجف، هؤلاء يستدرن الآن، يهززن الأشجار ويحفرن الرمل من أجل إطعام أولادهن. كان من الممكن أن تكون في مثل حالتهن، يعتليها العرق وتبكي وهي تحاول بالقبلات أن تشفي أولادها المرضى.

كانت في الطفولة تود أن تكون ممرضة. كانت تسرق الشاش الأبيض من المدرسة، ولم تكف عن ذلك إلا عندما وعدها والدها بأن يعلمها الطب ثم نسي وعده. منذ أن فارقوا بيتهم، نسيت هي أيضاً. كانت تبحث عن بيتٍ سواه في ا لأودية وقمم الجبال والأراضي القاحلة.

عندما توقفوا عند احدى التلال، احتجّت لميس لدى أمها، ألحّت عليها أن يكملوا سيرهم إلى أن يصلوا «هناك» وكلها رعشة أن أحداً لا يعرف الطريق إلى «هناك».

تشعر لميس الآن أنها كانت نائمة طوال هذه السنوات، وأنها نهضت لتوها لتكتشف أن عمرها ما زال اثني عشر عاماً، ولها ولد في العمر نفسه ويسألها أين باتاغونيا وكوين لاند؟ وهي أيقنت أنها بلاد پيتر پان. يسألها إذا كان الصومال بلداً عربياً، وهي تخفي خجلها من جهلها وتلوم تركها للعراق والمدارس الرديئة والزواج.

ـ هل لديك أيّ شهادة مدرسية من العراق، من لبنان، حتى نستند عليها؟

ـ لا شيء.

ـ إذن، تأخذين مادتيْ A level وعندما تنجحين تدخلين الجامعة.

ـ مدرسة مع من هم أصغر مني سناً؟

ـ هناك مدارس للذين مثلك، لم تقولي أيَّ قسم تريدين التخصص فيه؟

سكتت لميس، كيف لها أن تعرف، وهي تشعر أنها فعلاً في الثانية عشرة من عمرها، وهي السن الذي تركت فيها مدرستها في العراق لتدخل بين حين وآخر مدارس تكاد لا تذكر من رداءتها، تعتمد كبقية اللاجئين على مساعدات المنظمات والأحزاب السياسية؟ تشعر المسؤولة بحيرة لميس، فإذا بها تبتسم مشجعة وتقول:

ـ طبعاً... هذا السؤال سابق لأوانه، لكن هناك أقصوصة من صحيفة **الأندباندنت** معلّقة على لوحة الإعلانات. حاولي أن تقرأيها.

تشكرها لميس، تبحث عن لوحة الإعلانات ثم عن الأقصوصة وتقرأ.

صحيفة **الأندباندنت**، الاثنين ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٩. فرانسيس هيل، سكرتيرة لها من العمر ٣٧ سنة، تفوّقتْ على من هم في الثامنة عشرة وأحرزت أعلى علامة في المادة الإنكليزية في A level.

فرانسيس هيل، التي «تركت المدرسة وعمرها ١٦ سنة من أجل أن تعمل في مصنع»، ستنال غداً ميدالية فضية.

*

الجملة العربية التي تقول: «لساني دافئ، أي أني لا أفشي سراً، تترجم إلى الانكليزية، لساني دافئ أي أنه شهيّ للقبلات».

هكذا ترجم سمير جملته «لساني دافئ» وهو يؤكد لجون الشرطي أنه لم يفتح فمه بأية كلمة عندما اتصل بالمخفر يسأل عنه.

ـ هل ترى، سمير، كيف تغازلني بلا توقف أينما كان. لا أريد أن يعرف أحد، خاصة الپاوندات التي أخذها منك، وإلا انتهى أمري!

يجيبه سمير بالعربية:

ـ طبعاً. الكل يعرف، أول ما شفت روك هدسون في فيلم «حديث الوسادة» قلت له: اطلع منها! اطلع (ثم بالانكليزية): أنت يا جميلة يا جوني جيتار يا شريرة.

تقوم أميرة بتنفيس الكرة التي استوت في بطنها، وبتنفيس قليلٍ من كرتيْ مؤخرتها. تنجح في تخسيس وزنها إلى درجة ما، بعدما أخذت تأكل اللبن الرائب مع مواد توهم الجسم أن المعدة امتلأت. عادت إلى عملها، لا كأميرة في مأزق، بل كمشاهدة على ما حدث لتلك الأميرة، والزبائن يضحكون ويتسلون ويطلبون منها إعادة تلك الجملة وتلك القصة، وهي تخبرهم كيف انطلت حيلتها على المخابرات الانكليزية، وذاك الثري، وذاك الشيخ وذاك الأمير، وذاك العجوز وحسبوها أميرة.. وهكذا أخذ الرجل يقول للرجل الذي يقول لصديقه

الرجل عن مغامراتها. يتهافتون للاستماع إلى قصصها ووصفها لأصحاب المراكز وكيف ضحكتْ على شواربهم، وكيف قالت لهذا «هل أنت تنام مع امرأة أم مع جنسية هذا البلد أو ذاك»، وكيف قالت لأحدهم «هل أنت تنام مع امرأة أم مع لقب»؟ وللآخر: «أسديت لك خدمة من أني انتحلت شخصية قريبتك؟ تصور إذاً أنت فعلاً انتهزت فرصة ضعف أوضاعها وفعلتْ بها ما فعلتَ بي؟ أين ستواري وجهك عند عودتك إلى البلاد؟».

تقوم بتسليتهم وهي تفكر أنها فقدت البراءة. كان عليها أن تؤْمن بالحب، حب خطيبها الذي تركته من أجل أثاث غرفة النوم التي وعدت الأمُ بتقديمه للخطيبين ونكثتْ بوعدها، من أجل شعورها بالحقارة الذي فاق الغضب وهي تسمع أم خطيبها تقول: «لا غرفة نوم! لا زواج».. والذي جعلها تفكر في أن تأخذ روحها، أو تترك بلدتّها والفقرَ وخطيبهَا لتعود إليها ثرية فوق الريح. وتركت، وخطيبها لم يتوقف عن الكتابة إليها طويلاً «بدموع عينيه وبريق فمه» على حد قوله. لو آمنتْ بحبه لما كانت خافت من الحياة الآن.

يدخل عليها سمير بصينية تحوي بضعة قلوب من الخس «راح تخليك تنامي مثل القتيل». ينحني ويسحب فيش التلفون قبل أن يطفئ لها النور.

- النور فهمنا! وفيش التلفون؟

- مشان تنامي وأنا نام. تعبان، تعبان كتير.

بعد موت ناهد، ألحّت أميرة على سمير أن تناديه باسم ناهد ليجيبها: «بشرط واحد أن تناديني كابوشينو». وكابو شينو تبنّتْه حديقة «عالم السعادين» في دورست.

وسمير، الذي تآخت معه كما يتآخى المشط مع الشعر، انتقل إلى العيش معها فور رحيل عائلته إلى بيروت. أصبح يعمل بلا توقف، يدور في الشوارع حيث مواقف السيارات ليراقب العدّادات التي تشير إلى الوقت المحدد لها، وما إن يرى أن الوقت يكاد ينتهي لهذه السيارة أو تلك حتى يسرع ويغذي العدّاد ببعض الجنيهات. ينتظر إطلالة صاحبها، ليخبره كيف أن السماء أرسلته في اللحظة المناسبة، لولاه لكانت شاحنة شرطة السير أطبقتْ على دولاب سيارته، ولكلّفه هذا حوالى مائة پاوند فيسر صاحبُ السيارة لسلامة سيارته ويعطي سمير عشرة پاوندات وأحياناً عشرين پاونداً. وفي الليل كان يدور على علب الليل العربية يرفّه عن الزبائن بإخبارهم عن كابوشينو وهو يقوم بدور كابوشينو وبدوره هو في آن: ماذا فعل كابوشينو في العرس وماذا فعل هو...

تتخبّط أميرة في سريرها. ليست ناعسة.. الحقيقة تشتاق إلى أكل قلب خسة آخر. تنهض من سريرها، تسمع سمير يتحدث في تلفونه النقّال مع مكتب الايسكورت، يهمس:

ـ هل لديكم رجل كالرياضيين في الألعاب الأولمبية على التلفزيون؟ هل شاهدتم هذا المساء شاباً قوياً، يركض، يا الله ما اسم القفز العالي بالانكليزية، ربما «قفز آلي»؟

تضحك أميرة. تشعل نور الردهة فيقفز سمير المقرفص على الأرض ويهمس للمكتب:

ـ أكلمكم بعد خمس دقائق.

*

أسابيع مضت بعد رحلة ميس إلى شقة نيقولاس في بيمليكو. شغلت نفسها بشتى الأشياء. أدمنتْ تناول الشوكولا والاتصال الهاتفي بابنها كل يوم، وأخذت تواظب على دروسها وفروضها وعلى عملها كمنسِّقة للأزهار عقب زيارتها لبرج الـ BT في دكان اشتهر بابتكاره وتفننه، لتجد نفسها سعيدة بين الأصاصي، والزهور والشذى، تماماً كما أرادت عندما قررت العيش في دُبي، لكن بفرقٍ واحد: فهي الآن بين الزهور والألوان التي تراها وتستنشق عطر بعضها للمرة الأولى في حياتها، بينما كان عليها في دُبي أن تحيط نفسها وتنسّق الأغصان والزهور الجافّة، الميتة، بلا شرايين وبلا أوكسجين.

لكن رسالة أتتها ذات صباح وعليها طابع إنكليزيّ اقتحمتْ قلبها وقلبتْ حياتها رأساً على عقب.

«حبيبتي ميس

اكتشفتُ أن آكلة الحشرات هي في الحقيقة غرسة خجولة، ذات شهية فقط للمذاق الطيب، لا كما يُعرف عنها بأنها الغرسة الشريرة آكلة اللحوم! تذكرني بك زهرة التوليب التي أرسلتها إليكِ. على كلٍ، أريد أن أوضح بل أن أعتذر عن تصرفي الذي من أجله ما زلت أدفع الثمن. وخجلي الشديد هو الذي يحيل بيني وبين الاتصال بك.

يجزم العاشق أن معشوقته دخلتْ حواسه وحياته الماضية بل كانت شاهدة على ولادته. فأنا إلى الآن مثلاً لم أر شعرك مبلولاً، ولا خصلاته المجعّدة التي تخبريني عنها.

لم أفكر يوماً، قبل أن ألتقي بكِ أني أريد البقاء في علاقة. كنتُ قد أخذتُ قراراً بأني ما زلت في سن لا تمكنني من الانصهار في أنثى واحدة، مكتفياً بها. وكنتُ متأكداً أن عيني سوف تميل إلى امرأة أخرى. فأنا قد أخبرتك عن ليز وعن الكثيرات. لا أريد الآن أن أردد الكليشيه: لا أعرف ما طرأ عليَّ عندما تعرَّفتُ بك، بل أن أقول: عرفتُ تماماً ما حدث لي عندما التقيتُ بك. أصبحتُ فجأة في الخامسة والثلاثين من عمري، مادّة خُلِقتْ للانصهار. وعيني تحولّتْ إلى بوصلة وجّهتني إليك. شعرتُ لأول مرة بأني إذا جلست كما في الماضي أمام التلسكوب لأدرس النجوم والكواكب، لن يسيطر عليَّ الرعب كما حدث لي في المرة الأخيرة التي قررتُ فيها انصرافي عن علم النجوم.. فسؤال الوجود جعل مشاعر كالندب تصيب أعضائي. والقول الشائع بأن الإنسان ما هو إلا نقطة في أوقيانوس وحبةَ خردل في غابة تمكنت مني لدرجةٍ أن أعضائي أصيبت بالشلل ولم يعد باستطاعتي مفارقة مكاني.

في الفترة الأخيرة تبدل ثالثنا ونحن نمارس الحب. الاكتفاء والالتقاء وانفتاح النفس أصبحت شعوراً بفقدانك وبعدم الأمان. أخذتُ أراكِ سائحةً قدمتْ إلى لندن في إجازة، وقررتْ مسبقاً أن تستمتع بوقتها وتخوض تجارب حالمة لا علاقة لها بحياتها في بلدها، لتتعرف برجل إنكليزيّ، تماماً كما تفعل سائحة انكليزية عندما تذهب في رحلة إلى بلاد الشمس والبحر، فتشعر بحرية كاملة تحثها على تحقيق نزواتها مع رجل من تلك البلاد لمدة قصيرة، مع رجل انكليزي، جزءٍ من هذه المدينة. وما إن تنتهي إجازتك حتى أصبح

شبحاً، أو شخصاً في صورة قرب بيغ بن، أو الأحرى بوابة الملكة الأم، البوابة التي تحبينها.

كنتُ أشعر أن علاقتنا كانت عبئاً عليك وأني أضغط عليك، لدرجة أنك لم تجدي بداً من حوْك الأكاذيب. مضيتِ في ايهامي بأنك فعلاً تريدين البدء في حياة جديدة معي والانتقال إلى مكانٍ خاص بنا، نقطتان في أوقيانوس أو حبتا خردل في غابة.

اكتشفتُ أني أتهجّم عليك كلما شعرتُ بأننا لا نسلك معاً درباً واحداً مصيراً واحداً، كلما أردتُ الالتصاق بكِ أكثر وأكثر. لم أشأ الركون في درج تسحبينه خارج الخزانة في مكان معين وفي زمن معين ثم تردينه إلى عتمة الخزانة لأن الظروف ليست مواتية: زوج سابق، حماة سابقة، جالية عربية بكاملها. لن آتي على ذكر خالد، لأني وعدتك بألاّ أتدخل بينكما، وكم كان بودّي أن أتعرف به.

كنت أشعر أن هناك مسائل تريدين حلها والتفكير فيها، وجودي كان يشوّش عليك هذا، يأخذك في اتجاه قد يكون عكس الاتجاه الذي تودينه. باختصار كان يجعل الأمور أكثر تعقيداً وغبشاً. ربما تتهمينني الآن بأني لم أكن صريحاً معك لأني لم أسألك الخيار بين العيش معاً أو الافتراق. لكن كيف لي أن أفرض عليك أن تشعري نحوي بأيّ شعور، خاصة أنني كنت البادئ في حبك؟

لم أجب على مراسيلك لي. كنتُ خائفاً أن تكون نتيجة تقنّع الحب بصور أخرى، أو نتيجةً للشعور بالفقدان، العادة، الضياع، الكبرياء، التحدي، حتى الفضول. وأنتِ حتى الآن ما زلت تعيشين في شقة زوجك السابق.. من يدري لربما تودين العودة إليه.

وأنا أعترف لك بأني كنت طماعاً، والمحب طماع. أعرف أني كنت متسرعاً، والمحب متسرّع. إذا لم أكن طماعاً ولا متسرعاً فهل أكون حبيباً»؟ ـ نيقولاس.

ملاحظة: أنا في عُمان. لقد سألت أحدهم أن يودع رسالتي بريد لندن، حيلة.. من أجل أن تفضيها.

*

إنه قريب منها إلى درجة أنه في غرفة النوم، في المطبخ، ستسمع إدارته للمفتاح في الثقب بين لحظة وأخرى.. المهدي المنتظر يعود. عندما درستْ لميس حصة الدين عن اختفائه في سرداب جامع سامرّاء، سألتْ جدها هل إذا ظهر المهدي، ستعاقبه أمه لأنه اختفى ولم يقل لها أين ولم يتصل بها، أو أنها سوف تهجم عليه تقبّله سعيدةً بعودته؟

*

لندن تنام من غير أن تخلع عنها ملابس النهار، ومن غير أن تستحم فقط عند الساعة السابعة صباحاً حين تتثاءب من الضباب يبتدئ العمال بتنظيفها، يجمعون نفاياتها ويعدونها استعداداً للنهار، بينما يأتي من يعبِّئ أوردتها ببراميل البيرة الفارغة المتروكة عند مداخل المطاعم والحانات. فتستعد لتعود نرجسية تحوم حول نفسها، ترى واجهات مخازنها، تربةَ ورودها، عشبَها الأخضر. تنظر إلى

الأشـجـار وأشـجـارُها تنظر إلى السـحب. تماثيل البنايات المزخرفـة تلقي التحية بعضها على بعض.

اتصلت لميس بسوذوبيز حتى تتأكد من أنّ نيقولاس مازال في عُمان. خافت ألاّ تجده، بل خافت أن يكون عائداً في الطائرة نفسها إلى لندن ويجلس في مقعدها هذا، تترك له ورقة لا يمد يده إلى جيب المقعد قبالته. أصبحتْ متأكدة أنها لن تجده في عُمان. لا بدّ أنه غطس في البحر كعادته مع أفراد نادي الغوص ولم يعد، أو تراه من بعيد جالساً مع امرأة انكليزية تحت أشجار جوز الهند.

تمسك الآن علبة الملح والبهار الصغيرة تقرأ بالعربية «ملح وبهار»، ثم تمسك بكيس صغير من ورق الألومنيوم تقرأ عليه «منديل معطر».. تمسك كل هذه بحنان، تمسك الكلمات. هل فكرت فعلاً يوماً أن تستبدل هذه الأشياء حتى تزيل ما ورثته، أي لا تعود ترى وتسمع وتتكلم وتتنفس؟

في الدرس الأخير، عندما وقفتْ لميس تناجي البريم روز هيل قائلة: «إذا كان هناك فعلاً ملكة للكلمات ، أرجوكِ أسعفيني، إذ يبدو أنني فقدت العربية». لكن المعلمة أحبت الطريقة التي ناحت بها لميس، وابتهلتْ إليها: «لا تفقدي هذا. هذا الذي يميزك عنا»...

وكانت لميس قد سألت المعلمة، وذبابةٌ كبيرة تدخل الغرفة من الزجاج المشقوق، وأزيزها يأخذها إلى النجف: «لماذا أزيزها هو واحد.. على أرض إنكليزية أو على أرض عربية؟ لماذا لا تكون لغة العالم واحدة؟».

تمر الطائرة على الجبال، ومع ذلك لا تسمع ليس الموسيقى الكلاسيكية التي صدحتْ في سيارة نيقولاس، قبيل المساء، وهي تتدحرج من أعالي قمم جبال مسقط السوداء، والهواء يعيدها إلى داخل السيارة ورائحة اللُبان تطفح حتى من ملابسه، إذ دأب فندق «البستان» الجميل في إشعال البخور ليل نهار وترك أنامل الماء ترش رذاذها على الحر. لم يكن نيقولاس وحيداً هذه الليلة: فالمرأة التونسية التي إلى جانبه جميلةُ التقاطيع والابتسامة، انكليزيتها جيدة، تعطي حديثها كل التركيز والانتباه إنْ خاضت في مواضيع جدية أو ثرثرة حول الموظفين الانكليز أو ناقشت السياسةَ المحلية والخارجية بحكم عملها في المجلة الإنكليزية الأسبوعية. ولكنْ رغم الوحدة التي كان يفرضها جمالُ المكان على العازبين رجالاً ونساء ويجعلهم يقربون بعضهم من بعضهم الآخر، فقد ابتعد نيقولاس عن غزل المرأة التونسية. أوصلها إلى مكان إقامتها، لكنها عادت وقرعتْ بابه وهو لم يفتح لها، بل أطفأ الأنوار كلها وجلس في العتمة.

تقترب الطائرة من خليج عُمان. تَعِدُ ليس نفسَها بأنها لن تهتم بتطبيق لهجتها على حديثها، ستترجم ترجمة فورية من العربية إلى الانكليزية حتى لو بدا منطقها متعرجاً. لن ترجئ موضوعاً خوفاً من أن يكون تفسيره يشمل الكثير من المرادفات والكلمات التي لا تستطيع أن تجد لها المعنى ذاته في الانكليزية، وكلمات يتعذر نطقها. ستقلد سمير الذي يحاور حتى عندما يقول بدل «اكسترا اكسترا ان سترا ان سترا»، ولفظة: in it بعد كل جملة.

في الليلة الأخيرة قبل اختفائه، أراد نيقولاس أن يناقش معها علاقتهما. أراد أن يسمع نواياها. كان في أشد الصراحة عندما قال لها: «لا أريد مغامرة، أريد ارتباطاً، أريد إطاراً لحياتي»، وهي جلست تنظر في خطوط البساط الملونة تحاول أن ترى هل هناك حافة لكل لون وكيف تم مزجها معاً. لم تجد الجواب لأنها لم تكن تجرؤ على التفكير في السؤال.

تجمع كتاب مادة التاريخ والمادة الانكليزية وتعيدهما إلى شنطة يدها. تقرأ الجملة الأولى من موضوع الإنشاء والذي حازت فيه أعلى علامة في الصف: «عليَّ أن أجلس الآن وأكتب أنّ لندن مكنسة كهربائية تشفط الهواء ذاته».

تطل من نافذة الطائرة، ترى الجبال الوعرة، والسواحل الزرقاء، والبيوت البيضاء والرمال أيضاً. تلاحظ علامة زائدة مضافة بالقلم الأحمر إلى علامة الـ A. إنه خالد.. ولقد كتب على الصفحة المقابلة الأشياءَ التي يريدها أن تأتي بها من عُمان، أو الأفضل من دُبي.. هذا اذا استجمعت شجاعتها وتوقفتْ هناك في طريق عودتها إلى لندن.

تحضّر نفسها للهبوط. تعدّ جواز سفرها الذي عثر عليه الراكب الإنكليزي، نيقولاس، وهو الذي أعادها إلى البلاد العربية، الرجل الذي جاء من الأطلسي الأخضر.. بحر الظلمات.

حنان الشيخ روائيَّة لبنانيَّة تقيم في لندن. من أعمالها: حكاية زهرة، مسك الغزال، بريد بيروت، أكنس الشمس عن السطوح. تُرجمتْ بعض أعمالها إلى لغات أجنبيَّة عديدة.

اختيرت كل من مسك الغزال، بريد بيروت، أكنس الشمس عن السطوح ضمن لائحة أهم الكتب الأدبيَّة العالميَّة من قبل أكثر من لجنة أدبيَّة.

ثلاثة أبطال، كل يصارع أوهامه. شابة عراقية جميلة، ومومس مغربية تدّعي أنها أميرة سعودية، وشاب من لبنان يصطحب قرداً راقصاً. كل منهم يقع في حب مدينة «لندن»، كلٌّ على طريقته يفاوض تعقيدات البقاء على قيد الحياة في مدينة تقدّم الحب والمال والحريّة مقابل ثمن باهظ: إنّه سيف ذو حدّين.

مضحكة، مشوّقة، مثيرة، مؤثِّرة: تلك رواية حنان الشيخ التي لا تجمع بين تناقضات العرب والإنكليز فحسب، بل تبني كذلك جسراً بين السرد الأدبي والشعبي.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر